التراث الروحي

الرَّسائل المُتبادَلة

بين القدِّيسَيْن

هيرونيمس وأَوْغسطينُس

نقلها إلى العربيَّة

سعدالله سميح جحا

www.old-criticism.blogspot.com

دار المشرق - بيروت

الرَّسائل المُتبادَلة
بين القدِّيسَيْن
هيرونيمُس وأَوْغسطينُس

www.old-criticism.blogspot.com

لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للّاتين في لبنان
جعيتا، ٣١ كانون الأوّل ٢٠١٠

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠١١
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5348-3

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢ (٠١)
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

www.old-criticism.blogspot.com

مقدِّمة

اخترتُ أن أقدِّم، في هذا الكتاب، نموذجًا بالغ الأهمّيّة، عمّا كان لتبادُل الرسائل والكتب بين آباءِ الكنيسة الأوَّلين من أثرٍ بالغ في فهم الإيمان المسيحيّ على حقيقتِه، من خلال التفسيرات التي كانت مطروحة للبحث والنقاش، إن في النصوص الكتابيَّة أو في مؤلَّفاتِ أدباءِ المسيحيَّة، هراطقةً كانوا أم أصحابَ إيمان قويم؛ أو في نظريّات فلاسفة اليونان والرّومان وسواهُم؛ لا يُثنيهِم عن ذلك اختلافُ رأيٍ أو جفاءُ تعبير أو بعدُ مسافة.

وهذه الرّسائل، على قلَّتِها، تُبرزُ، في آنٍ معًا، شخصيَّةَ كلٍّ من القدّيسين العظيمَين، وأسلوبَه في التفسير والكتابة، وتعاطيه مع الآخر، حينًا بقسوة وجفاء، وأحيانًا برقَّةٍ ومرونةٍ وطلاوة ولكن دون تملّق ومحاباة. كما تُظهِر من جهةٍ، الأسقفَ غيرَ المتعالي بعلمِه وبمقامه؛ ومن جهة أخرى، النّاسكَ الصَّلب العارف بغزارة علمِه، الذي امتهنَ الدرسَ والمطالعةَ والشرحَ والتعليم والتأديب وملاحقة الهراطقة في عقرِ دارِهم، والخاضع، أبدًا، لسلطةٍ لا تُذعن لاضطهاد، وتتمسَّكُ بحقيقةِ الإيمان حتّى الشَّهادة.

درب السيم في ٣٠ أيلول ٢٠١٠

سعدالله سميح جحا

www.old-criticism.blogspot.com

١ - القدّيس أوغسطينُس في سطور

وُلِدَ القدّيس أوغسطينُس في ١٣ تشرين الثاني ٣٥٤، في طاغستا، في مقاطعة نوميديا، المعروفة، اليومَ، باسمِ «**سوق أخرس**» في الجزائر، على بعد حوالي ١٨٠ كلم شرقيَّ «**قسنطينة**»، و١٠٠ كلم جنوبيَّ «**عنّابة**». بدأ دراستَهُ سنة ٣٦١ في مدرسة طاغستا، مسقط رأسه. وبعدَ سنواتٍ أربع، انتقل ليُمضي عامًا في مدارس «مادورا». انقطع عن الدراسة، عامًا كاملًا من ٣٦٩ إلى ٣٧٠، أقام خلالَه في طاغستا. وفي خريف ٣٧٠، انتقلَ إلى قرطاجة، لمتابعة دراستِه. وهناك اتَّخذ له خليلةً (لا نعرِفُ اسمَها) وَلدَت له، في العام ٣٧٢، صبيًّا دعاه أديوداتي Adeodate. في العام التالي، وعلى أثرِ قراءَتِه كتاب «**هورتانسيوس**» لأفلاطون، تعرَّفَ إلى الفلسفة واعتنقَ المانويَّة. بعدها عادَ إلى طاغُستا ليعلِّمَ في مدرستِها سنةً واحدة. ولكنَّه ما لبثَ أن عادَ إلى قرطاجة حيثُ عملَ معلِّمًا لمدّة تسع سنوات. في العام ٣٨٣ ارتدَّ عن المانويَّة. وفي خريف ذلكَ العام، غادر إلى رومة حيثُ علَّم في جامعتِها سنةً كاملة. انتقلَ بعدَها، في خريف ٣٨٤ إلى ميلانو، وسرعانَ ما صارَ، بعدَ عام، أستاذًا رسميًّا محاضرًا في جامعتِها. في حزيران ٣٨٦، تعرَّفَ إلى الأفلاطونيَّة الحديثة. في تمّوز قرأ القدّيس بولُس. في آب اهتدى إلى المسيحيَّة، على أثرِ مشهدِ الحديقة (الاعترافات). ثم ما لبثَ، في أواخرِ آب، أن طلبَ إجازةً

www.old-criticism.blogspot.com

وغادر إلى كاسّيشياكُم Cassiciacum، ومن هناك، قدّم استقالته من الجامعة، رسميًّا. وستَها، كتب «**حواراتِه**» الأولى. وفي أوائل ٣٨٧، عادَ إلى ميلانو، حيثُ اقتبلَ العماد، ليلة عيد الفصح (٢٤-٢٥ نيسان)، هو وابنه أديوداتي وصديقُه أليبيوس Alypius. في أواخر الصّيف، غادر ميلانو ليُقيم في رومة. وفي تلكَ السنة، توفّيت والدتُه مونيكا في أوستيا، بإيطاليا. انتقلَ بعدَها سنة ٣٨٨، إلى أفريقيا، حيثُ عاشَ في طاغُستا حياةً نُسكيَّة من ٣٨٨ إلى ٣٩١. في العام ٣٩١، نوديَ به كاهنًا مساعدًا لفاليريوس أسقف هيبّون. وفي العام التالي، توفّي ابنهُ أديوداتي. بعدَ وفاة فاليريوس سنة ٣٩٦، نوديَ به أسقفًا خلفًا له، وكان ابن اثنين وأربعين. وفي ذلك العام، وضع كتابهُ الرائع: «**الاعترافات**». ثمَّ استمرَّ في التأليف، فوضعَ أبرز مؤلّفاتِه: «**في الثالوث**» (٣٩٧-٤٠٠) و«**مدينة الله**» (٣٩٩-٤١٧). عدا عن الرسائل والشروح، وما يربو على مائتي مؤلَّف، تطرَّق فيها إلى شتّى المواضيع الفكريَّة واللاهوتيَّة والإيمانيَّة والمسلكيَّة، وضعَ أوغسطينُس قواعدَ للترهُّب كانت ولا تزالُ منهلًا تستقي منهُ جميعُ الرّهبنات. توفّي في ١٣ آب ٤٣٠.

www.old-criticism.blogspot.com

٢ - القدّيس هيرونيمُس في سطور

وُلِدَ هيرونيمُس ما بين عامَي ٣٤٠ و٣٤١ في ستريدونيا Stridonia على تخوم بانّونيا Pannonia ودَلماتيا Dalmatia (كرواتيا الحاليَّة). نشأ في عائلة مسيحيَّة، وكان والدُه، يوسيبيوس، رجلًا نبيلًا وثريًّا. «اعتنى، في المهدِ، حليبًا كاثوليكيًّا». بقي وحيدًا مُدلّلًا حتّى الثالثة عشرة، حينَ أنجبَ أبواه أخًا وأختًا. يُروى أنّه تلقّى سرَّ العماد سنة ٣٦٠، من يد البابا ليبيريوس. تلقّى العلمَ في ميلانو، أوّلًا، وغادرَ بعدَها إلى رومة، لمتابعة دروسِهِ العلميّة والفلسفيّة. وبدا، في آنٍ معًا، شابًّا موهوبًا ومُحبًّا للمزاح، فتنشَّقَ عبيرَ تلكَ المدينة العظيمة، سيِّدةِ العالَم، عهدَ يوليانُس الجاحد. وفيها أُتيحَ لهُ أن يتعمَّقَ في الآدابِ اليونانيَّة واللاتينيَّة، وأن يدرسَ علمَ القواعِد والبلاغة على يدِ أشهرِ الخطباء. كان مثابرًا، مع رفاقِه، كلَّ أحدٍ، على زيارةِ قبورِ الرّسل والشُّهداءِ في تلكَ الدهاليز المُظلمة. وبعدَ سنوات غادر رومة، مع بونوسُس، إلى بلادِ غاليا Gaule، وأقام في تريفا Trêves «على ضفاف الرين النّصف بربريَّة» حيثُ تسنّى لهُ الإنطلاق في مسيرتِه اللاهوتية، فنسخَ لصديقِهِ روفينُس «**شروحَ المزامير**»، وكتاب «**في المجامع**» لهيلاريوس أسقف بواتييه Poitires. ثمَّ أقامَ بضعَ سنواتٍ مع روفينُس، في أكيلية Aquilae. في العام ٣٧٣، انطلقَ، بصحبةِ بعضِ الرِّفاق، في رحلةٍ إلى سوريةَ الشّماليَّة، عبر طراقية وآسيا الصغرى. وفي أنطاكية توفّيَ اثنانِ من

www.old-criticism.blogspot.com

رفاقِهِ، فيما تعرَّض هو للكثيرِ من الأسقام. ومن بينِها حُمّى صاعقة انقضَّت عليه سنة ٣٧٥، زمنَ الصّوم الكبير، وتركتهُ بينَ الموتِ والحياة؛ وفي أثنائِها رأى حلمًا تعهّد على أثرِه بالإنصراف عن الآدابِ الوثنية، والتكرُّسِ لله، في اختبارٍ صوفيّ. فراحَ يُمضي نهارَهُ وليلَهُ مكبًّا على الكتابِ المقدَّس، ينهلَ منهُ المعارِفَ الغزيرة التي ظهرت، لاحقًا، من خلالِ ما علَّمَ وكتب. ولَّدَ فيه عِلمُهُ الرَّغبةَ في التوبةِ والزُّهد. فغادرَ أنطاكية، بعدَ أن علَّمَ فيها ردحًا من الزمن، وانطلقَ، جنوبًا، قاصدًا صحراء **خلقيدة**[1] (خلقيس) المعروفةَ بـ«المعتزَل السوريّ»، نظرًا لكثرة النسّاك المعتزِلينَ فيها. وهناكَ التزَمَ تقشُّفًا صارمًا. في تلكَ الحقبة، تعلَّمَ العبريَّة على يدِ مُهتدٍ يهوديّ؛ وبقيَ على اتّصالٍ بمسيحيّي أنطاكية، واهتمَّ بمطالعة إنجيل العبرانيّين، المصدرِ الرّئيسي لإنجيل متّى، في اعتقادِ أهلِ أنطاكية.

بعد مدَّة، عادَ إلى أنطاكية، واقتبلَ الكهنوتَ من يد الأسقف بولينُس سنة ٣٧٨ أو ٣٧٩. ولكنَّهُ وجدَ نفسَهُ غيرَ مستحقٍّ، فلم يعتَلِ يومًا مذبحًا للاحتفالِ بالقدّاس. بعدَ فترةٍ قصيرة، غادرَ أنطاكية إلى القسطنطينيَّة، حيثُ أمضى عامين يتابعُ دراسة الكتاب المقدَّس بإشراف غريغوريوس النَزْيَنزي. وحينَ دُعيَ بولينُس الأنطاكي وإبيفانُس السَّلَميني إلى مجمعِ رومة المنعقد سنة ٣٨٢، برئاسة البابا داماسيوس الأوّل، للبحث في أمور كنيسة المشرق، إصطحبا معهُما هيرونيمُس. وجدَ فيهِ البابا رجلًا مستقيمًا، غزيرَ المعرفة، لا غنى عنهُ، فاستبقاهُ مساعدًا له في شؤونِ الشّرق، ومستشارًا في النصوصِ الكتابيَّة؛ فأمضى في رومة سنواتٍ ثلاث (٣٨٢-٣٨٥). أتيحَ لهُ،

(١) خلقيدة: (في سورية الدّاخليّة) إمّا أنّها قنّسرين جنوب حلب بحسبِ بعضهم، وإمّا هي مجدل عنجر في سهل البقاع بحسبِ آخرين.

www.old-criticism.blogspot.com

في تلكَ الفترة، أن يهتمَّ بمراجعة النصوص الكتابيَّة اللاتينيَّة، على أساس النّصوص السبعينيَّة للعهدِ القديم، والنصوص اليونانيَّة للعهدِ الجديد، وذلكَ في سبيلِ وضعِ حدٍّ للتبايُناتِ الحاصلة في النّصوص المنتشرة في الغرب. شغلَهُ هذا العمل سنواتٍ طويلة، وشكَّلَ الجزءَ الأبرزَ والأهمَّ من مؤلَّفاتِه. وأثناءَ إقامتِهِ في رومة، كانَ له تأثيرٌ ملحوظ، على نشرِ الدعوة إلى الحياةِ النسكيَّة. وراحَ ينتقِدُ بقسوة رجالَ الدينِ في المدينة، ما أثارَ حفيظَتَهُم ضدَّهُ، وانتظروا وفاة البابا داماسيوس، في ١٠ كانون الأوّل ٣٨٤ - ولعلّ هيرونيمُس كانَ أبرزَ المرشَّحينَ لخلافتِهِ - لكي يعملوا مع مناصريهِم على طردِه من المدينة؛ ووصلَ بهم الأمرُ إلى وضعِ ملابسِ امرأةٍ، قربَه، أثناءَ نومِهِ، للإيحاءِ بأنَّ امرأةً كانت مندسَّةً في فراشِهِ. فما كانَ منهُ إلّا أن نفضَ غبارَ حذائِهِ، وغادرَ رومة إلى أنطاكية في آب ٣٨٥، مع بولينيانُس ونفرٍ من الرِّفاق. بعدَها انطلقَ الجميع إلى أورشليم، وبيتَ لحم والأماكن المقدَّسة في الجليل، يُرافقُهُم بولينُس أسقفُ أنطاكية؛ ومن هناك سلكوا الطريقَ إلى مصر، حيثُ كانَ يعيشُ رُوّادُ الحياةِ النسكيَّة. تسنَّى لهيرونيمُس أن يستمِعَ، في الإسكندريَّة، إلى المُعلِّم ديديمُس الأعمى، يشرحُ نبوءَةَ هوشَع، ويروي ذكرياتِهِ عن أنطونيوس الناسك، المتوفّى منذُ ثلاثينَ سنة. كما أتيحَ لهُ أن يعيشَ لبعض الوقت في النطرون، يتأمَّلُ في حياةِ جماعةِ الرهبانِ الغفيرة، في «مدينةِ اللهِ» تلكَ. وفي أواخرِ صيف ٣٨٨، عادَ إلى الأراضي المقدَّسة، وأقامَ، حتّى آخرِ أيّامِهِ، في حجرةٍ حقيرة، بالقربِ من بيتَ لحم، محاطًا بعددٍ من أصدقائه، من الرِّجالِ والنساء.

هناك، كان يقتاتُ ممّا يُقدّمُ إليهِ، ويداوِمُ على الكتابة. وتلكَ الفترةُ الزمنيَّة التي امتدَّت ثلاثةَ عقودٍ ونيِّفًا، كانت الأغزرَ في نتاجِهِ

www.old-criticism.blogspot.com

اللاهوتيِّ والتعليميّ؛ فخلالَها، نقلَ العهدَ القديمَ من الأصلِ العبريّ إلى اللاتينيَّة، وكتبَ أفضلَ الشروحِ للكتاب المقدَّس، ودوَّنَ فهرسًا بمشاهير كتَّاب المسيحيَّة، وفنَّدَ مزاعم البيلاجيّين، كما كتبَ العديد من الأبحاث حولَ مختلَفِ الأمورِ اللاهوتيَّة والكتابيَّة والتفسيريَّة، وخاصَّة البحث في الخلاف مع يوحنّا، أسقف الإسكندريَّة، حولَ بدعة أوريجنّس. وعلى أثر كتاباتِهِ في البيلاجيّين، اجتاحت عصابةٌ منهُم حجرتَه وأضرمت فيها النار، ما اضطرَّه إلى اللُّجوءِ إلى حصنٍ قريب. وفي سنة ٤١٠، اجتاحَ «ألاريك» إيطاليا ونهبَ رومة، فهالَ الأمر النَّسرَ الرّومانيَّ العتيقَ الأيّام، ورأى فيهِ انهيارًا لعالَمٍ بحالِهِ، وكتب: «انطفأ النورُ الأبهى والأشدُّ إشراقًا في كلِّ الأرض؛ قُطعَ رأسُ الإمبراطوريَّة؛ والقضاءُ على مدينةٍ، قضى على عالَمٍ بأسرِه». وفي أوائل ٤١٩، تبدَّلت حياةُ النّاسك العجوز، واختارَ الفصيحُ الصّمتَ لما تبقّى من أيّامه، إلى أن وافتهُ المنيَّة، في العام ٤٢٠، على ما جاءَ في «أخبار» بروسبيرُس الأكيتاني Prospère d'Aquitaine. وعندَ موتِهِ، دُفنَ في أورشليم، ويُقال إنَّ رفاتَهُ نُقلَت، بعد ذلك، إلى كنيسة القدّيسة مريم الكبرى في رومة. تُعيِّدُ له كنيسةُ الغرب في ٣٠ أيلول، وكنيسة الشرق في ١٥ حزيران.

يُروى عن هيرونيمُس أنَّهُ كانَ يقولُ عن نفسِهِ إنّهُ، في آنٍ معًا، فيلسوفٌ وخطيبٌ ونحويٌّ ومُحاورٌ وضالعٌ في العبريَّةِ واليونانيَّةِ واللاتينيَّة. إضافةً إلى ذلك، كانَ هجّاءً مُقذِعًا، وجائرًا في بعضِ الأحيان، خاصَّةً في ما ذهبَ إليهِ من كلامٍ جافٍ توجَّهَ بهِ إلى أوغسطينُس الأصغر منهُ فقال: «إستمِع إلى نصيحتي، أيُّها الفتى، ولا تتحدَّ الشيخَ في عرينِ الكتابِ المقدَّس! إنَّكَ تُعكِّرُ صمتي، وتتباهى مختالًا بعِلمِك»!

www.old-criticism.blogspot.com

الرّسائل المتبادلة
بين هيرونيمُس وأوغسطينُس

www.old-criticism.blogspot.com

١ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

هي الرّسالة الأولى التي كتبَها أوغسطينُس إلى هيرونيمُس. إلّا أنَّها، وبسببِ عددٍ من الظروف والأحداث، لم تصل إلى هيرونيمُس إلّا بعدَ تسعة أعوام على كتابتِها.

في الرّسالة، يبدأ فيُشيد بأليبيوس، ثمَّ يأسف لأن يكون ناسكُ بيتَ لحم الجليل قد أنجزَ ترجمةً جديدة للكتاب المقدّس بعد السّبعينيَّة. ويضع ملاحظاتِهِ على الترجمة، ويُشيرُ عليهِ بأن يجهدَ، مستقبلًا، في التعمُّق بشكلٍ أدقَّ في الترجمة السبعينيّة. غير أنَّ مخاوفَه في هذا الشأن، لم يكن لها ما يُبرِّرُها. ونعلم أنّ ترجمة القدّيس هيرونيمُس أقرّتها الكنيسة في المجمع الترادنتيني Concile de Trente الذي أَطلقَ عليها إسم الفولغاتا La Vulgate. وفي الرّسالة لا يغيبُ عن بالِه أن يُناقشُ تفسيرَهُ لرسالة القدّيس بولُس إلى الغلاطيّين، حولَ الجدَل الحاصل في أنطاكية، بين بطرس وبولس، والذي لم يكن، بحسبِ ناسك بيت لحم، سوءَ تفاهم حقيقيًّا، بل فهمٌ مُتطوِّر يعرضُ مدى الأذى الذي يمكن أن يطالَ الكنيسة في حالِ طُبِّقت على المسيحيّين شريعةُ موسى القديمة. ويقف ملفان هيبّون ليواجِهَ، بقوَّة، تلكَ النظريَّة، مؤكِّدًا على أنَّها ضربةٌ قاصمة تُصيبُ الحقيقة التي يُنادي بها الكتاب. رسالة من هيبّون في افريقيا الشماليّة، يعود تاريخها إلى العام ٣٩٤ أو ٣٩٥. وهي تحمل الرقم

www.old-criticism.blogspot.com

٢٨ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، والرقم ٥٦ في مجموعة رسائل هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى أخيه العزيز وسيّده ورفيقِهِ في الكهنوت، هيرونيمُس، الجدير بالاحترام والمحبَّةِ الصّادقة.

١ - لم ترَ عينا صديقٍ، يومًا، وجهًا كالوجه الذي طالَعَتهُ به جهودُكَ الوديعة الرصينة الرّاقية في دراسة الرّب. وفي غمرة شوقي المضطرم لأتعرَّفَ عليكَ بكلّيَّتِك، فإنّي لواثقٌ من أنّي لا أفتقرُ إلّا إلى جزءٍ منك ضئيل، أعني حضورَكَ بالجسد. حتّى أنَّ صورةَ جسدِكَ هذه، حدّثني بها، لدى عودتِهِ بعدَ أن التقاك، أخونا أليبيوس، الأسقف القدّيس البارّ الذي استحقَّ الأسقفيَّة عن جدارة، فانطبعَتْ في ذهني. وفيما كان يراك، كنتُ أراكَ أنا أيضًا، ولكن بعينَيه. لأنَّ من يعرِفُنا نحنُ الإثنين، يعرِفُ أنّنا لسنا اثنين إلّا بالجسد، لما بيننا من اتحادٍ بالرّوح وثيق، تُعزِّزُه أواصرُ صداقةٍ خالصة. كلانا واحدٌ في كلِّ شيء، ما عدا الجدارة التي يتميَّز بها عنّي ويفوقُني فيها بأشواط. فلمّا كنتَ تُحبُّني، أوّلًا، بالشركة الروحيَّة الّتي تربطُنا، وثانيًا، بكلِّ ما أخبركَ به أليبيوس عنّي، فلن أكونَ مُتجرّئًا ولا مُتجاهَلًا، إذا أوصيتُ أخوَّتك المُبجَّلة بأخينا بروفُوتورُس Profuturus الذي آملُ أن ينجح، بجهودي وبمعونتِك، في كلِّ ما يوحي به اسمُهُ من حسنٍ طالع. ولعلَّه، بما يتمتّعُ بهِ من فضل، أجدَرُ بأن يوصيك بي من أن أوصيكَ به. رُبّما كان عليّ أن أختُم هنا، لو أردتُ الأخذ بمنطقِ رسائلِ المُجاملة. غيرَ أنَّ روحي تتوقُ إلى الاسترسالِ في الحديثِ معك حول دراساتِنا المشتَركة في سيّدِنا يسوع المسيح الذي تلطَّفَ ووهبنا، بواسطةِ تقواكَ ومحبَّتِك، الكثيرَ من الكنوز المفيدة، زادًا للإنطلاقِ في الطريق الذي أرشدَنا إليه.

www.old-criticism.blogspot.com

٢ - إنّنا نطلبُ إليك، وتُشاركنا في الطلب جماعة الكنائس الأفريقيَّة كلّها، ألّا تخشى من أن توليَ اعتناءَكَ ترجمة مؤلَّفات أفضَل الأدباء الذين وضعوا باليونانيَّة دراساتٍ في كتُبنا المقدَّسة. فإنَّك قادرٌ على أن تُعرّفَنا، نحنُ أيضًا، بهؤلاء الرّجال العظام، وخاصَّةً بذاك الذي تحرِص على ذكرِ اسمِهِ في رسائلِك (أوريجنّس). غيرَ أنّي أتمنّى ألّا أراكَ جادًّا في نقلِكَ الكتبَ المقدّسة القانونيَّة إلى اللاتينيَّة، إلّا إذا فعلتَ ما فعلتَهُ في سفرِ أيّوب، حيثُ أشرتَ إلى الفوارق بينَ ترجمتِكَ وبين السّبعينيَّة التي تتمتَّعُ، إلى الآن، بالسّلطة الأقوى. ولا يسعُني أن أعجبَ لأن يكونَ ثمَّة، بعدُ، ما يقتضي عملُهُ بشأنِ النّصّ العبريّ، ممّا غابَ عن ذاكَ العدد من المترجمين الأكْفاء. لا أقولُ شيئًا عن السّبعين الذين برهنوا عن توافقٍ تامّ في الشّعورِ وفي الروح، ما لا يُمكنُ أن يحصل لامرئٍ مع نفسِه؛ ولا أجرؤُ، في هذا المقام، أن أُطلقَ حكمًا، إلّا ما ينبغي أن نُقرَّ به، بلا جدل، من أنَّ السَّبعينيّة تسمو على كلِّ ترجمةٍ أخرى. أمّا ما لا أستطيعُ أن أفسّرَه لنفسي، فهو عملُ آخرِ الشُّرّاح الضّالعينِ في اللغةِ العبريَّة وتعابيرِها، الذين لا تجدُ توافقًا في ترجماتِهم، بل هناك الكثير ممّا فاتَهُم اكتشافُهُ وإظهارُه. فإمَّا أنَّ تلكَ الأمور كانت غامضة، وبوسعِكَ أن تُخطئَ مثلَهم، أو واضحة، فلا نُصدّق أنّهم كانوا ليُخطئوا. أتوسَّلُ إلى محبَّتِكَ أن تنوِّرَني في هذا الموضوع.

٣ - قرأتُ كتاباتٍ حول رسائل القدّيس بولُس، قيلَ لي أنّها لكَ. ووقعَ بينَ يديَّ شرحُكَ للمقطع الوارد في الرّسالة إلى الغلاطيّين، حيثُ يُلامُ بطرُس الرّسول على نفاقٍ خطير. لا أخفي عليكَ امتعاضي من رجلٍ مثلك، أو ممّن كتبَ هذا الكلام، أن يقفَ

www.old-criticism.blogspot.com

إلى جانبِ الكذب. إنَّ ألمي سيبقى محفورًا في قلبي إلى أن تتبدَّد شكوكي حولَ هذا الأمر، إن كانَ من سبيلٍ إلى تبديدِها. ما من شيءٍ أشدّ خطرًا من أن نعتقدَ باحتمالِ وجودِ كذبٍ في الكتبِ المقدَّسة؛ أي أن يكونَ الذين استخدمَهُم اللهُ لكي يُعطونا الكتاب كذبوا في أيِّ شيء. ثمّةَ فرقٌ كبير بين أن نعرِفَ إذا كان بوسعِ إنسانٍ صالح أن يتوسَّلَ الكذبَ، في بعضِ الظروف، وبينَ أن نعرِفَ إذا كانَ يجوزُ لكاتبِ الأسفارِ المقدَّسة أن يكذب. لا مجال للمقارنة بينَ الأمرين. فعندَما نتكلَّمُ عن سلطةٍ بحجم سلطة الكتاب المقدَّس، يكفي أن نقبلَ كذبةً واحدة بيضاء، حتّى لا يبقى شيءٌ من الكتاب. ففي كلِّ مرَّةٍ نواجهُ حكمًا يصعُبُ تطبيقُه، أو عقيدَةً تقبلُ الشّك، نسعى إلى التهرّب منها متسلِّحين بمقولةِ الكذبةِ البيضاء الخبيثة.

٤ – إذا كان القديس بولُس كاذبًا في مُواجهته بطرس الرّسول بالملامة حين يقول: «إذا كنتَ أنتَ اليهوديّ تعيش عيشَة الوثنيّين لا عيشة اليهود، فكيف تُلزِمُ الوثنيّين أن يسيروا سيرة اليهود؟» (غلاطية ٢؛ ١٤)؛ وإذا كان يستسيغُ سلوك بطرُس في ما يدينُه بهِ قولًا وكتابةً؛ وإذا كان لا يقولُ ذلكَ إلّا من أجلِ تهدئة النّفوس؛ فبمَ نُجيبُ، عندما ينبري فُجّارٌ مراؤون، ينهَونَ عن الزّواج (١ طيم ٤؛ ٢–٣)، فيقولون بأنَّ جهودَ الرّسول لترسيخِ قُدسيَّته (١ قور ٧؛ ١٠، ١٦) لم تكن سوى كذبةٍ يداهنُ بها الرِّجالَ المتعلِّقينَ بنسائِهم، والذين كان بوسعِهم أن يتمرّدوا، لأنّ الرّسول لم يكن ينطق بحقيقةِ أفكارِه، بل ليكبحَ مقاومةً أكيدة؟ ليس من حاجةٍ إلى تعدادِ الأمثلة. أيُمكن أن يُحمَلَ تسبيح الله على محملِ الكذبة البيضاء التي تهدفُ إلى إضرام الحبِّ الإلهيّ في القلوب الباردة الخاملة، فلا يعودُ للحقيقة، في الكتب المقدَّسة، من سلطانٍ راسخ؟ واضحٌ اهتمام

www.old-criticism.blogspot.com

الرّسول نفسهُ حين يوصينا بالحقيقة، فيقول: «إن كان المسيحُ لم يقُمْ، فتبشيرُنا باطلٌ وإيمانُكم أيضًا باطل؛ بل نكون عندئذٍ شهودَ زورٍ على الله، لأنّا شهِدنا على الله أنَّه أقام المسيح وهو لم يُقِمهُ» (١ قور ١٥؛ ١٤-١٥). فإذا قام من يقولُ لبولُس: «لماذا توحي لكَ هذه الكذبةُ هذا القدرَ من الخوفِ والرَّعدة، ما دام لا ضير على مجد الله، لو كنت على خطأ في ما تقول؟». هل كانَ الرّسولُ ليستسيغ لغةً جاهلة كهذه؟ ألم يكن ليسعى، بكلّ ما أوتيَ من كلام، لأن يكشفَ عن خفايا قلبه، ويقول بأنَّه ليس بالإثم البسيط، بل رُبّما كانَ جرمًا كبيرًا أن نسبِّحَ الله بالكذب، بدلَ أن نكشف الحقيقة؟ فعلى كلٍّ من تاقَ إلى معرفةِ الكتب الإلهيَّة، أن يُقرَّ بصحّتِها وبقدسيَّتِها، وألّا يتلهّى بالبحثِ فيها عن كذبةٍ بيضاء، بل أن يتجاوزَ كلَّ أمرٍ يعصى عليهِ فهمُه، ولا يفضِّل شعورَ قلبِهِ على الحقيقة. إنَّ من يتكلَّمُ عن كذبةٍ بيضاء، يُريدُنا، بالتأكيد، أن نُصدّقَه، وكأنَّه يسعى إلى أن ينزعَ منّا كلَّ إيمانٍ بسلطانِ الكتب الإلهيّة.

٥ - فيما يعودُ إليَّ، وبقدرِ ما حباني الله من قوة، لكنتُ أتيتُ بالبراهين على أنَّ كلَّ تلكَ النّصوص التي جيءَ بها لتدعمَ جدوى الكذب، ينبغي أن تُفهَمَ على وجهٍ آخر، فتتأكّد حقيقتُها الرّاسخة. لأنّ النّصوص المقدَّمة كدليل، ينبغي ألّا تكونَ كاذبة، بقدرِ ما ينبغي ألّا تكونَ دعمًا للكذب. وأتركُ الأمرَ لمعرفتِك. لعلَّكَ، بقراءةٍ مُتأنّية، تراه خيرًا ممّا أراه. وستجعلُكَ تقواكَ تُدرك بأنَّ سلطةَ الكتب الإلهيّة ستكونُ، إذ ذاك، موضع ارتياب، فيصدِّقُ هذا، ويُكذّبُ ذاكَ كلَّ ما يطيبُ لهُ، فيما لو ارتضينا، ولو مرَّةً واحدة، أن يكونَ قُدِّرَ للّذين سلّموناها، أن يكذبوا في شأنِها ولو كذبةً بيضاء، إلّا إذا أتيحَ لك، أنتَ، أن تُعطينا بعضَ القواعد الّتي تُرشدُنا أينَ نُصدِّقها، وأينَ

www.old-criticism.blogspot.com

نُكذِّبها. فإذا كانَ ذلكَ بمتناولِك، أتوسَّلُ إليكَ أن تُجيبَنا بحُجَجٍ لا يكون فيها للشّكِ أو للخطأ مكان. لا تتّهمْني بالجسارة ولا باللّجاجة؛ إنّي أسألُكَ الإجابةَ باسمِ الحقيقة التي صارت إنسانًا في يسوع المسيح ربِّنا؛ لأنّي أرى أنَّ خطأً أرتكبُهُ ويُفيدُ الحقيقة، ليسَ بالخطأ الجسيم، إذا استطعنا، حقًّا، أن نجدَ عندك أنّ الحقيقةَ تُراعي الكذب.

٦ – ثمَّةَ أمورٌ أخرى أودُّ أن أخاطبَ بها قلبك البريء؛ ولكان لي سرورٌ عظيم، لو تسنّى لي أن نتحدّثَ معًا في الدراسات المسيحيّة؛ ولكنَّ رسالةً لا تفي برغبتي. إنَّ المحادثات التي أتمنّاها، سأحظى بها، وافرة الثمار، عن طريقِ الأخ الذي يسرُّني أن أوفدَهُ إليك، فيغتذي من كلماتِك العذبة والمفيدة. ولكنّهُ – وليُسمحْ لي بقولها – قد لا يجني منها قَدْرَ ما أبتغي، ولو انّني لا أضعُ نفسي في مقامٍ أرقى. إنّي أعترِفُ بأنّي أقدَرُ منهُ على استيعابِ ما يرِدُني منك، معَ أنّي على يقينٍ من أنَّهُ يفوقُني، بلا قياسٍ، في كمالِ المواهب. ولدى عودتِهِ بخير، ببركة الله ومعونتِه، كما أرجو؛ وعندما أقاسمُه الكنوزَ التي أفاضَها عليه قلبُك، فإنّها لن تكونَ كافيةً لمَلْءِ فراغِ قلبي، ولن تُروي ظمأَ روحي العطشى إلى أفكارِك، فأبقى أنا على فقري، وهو على غناه. حمّلتُ هذا الأخ بعضًا من كتاباتي. فإن تلطَّفتَ وقرأتَها، أرجو أن تُعاملَني بقسوتِك الأخويَّة الصّادقة. كُتِب: «ليضربْني البارُّ رحمةً منه، وليوبّخْني؛ ولا يُزيِّنْ دُهنُ الشرّير رأسي». (مزمور ١٤١ (١٤٠)؛ ٥). إنَّ معنى هذه الكلمات – ولا أفهمُها خلافَ ذلك – أنّ الّذي يوبِّخُ ليُصلح، يُحبُّنا أكثرَ من الّذي يُطيّبُ رأسنا بدُهنِ المَكر. يصعبُ عليَّ أن أحكمَ أنا بنفسي على ما كتبت؛ فإمَّا أن أحاذر، وإمّا أن أحابي. أحيانًا، أرى أخطائي،

www.old-criticism.blogspot.com

ولكنّني أفضِّلُ أن يكشِفَها لي من هو أمهرُ منّي، لئلّا أوبِّخَ نفسي فأزدادَ غرورًا، ولئلّا أميلَ إلى الإعتقاد بأنَّ حكمي خالطَهُ الحياء فوقَ ما اتَّسَم بالعدل.

www.old-criticism.blogspot.com

٢ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

رسالة توصية بالشّمّاس بريزيديوس Présidius يعود تاريخُها إلى العام ٣٩٧؛ وتحمل الرقم ٣٩ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، والرقم ١٠٣ في مجموعة رسائل هيرونيمُس، حيثُ وردَ أنَّ تاريخَها يعود إلى العام ٤٠٣.

من هيرونيمُس إلى البابا[٢] المغبوط الكلّيّ القداسة أوغسطينُس، سلامٌ بالمسيح يسوع.

لقد وجهتُ إليكم، السنة الماضية، على عجل، رسالةً بواسطة أخينا الشّدياق أستيريوس Astérius، ضمّنتُها مشاعر المودَّة الواجبة لكم. أرجو أن تكونوا قد استلمتموها. واليوم، أكتبُ إليكم بواسطة أخينا البارّ الشّمّاس بريزيديوس Présidius، لكي أسألَكم أوّلًا أن تذكروني. وبعدُ، فإنّي أوصيكم بحاملِ هذه الرّسالة، لما يجمعُني به من اتّحادٍ وثيق، وأرجوكُم أن تَرعَوْهُ وتُسعِفوهُ في كلِّ حاجة؛ لا يفتقِر، بنعمةِ المسيح، إلى شيءٍ من أمورِ هذا العالَم، ولكنَّه يسعى بشغفٍ بالغ إلى صداقةِ أهلِ البِرّ، ولا شيءَ أسمى لديه من أن يحظى بصداقاتٍ خيِّرة. وبوسعِه أن يُخبِرَكَ، بنفسِه، لماذا اختارَ أن يتوجَّهَ إلى الغرب.

(٢) جرت العادة في ذلك الحين أن يُطلق على كلّ أسقف لقب بابا.

www.old-criticism.blogspot.com

فعلى الرّغمِ من إقامتنا داخلَ دير، لسنا بمنأى عن تجاذبِ الأنواء، كما أنّنا نعاني من اضطراباتِ السَّفر. غيرَ أنَّ رجاءَنا في الذي قال: «ثقوا، إنّي غلبتُ العالَم!» (يوحنّا ١٦؛ ٣٣) ونرجو من معونتِهِ الإلهيَّة، النّصرَ على الشّيطان، عدوِّنا. أسألُكَ أن تُبلّغ سلامي الحارّ إلى أخينا البارّ الجليل البابا أليبيوس. يُسلِّم عليكَ، بحرارة، الإخوةُ الذين يجتهدونَ معي في خدمة الرّب في الدّير. حفظَكَ المسيحُ إلهنا القدير في الصّحة، وأبقى ذكري في قلبِك، أيّها السّيدُ والأبُ القديسُ المبجَّل.

www.old-criticism.blogspot.com

٣ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

سبق أن كتب هيرونيمُس لأوغسطينُس رسالة قصيرة، لعلَّها تلِفَتْ، فردَّ عليها أوغسطينُس مُثنيًا على مؤلّف هيرونيمُس «**مشاهير الرِّجال**»، ويعود فيكرِّر معارضته لروايتِه حولَ النزاع الذي نشأ بين بولس وبطرس في أنطاكية؛ ويختم بالطلب إليه أن يُسلِّط الضّوء على مغالطات أوريجنس، وإعطاء رأيِهِ في أبرز الهرطقات التي تدينُها الكنيسة. وهذه الرِّسالة، شأنها شأن سابقتها التي تحمل الرقم ٥٦ في مجموعة هيرونيمُس، لم تصل إليه؛ غير أنَّها نُشِرت في الغرب من غير معرفة أوغسطينُس، وتدريجيًّا، وَجَدت محتوياتُها طريقَها إلى بيت لحم، فكانت مصدر ألم وإزعاج. الرّسالة مؤرَّخة في العام ٣٩٧ وهي تحمل الرقم ٤٠ في رسائل أوغسطينُس، والرقم ٦٧ في مجموعة هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى سيّده الجليل وأخيه الحبيب ورفيقِه في الكهنوت، هيرونيمُس الجزيل الوقار، تحيَّة وبركة.

أ - أشكرُكَ جزيلَ الشّكر لكونِك خصصتَني برسالةٍ مُطوَّلة ردًّا على تحيَّةٍ قصيرة. غيرَ أنّها بدت أقصرَ ممّا كنتُ أتوقَّعُه من رجلٍ مثلك، لا يملُّ من الكتابة مهما طالت ومهما استغرقت من وقت. وعلى الرّغم من أنّي مرهقٌ بانشغالي بأمور الناس وبالأمور الدنيويَّة، فلن أغفرَ لك، بسهولة، قِصَر رسالتِك، لولا تأمّلي في الكلام القليل

www.old-criticism.blogspot.com

الذي تُجيبُ عليه. فأرجوكَ أن تبدأَ معي لقاءاتٍ بالمراسلة، لئلّا نسمحَ بأن يُفرِّقَ بيننا البعدُ الجسديّ، فنبقى على الدّوام متّحدَين في الرَّب بشركة الرّوح القدس، على الرّغم من صمتِنا المتَبادَل. إنَّ المؤلَّفات التي اجتهدتَ في إخراجِها من أهراءاتِ الرّب، كفيلةٌ بأن تُظهِرَك لنا بكلّيّتِك. وإذا كان علينا أن نقولَ بأنّنا لا نعرِفُكَ، لأنّنا لم نرَ يومًا وجهَك، فأحرى أن يُقالَ بأنَّكَ، ولا أنتَ، تعرِفُ نفسَك، لأنَّك لم ترَ قَطُّ وجهَك. أمّا إذا كنتَ تعرِفُ نفسَكَ لأنَّكَ تعرِفُ فِكرَك، فنحنُ أيضًا نعرفُه جيِّدًا من خلالِ مؤلَّفاتِك، ونحمدُ الرَّبَ ونُباركُه، لأنَّهُ أتاحَ لكَ أن تكتب، ولنا ولجميعِ الإخوة أن نقرأك.

٢ - منذُ مدَّةٍ غيرِ بعيدة، وقع بينَ يديَّ واحدٌ من كتبِك. لستُ أعرفُ إلى الآنَ عنوانَه، لأنّي لم أجدْهُ على الصّفحةِ الأولى، كما العادة. غيرَ أنَّ الأخ الّذي عُثِرَ لديه على الكتاب، يقول بأنَّ عنوانَه: «**تخليد ذكرى**». لكنتُ صدّقتُ أن يُعطى عنوانًا كهذا، لو وقعتُ فيه فقط على سردٍ لمؤلَّفاتِ وسيرة حياة رجالٍ غابوا. ولكن، لمّا كان كثيرٌ من هؤلاء، ما يزالونَ على قيدِ الحياة، في الحقبة التي وُضِع فيها الكتاب، وبعضُهم ما يزالونَ إلى الآنَ أحياءً، أخذني العجبُ أن تكونَ قد اخترتَ هذا العنوان، وتقبّلَهُ النّاس. على أنَّ الكتاب يبدو لي غزيرَ الفائدة، وإنّي أقرُّه.

٣ - في شرحِكَ لرسالة القدّيس بولس إلى الغلاطيّين، وقعتُ على ما أرابني وأقلقَني كثيرًا. فإذا سلّمنا بأنَّ في الكتبِ المقدّسة أمورًا كالكذبة البيضاء، فأيّ مِنعة يبقى لها؟ أيعودُ بوسعِنا أن نستخلِصَ منها أمورًا من الثقلِ بحيثُ تُقوِّضُ صفاقة كذبةٍ مُكابرة؟ فما إن تذكر نصًّا، حتّى يُنكره خصمُكَ، مُتعلّلًا بأنَّ في الأمرِ كذبةً بيضاء. وعن أيِّ نصٍّ لا يُقالُ هذا، إذا كان يُمكن قوله في نصٍّ

www.old-criticism.blogspot.com

للرّسول يبدأ بهذه الكلمات: «وما أكتبه إليكم فالله شاهدٌ على أنّي لا أكذب فيه». (غلاطية ١؛ ٢٠)؛ أو إذا كنّا صُدِّق أو نؤكِّد أنّ هذا الرّسولَ كذب حينَ قال عن بطرس وبرنابا (واليهود): «فلمّا رأيتُ أنَّهم لا يسيرون سيرة قويمة كما تقضي حقيقة البشارة» (غلاطية ٢؛ ١٤)؟ فإذا كان بطرس وبرنابا يسيرانِ سيرةً قويمة، فإنّ بولُسَ كذب؛ وإن كذبَ في هذا، فأينَ صدَق؟ أيبدو لنا أنَّهُ صادقٌ إذا وافقَ رأيَنا، وإن خالَفَه فتلك مجرَّدُ كذبةٍ بيضاء؟ أمام قاعدةٍ كهذه، لن تُعوِزنا الحجج لكي نُبرهن أنّ الرّسولَ كان بوسعِه أن يكذب، بل كان ملزَمًا بأن يكذب. لا حاجةَ بي إلى الإسترسالِ في هذه المسألة، وبخاصّةٍ مع رجلٍ مثلِك، يتمتَّعُ بحكمةٍ ثاقبة لا تحتاجُ لأكثرَ من كلمة. ولا أزهو فأدَّعي بأنّي أغني، بفَلسي الزّهيد، عبقريَّةً من ذهبٍ خالص حباكَ الله بها من فيضِ مواهبِه. وليس من هو أجدرُ منكَ بتصحيحِ هذا الكتاب.

٤ - لستُ أنا من يُعلِّمُك كيف ينبغي أن يُفهَمَ كلامُ الرّسولِ: «فصرتُ لليهود كاليهوديّ لأربحَ اليهود» (١ قور ٩؛ ٢٠)، وسوى ذلك ممّا هو من قبيلِ الوداعةِ والرّحمة، لا من قبيلِ النفاق والخداع. وبهذا المعنى، فإنّ من يخدُمُ مريضًا، يتمارَض مثلَه، بشكلٍ من الأشكال. لا يدّعي بأنَّهُ محمومٌ مثلَه، غير أنَّهُ يُفكِّرُ، بعطفٍ، بالطريقةِ التي يُريدُ أن يُخدَمَ هو بها لو كانَ مكانَه. كان بولُس يهوديًّا؛ فلمّا صارَ مسيحيًّا لم يتخلَّ قطُّ عن المقدّسات التي تلقّاها الشعبُ اليهوديُّ يومَ كان بحاجة إليها. وهو رعاها حتّى بعدَ أن غدا رسولًا للمسيح، لكي يُبيِّنَ أنَّ بوسعِ الذين تلقَّوْها من آبائِهم، أن يُمارسوها من غيرِ ضير، حتّى وهم على إيمانِهم بالمسيح، شرطَ ألّا يضعوا فيها رجاءَ الخلاص؛ لأنَّ الخلاص الذي كانت تمثِّلُه

www.old-criticism.blogspot.com

المقدّساتُ القديمة، تحقَّقَ بمجيءِ الرّبِّ يسوع. لأجلِ ذلك لم يكن بولُس يرى مناسبًا أن يُفرَضَ على الأمم عبءٌ ثقيلٌ لم يعتادوه، ولا طائلَ منهُ، وبوسعِهِ أن يُقصِيَهُم عن الإيمان. (راجع أعمال ١٥؛ ٢٨).

٥ – إنّه لم يَلُم القدّيس بطرُس لكونِهِ رعى تقاليدَ آبائِه؛ كانَ بوسعِ بطرُس أن يفعلَ ذلك، لو شاء، بحقٍّ، ومن غيرِ نفاق ولا تستُّر، فتلك أمورٌ مألوفة لا تُضرُّ ولا تنفع؛ بل لامهُ لأنَّهُ أرغمَ الوثنيّين على التهوّد، كما لو انَّ تلكَ الأعمال كانت ضروريَّةً للخلاص، حتّى بعدَ مجيء المسيح، الأمر الذي رفضَتْه، بقوَّة، الحقيقةُ الرّسولية التي بشَّرَ بها بولُس. ولم يكن بطرس ليجهلَ تلكَ الحقيقة، غير أنَّهُ كان يخشى المختونين. وعلى هذا لامَهُ بولُسُ بحقّ، وكان صادقًا في ما كتب. والكتاب المقدّس الذي أُعطيَ لكي تؤمِنَ الأجيالُ الآتية، لا يُزعزعُه ارتضاءُ كذبة، ولا يشوبُ سلطتَهُ تأرجحٌ أو ارتياب. لا نريد، بل لا ينبغي أن نُضيءَ على النتائج السيّئة التّي يُمكن أن تنجم عن مثل هذا التجاوز؛ ومن أجلِ معالجةِ هذه المسألة بالطريقة المناسبة، وبمنأى عن كلِّ خطرٍ محتَمَل، يقتضي أن نتباحثَ فيها وحدَنا دون سوانا.

٦ – كان القدّيس بولس تخلّى عن كلِّ ما هو سيّءٌ لدى اليهود؛ وبدأ فانفصلَ عنهُم «لأنَّهُم جهلوا بِرَّ الله وسعَوا إلى إقامة بِرَّ أنفسِهِم، فلم يخضعوا لبرِّ الله» (رومة ١٠؛ ٣)؛ كما أنّ بولس تخلّى عن أمرٍ سيّءٍ آخر، هو إيمانُهم بأنَّ ممارسةَ الشعائرِ القديمة ليست مجرَّدَ تقليد، بل هي ضروريّة للخلاص، حتّى بعدَ آلامِ المسيح وقيامتِه، وبعدَ تجلّي سرِّ النعمة وإقامتِهِ بحسب رتبة ملكيصادق. كان زمنٌ مورِسَت فيه تلكَ الشعائر كضرورة، وحسبُنا دليلًا شهادةُ الشّهداء

www.old-criticism.blogspot.com

المكابيّين التي لم تكن، بخلافِ ذلك، لتؤتيَ ثمارَها وتبلغَ غايتَها (٢ مكابيّون ٧؛ ١). وأخيرًا، افترَقَ الرّسولُ العظيم عن اليهود بسببِ مهاجمتِهم المسيحيّين الكارزين بالنعمة الذين كانوا ينظرون إليهِم كأعداء للشّريعة. إنّها ضلالاتٌ وممارسات ذميمة، تلك التي كانَ يزدريها الرّسول ويعدُّها أقذارًا، مُصمِّمًا على أن يخسرَها ليربح يسوع المسيح (راجع فيليبّي٣؛ ٨)، وليس حفظ الشّريعة بحسبِ تقليدِ الأقدمين، والتي كان يحفظُها هو نفسُهُ، من غير أن يعتبرَها، كاليهود، ضرورةً للخلاص، ومن غيرِ رياءٍ مموّه، كذلكَ الّذي عابَه على بطرس. وإذا كانَ القدّيس بولُس مارس الشّعائر القديمة لكي يُظهِرَ لليهود بأنّه يهوديٌّ فيربح اليهود، فلماذا لم يُضَحِّ مع الوثنيّين، هو الذي عاشَ كأنَّهُ بلا ناموس، مع من هم بلا ناموس، لكي يربحَهُم أيضا؟ (راجع ١ قور ٩؛ ٢١). ذاكَ أنَّهُ كان يهوديًّا بالطبيعة، ويقولُ ذلك، لا تصنُّعًا بما ليسَ فيه، بل رأفةً باليهودِ وبالوثنيّين، وحبًّا بمساعدتِهم؛ فبدا، بدافعِ الشَّفقة، وكأنَّهُ يسترسِلُ في ضلالاتِهِم، لا بالحيلةِ والنّفاق، بل بالرّافةِ والحنان. ويُبيِّنُ لنا الرّسولُ ذلكَ بشكلٍ عامّ حينَ يقول: «وصرتُ للضُعفاءِ ضعيفًا لأربحَ الضُّعفاء». وتأتي الخلاصة: «صرتُ كلَّ شيءٍ للكلّ لأخلِّصَ الكلّ» (١ قور ٩؛ ٢١)، بهدفِ أن تُظهِرَ لنا ضَعفَ كلِّ واحدٍ مُتجلِّيًا في وداعةِ الرّسول. وعندما كان يقول: «فمن يضعفُ ولا أضعفُ أنا؟» (٢ قور ١١؛ ٢٩)، فلم يكن يتصنَّعُ ضعفَ الآخرين، بل كان يُحسُّه.

٧ - أستحلِفُكَ، إذًا، أن تقسُوَ، بصدقِ المسيحيّ، على نفسِك، وتعودَ فتقرأ وتُصحِّحَ ما كتبت. واتلُ نشيدَ التوبة، على حدِّ قولِ اليونانيّين، فالحقيقةُ المسيحيّة أجملُ، بلا قياسٍ، من هيلانةَ

www.old-criticism.blogspot.com

الإغريق[٣]. ففي سبيل تلكَ الحقيقة قاتلَ شهداؤنا سدومَ، فوق ما قاتلَ اليونانيّون طروادةَ في سبيل هيلانة. لا أعني بذلكَ أن تسترجع عينَي قلبك، فمعاذَ الله أن تكونَ قد فقدتَهُما! ولكنّي أقولُ هذا لكي تُساعدَكَ عيناكَ المقدّستانِ البصيرتان، على الحذرِ من العواقب الوخيمة، فيما لو حصلَ أن صدّقَ النّاسُ أنَّ كاتب الأسفارِ المقدَّسة كذبَ في أمرٍ ما، ولو لغايةٍ بريئة. ولستُ أدري كيفَ تغافلتَ عن هذه المسألة.

٨ - كنتُ كتبتُ إليكَ رسالةً، منذُ زمن، غيرَ أنَّها لم تصلْكَ لأنَّ حاملَها لم يذهبْ. وقد وردتني فكرةٌ، وأنا أكتبُ هذه الرّسالة، ويجب ألّا يفوتَني ذكرُها، وهي أنَّهُ إذا كانَ رأيُكَ خلافَ رأيي، وكنتَ أنتَ على صواب، فلا بدَّ من أن تعذرَ قلقي. وفي حال لم ترَ رأيي وكنتَ مُصيبًا في الحقّ - لأنَّ رأيَك لن يكونَ الأصوب، إلّا بقدرِ ما يكونُ مُحقًّا - أتكونُ خطيئتي عظيمةً إذا ساهمَ خطأٌ مني في تعزيزِ الحقيقة، فيما أنت تتوسَّلُ الحقيقةَ، أحيانًا، سبيلًا إلى تعزيز الكذب؟

٩ - أمّا بشأن ما تلطَّفتَ وأجبتني بهِ في موضوع أوريجنّس، فكنتُ أعلَم أنَّه ينبغي أن نُشيدَ بكلِّ ما لديهِ من صحيح وحقيقيّ، لا في مؤلَّفاتِه الكنسيَّة فحسب، بل أيضًا في كلِّ أعمالِه؛ كما ينبغي أن نرفضَ وندينَ كلَّ ما فيها من أخطاءٍ وضلالات. ولكنّي طلبتُ، وأكرّرُ الطلب من تنوّرِكَ وحكمتِك، أن تُبيّن لنا كلَّ النقاط التي ينأى بها، فعلًا، هذا الرّجلُ العظيم، عن الحقيقة. إنّ الكتاب الذي أوردتَ فيه، بقدرِ ما أتاحت لكَ الذّاكرة، أسماءَ أدباءِ الكنيسة

(٣) تقولُ الأسطورة إنَّ الشّاعر ستيسيخورُس فقدَ نظرَهُ لأنَّهُ أساءَ إلى هيلانة، وعاد فاسترجعه بعدَ أن نظم لها قصيدة توبة.

www.old-criticism.blogspot.com

ومؤلَّفاتِهم، لكانَ، برأيي، أشملَ وأوفى، لو انّكَ، من خلالِ ذكرِكَ بعضَ الهراطقة - ولا أدري سببًا لذكرِهم - ذكرتَ أينَ ينبغي أن نحذَرَهم. لعلَّكَ توقّيتَ تضخيمَ الكتاب بإلقائِكَ الضوءَ على النقاط التي أدانت الكنيسةُ الكاثوليكيَّة فيها أولئكَ الهراطقة. أسألُك، إذًا، بدافِعِ شعورِ المحبَّة الأخويَّة، وإذا كانت مشاغلُكَ تسمحُ لكَ، وبعدَ ما جُدْتَ به، بنعمةٍ من الرّبِّ يسوع، من تشجيعٍ وإغناءٍ للّاتينيَّةِ بالكتبِ المقدَّسة، أن تجمعَ، في كتابٍ صغيرِ الحجم، التعاليم المُضلّة لجميعِ الهراطقة الذين جهدوا، إلى اليوم، في إفسادِ الإيمان المسيحي، عن طريق الكبرياء أو الجهلِ أو التعنُّت. وسيكون في هذا العملِ فائدةٌ للّذين لا وقتَ لديهِم للبحث، وللّذين يجهلون اللّغة، فلا يسعُهم أن يقرأوا ويتعمّقوا في أمورٍ كثيرة. وكنتُ لأرجوكَ بإلحاح لو لم تكن اللجاجةُ سمةً غيرَ مرغوبة في المحبَّة. أوصي عنايتك كثيرًا بولُس أخينا في الرّب يسوع المسيح؛ وأشهدُ، صادقًا، للإعتبار الذي يتمتّعُ به في بلادِنا.

www.old-criticism.blogspot.com

٤ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

رسالة من أوغسطينُس يُنكر فيها أنَّهُ وضع كتابًا يهاجم فيه هيرونيمُس وأرسله إلى رومة؛ ولكنَّه يعترف بأنَّهُ انتقدَه، غيرَ أنَّهُ لا يذكرُ التفاصيل. الرّسالة مؤرَّخة في العام ٤٠٢ وتحمل الرقم ٦٧ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، والرقم ١٠١ في مجموعة هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى سيّده المحبوب وأخيه الجزيل الإحترام ورفيقِه في الكهنوت، هيرونيمُس، سلامٌ في الرَّب يسوع.

١ – علمتُ أنّ رسالتي قد وصلتكَ، ويبدو أنّي، إلى الآن، لم أستحقَّ ردًّا. غيرَ أنّي لا أعزو الأمرَ إلى نقصٍ في عطفِكَ ومحبّتِك؛ ولا بدَّ من أن يكون ثمّةَ مانعٌ حالَ دون ردّك. وعليَّ بالأحرى أن أعترِف أنَّهُ ينبغي أن أسألَ الرّبّ أن يوفّر لإرادتِك الوسيلةَ لكي ترسِلَ إليَّ ما كتبتَه لي، بعدَ أن سبقَ أن وفَّرَ لكَ وسيلةَ الكتابة. ليسَ عليكَ سوى أن تريد لكي يسهُلَ عليكَ أن تعمل.

٢ – نُقلَ إليَّ أمرٌ أتردَّدُ في تصديقِه، ولكنّي لا أتردَّد في أن أبوحَ لك به. لا بدَّ أنَّ أحدَ الإخوة – ولا أدري من هو – أسرَّ إليكَ مؤخّرًا، بأنّي وضعتُ ضدّكَ كتابًا وأرسلتُهُ إلى رومة. إعلم أنَّ هذا غيرُ صحيح. يشهدُ اللهُ عليَّ بأنّي لم أفعلْ مثلَ ذلكَ قطُّ. ألّا أن يكونَ قد وُجِدَ، عَرَضًا، في بعضِ مؤلّفاتي ما يتناقضُ مع أفكارك، فينبغي أن تعلمَ أنَّ ذلكَ لم يُكتب ضدّك، بل إنّي كتبتُ، فقط، ما بدا

www.old-criticism.blogspot.com

لي أنّه حسنٌ. فإذا كنتَ لا تملكُ أن تتأكّد، فعليكَ أن تُصدِّق. وإذا كنتُ أكلِّمُكَ على هذا النّحو، فإنّي على استعدادٍ تامّ، إذا رأيتَ في كتاباتي ما يُثيرُ حفيظتَك. بأنْ أقتبِلَ ملاحظاتِك الأخويَّة، وأسَرَّ بتصحيحِها شخصيًّا، وفنًا لما تُبديه عنايتُك؛ وأعودُ فأسألُكَ وأسألُكَ ذلكَ بكلِّ إلحاح.

٣ - ألا ليتَه أتيحَ لي أن أقيمَ معك، أو أن أعيشَ، على الأقلِّ، بالقربِ منك، فيكبرَ فرحي بالمسيح بلقاءاتِكَ المتواصلة وأحاديثِكَ العذبة! ولمّا لم يكنْ من سبيلٍ لذلكَ الفرح، فإنّي أسألك أن تسعى دائمًا إلى الحفاظ على الوسيلة الوحيدة التي تجمعُنا معًا في المسيح، فترعاها وتُنمّيها، ولا تزدري رسائلي، على ندرتِها. بلِّغ سلامي واحترامي إلى الأخ بولينيانُس[٤]، وإلى جميع الإخوة الذين يتمتَّعون معكَ وبكَ في الرَّب. أذكُرنا على الدّوام، ولتكُن مستجابًا في كلِّ رغباتِكَ المقدَّسة، أيّها السّيّدُ المحبوب والأخ المحترم في المسيح.

(٤) بولينيانُس هو أخو هيرونيمُس.

www.old-criticism.blogspot.com

٥ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

يرد هيرونيمُس على الرسالة السّابقة التي وردَ فيها أنَّ الصّداقة تُعاني من الريبةِ والإستياء. ويحذِّر أوغسطينُس ألّا يتحدّاه، وإلّا كان عليه أن يواجهَ خصمًا عنيدًا شرسًا. ولا يفوتُه أن ينحو باللائمة على روفينُس. واضحٌ أنَّ هيرونيمُس شعرَ بجُرحٍ من الرّسالة السّابقة. يعود تاريخها إلى العام ٤٠٢. وهي تحمل الرقم ٦٨ في مجموعة أوغسطينُس و١٠٢ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس إلى السّيّد الكلّيّ القداسة والبابا المغبوط أوغسطينُس، سلامٌ في المسيح.

في اللّحظةِ التي كانَ فيها ولدُنا وصديقُنا الحبيب الشدياق أستيريوس، على وشكِ الرّحيل، وصلتني رسالة غبطتِك التي تؤكِّد لي فيها بأنَّك لم تُرسل إلى رومة كتابًا ضدّي. لم أسمع بأنّكَ كنتَ لتَفعَلَها؛ غيرَ أنَّه وصلتني، عن طريقِ أخينا الشّدياق سيزينّيوس، نسخةٌ عن رسالةٍ يبدو أنَّها موجَّهة إليَّ، وفيها تدعوني إلى تلاوةِ نشيدِ التوبة في أمرِ مقطعٍ لبولس الرَّسول، وأن أقتديَ بالشاعر ستيزيخورُس الذي هجا هيلانةَ فعَمِي، ثم عادَ فمدَحَها، فاستعادَ، بمدحِها، نظرًا فقدَه بشعرٍ هجائيّ(٥). وعلى الرّغم من أنّي اعتقدتُ بأنّي عرفتُ في الرّسالة أسلوبَكَ ومنطقك، فإنّي أعترِف لك بكلِّ

(٥) هو أفلاطون مَنْ فسَّرَ، على هذا النحو، عمى ستيزيخورُس وشِفاءَه.

www.old-criticism.blogspot.com

بساطة، بأنّي كنتُ أميلُ إلى عدم التجرّؤ بنسبتِها إليك، لئلّا أجرحَك في ردّي، فتكون مُحقًّا في أن تقول بأنّه كانَ عليَّ أن أبدأَ فأتحقَّقَ من أنّك صاحبُ الرّسالة. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ مرضَ البارَّة الجليلة باولا أخّرَ ردّي. ونظرًا إلى طولِ إقامتي إلى جانبِ المريضة، كدتُ أنسى رسالتك أو رسالة الذي كتَبَ باسمِك؛ وتذكّرتُ هذه الآيةَ لابن سيراخ: «الكلام في غيرِ وقتِه كالغناءِ في النَّوح» (يشوع بن سيراخ ٢٢؛ ٦). فإذا كنتَ صاحبَ الرّسالة فاكتُب لي مؤكِّدًا، أو فارسل لي نسخةً أصحّ، لكيما نتناقش في الكتب المقدّسة من دون غيظٍ وحدّة، فأُصلِحَ ما بي، أو أُبيِّنَ أنَّ لومي لم يكن في محلّه.

٢ – معاذ الله أن أتجرّأَ فأمسَّ شيئًا في كتبِ غبطتِك! حسبي ما لديَّ من مراجعةٍ لكتبي، حتّى لا أذهبَ إلى انتقادِ كتب الآخرين. وبعدُ، فإنَّ حكمتك تعرِفُ تمام المعرفة بأنَّ كلَّ إنسانٍ يُرضيهِ رأيُه؛ وحدَه المراهقُ المتعجرِف يسعى إلى الشُّهرة من وراءِ مهاجمتِهِ مشاهيرَ الرّجال. لستُ أتمتَّعُ بقدرٍ كافٍ من الحماقة لكي أحسبَ نفسي مُهانًا بسبب اختلاف آرائِنا، لأنَّ آرائي لن تجرحَك، إذا تعارضت مع آرائك. غير أنَّ الوسيلةَ الحقيقيَّة لتبادلِ الملامة بين أصدقاء، هي في «ألّا نتعامى عن أهراءاتِ أخطائِنا، وننظرَ إلى جِرارِ أخطاءِ سوانا»، على حدِّ قول بِرسيوس. أحبِبْ من أحبَّك؛ ولا تحسبنَّ نفسَكَ شابًّا وبوسعكَ أن تتحدّى الشّيوخَ في ميدانِ الكتاب. فأنا أيضًا كنتُ شابًّا وخضتُ ميادين السِّباقِ ما استطعت. والآن، وفيما أنت تعدو وتجتازُ المسافاتِ الطويلة، فإنّي أستحقُّ قسطًا من الرّاحة. وإذا أذنتَ لي بأن أقولَ شيئًا، من غيرِ أن أقلّلَ من الإحترام الواجبِ لك، لئلّا تكون وحدَك من يستشهِدُ بأقوالٍ من الشّعراء، فإنّي أذكّرُكَ بدارِس Darès وأنتِلّس Entellus، وبالمثل

www.old-criticism.blogspot.com

الذي يقول: «الثورَ التَّعِب لا يلبثُ ثابتَ الأقدام». أمليتُ هذا والحزنُ يمتلكُني. أسألُ الله أن أستحقَّ معانقتَك، وأن نتمكَّن في لقاءاتِنا من أن يتعلَّمَ واحدُنا من الآخر.

إنَّ كالفورنيوس المُلقب لاناريوس[٦] أرسلَ إليَّ مؤلَّفاتِهِ بقِحتِه المعهودة. وبلغني أنَّهُ اهتمَّ بأن تصلَ مؤلَّفاتُه الخبيثة إلى أفريقيا. أجبتُ باختصارٍ على جزءٍ منها، وأرسلتُ إليكَ نسخةً عن ردّي، على أن أوجِّهَ إليك ردًّا مُسهَبًا متى تسنّى لي أن أنصرِفَ إليه. حاذرتُ أن أجرحَ، بأيِّ شكلٍ من الأشكال، سمعتَه كمسيحيّ، واكتفيتُ بدحضِ حماقاتِ ذلكَ الرّجل الصَّلِفِ الجاهل. أذكرني أيّها البابا البارُّ الجليل، وانظر كم أحبُّك، ما دمتُ لم أردَّ على تحدّيك، ولم أشأ أن أنسب إليكَ ما يُمكنُ أن ألومَ عليهِ آخر. يُسلِّم عليكَ أخونا كومّونِس Commonis.

(٦) لاناريوس: هو الاسم الذي يطلقه هيرونيمُس على خصمِهِ روفينُس ومعناه «كلّ حيوان ذي فرو».

www.old-criticism.blogspot.com

٦ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

في هذه الرّسالة يوصي أوغسطينُس هيرونيمُس بالشَّمّاس قبريانُس، ويشرح كيفَ أحفق حاملُ رسالتِه الأولى في إيصالِها إليه (رسالة أوغسطينُس رقم ٥٦). ويحثُّه على تركيزِ دراساتِهِ الكتابيَّة لا على النصوص العبريَّة، بل على السبعينيَّة. رسالة مؤرَّخة في العام ٤٠٣. تحمل الرقم ٧١ ضمن مجموعة رسائل أوغسطينُس، والرقم ١٠٤ في مجموعة هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى سيّده الجليل، وأخيه القدّيس الحبيب، ورفيقه في الكهنوت هيرونيمُس سلامٌ في الرّبّ.

منذ أن بدأتُ بالكتابةِ إليك، ورغبتُ في أن تكتُبَ إليَّ، لم تسنحْ لي فرصةٌ أفضلُ من التي وفّرَها لي ولدُنا الحبيب، خادم الرّبّ الأمين، الشمّاس قبريانُس، الذي سيحملُ إليكَ هذه الرّسالة. وأتوقَّعُ، بكلِّ ما لديَّ من أمل راسخ، أن أتلقى منكَ رسالةً عن طريقِه. ولن يُعوزَه، لا الإندفاعُ في توسُّلِ الجواب، ولا الكياسة للحصول عليه، ولا الإعتناء بحفظِه، ولا السرعة في نقله، ولا الدقّةُ في تسليمِه. فإذا كنتُ أستحقُّه، على أيِّ حال، فإنّي أسألُ الله أن يُلهِمَ قلبَك، فتُلبّي رغبتي، وألّا يسمحَ بأن تحولَ دونَ إرادتِكَ الأخويّة إرادةٌ قاهرة.

٢ - بعثتُ إليكَ برسالتَين بقيتا من غيرِ جواب؛ وخشيةَ ألّا

www.old-criticism.blogspot.com

تكونا وصلتاك، أضمّنُ رسالتي هذه نُسخةً عنهُما. حتّى ولو وصلتاك، وحدَثَ أنَّ جوابَكَ لم يصلني إلى الآنَ، فأرسلْ لي، ثانيةً، ما سبقَ أن أرسلت، إذا كنتَ لا تزالُ تحتفظُ بنسخةٍ عنه؛ أو، إذا كانَ الأمرُ لا يُسبِّبُ لكَ انزعاجًا، فاكتُب لي، مرَّةً بعدُ، جوابًا طالَ ما انتظرتُه. كتبتُ لك رسالةً أولى يومَ كنتُ لا أزالُ كاهنًا[٧]، وكان يُفتَرَض أن تصلكَ عن طريق أخينا بروفوتورُس الذي كان يهمُّ بالسَّفر إليك، فإذا به يُدعى إلى الكرامة الأسقفيَّة، ثمَّ لم يلبث أن قضى بعدَ مدَّةٍ قصيرة. وها أنا أبعثُ إليكَ برسالتي الأولى هذه لكي تعلمَ كم مضى من الوقتِ وأنا أتوقُ بحرارةٍ إلى مُحادثتِك، وكم أعاني من هذا البعادِ المرّ الذي لا يُتيحُ لفكري أن يُحادثَ فكرَك، أيّها الأخُ الوديع والمستحقُّ الإكرام بينَ خدّامِ الرّبّ!

وهنا أضيف بأنّنا علمنا، منذ ذلكَ الحين، أنَّكَ نقلتَ سِفرَ أيوب عن العبريَّة؛ وكان في حوزتِنا ترجمةٌ لكَ للنبيِّ نفسِه من اليونانيّة إلى اللاتينيّة، تشيرُ فيها بعجمةٍ إلى ما كان في العبريَّة وغابَ في اليونانيَّة، وبخطٍّ إلى ما كان في اليونانيَّة وغابَ في العبريَّة. ولقد فعلت ذلكَ بدقّةٍ مُذهلة بدت لنا من خلالِ ما رأيناه من نجوم فوق الكلمات، في بعضِ المقاطع، تُنبِّهُنا بأنّها موجودة في النّصّ العبريّ، وغائبةٌ في اليونانيّ. غيرَ أنَّ ترجمتَكَ الأخيرة عن العبريَّة لم تتوخَّ الأمانةَ نفسَها في الكلمات. ونتساءل بقلق، لماذا اعتنيتَ بوضعِ النجوم في التّرجمة الأولى، لتشيرَ، بكلِّ دقّة، إلى أقلِّها، ممّا كان في العبريَّة وغاب عن اليونانيَّة، ولماذا لم تصرِف الجهدَ الكافي، في ترجمتِك الأخرى عن العبريّة، لكي نتمكّن من أن نجدَ

(٧) وُلدَ القدّيس أوغسطينُس في ١٣ تشرين الثاني ٣٥٤ وسيمَ كاهنًا العام ٣٩١ وأسقفًا على هيبّون العام ٣٩٦.

www.old-criticism.blogspot.com

الإشاراتِ نفسِها في أمكنتِها. فكّرتُ بأن أذكرَ لكَ منها بعضَ الأمثلة، غيرَ أنَّ الترجمة عن العبريَّة ليست بين يديَّ. لكنَّ عبقريّتكَ تسبقُ ما أقولُه، بل ما أفكّرُ بقولِه، وأحسبُكَ تفهمُ قصدي لتعملَ على تبديد شكوكي.

٤ - أمّا أنا، فأرى أنّه من الأفضل أن تترجِمَ الكتبَ اليونانيّة القانونيَّة المعروفة بالسّبعينيَّة؛ لأنَّه إذا بدأتْ ترجمتُكَ عن العبريَّة تُقرأ في كنائس كثيرة، وبصورة متواصلة، فإنَّه يُخشى كثيرًا من أن تظهرَ فوارقُ بين الكنائس اللّاتينيّة والكنائس اليونانيّة، نظرًا إلى سهولةِ دحضِ النصّ اللّاتيني، بإبرازِ النّص اليوناني، لما لليونانيّة من إنتشار واسع. في حين أنّه إذا أقلَقَ أحدَهُم جديدٌ في الترجمة من العبريَّة، وزعمَ أنّ فيه تزويرًا، فمن الصعوبة بمكان، لا بل من المستحيل أن يُلجأ إلى النصّ العبري لدفعِ مزاعِمه. وإذا تم الرّجوعُ إليه، فمن ذا يحتمِلُ إدانةَ أخطاءٍ وردت في تلكَ المراجعِ اللّاتينيَّة واليونانيّة الموثوقة؟ وما يزيدُ في القلق، أن يُعطي العبرانيّون رأيًا مُغايرًا فيما لو استُشيروا؛ عندَها تكون وحدَكَ المرجعَ الضروريَّ والصّالح لمقارعتِهم، ولكن من يكونُ الحَكَم؟ أشكُّ في أنَّ بوسعِكَ أن تجِدَ ولو حكمًا واحدًا.

٥ - وإليكَ البرهان. واحدٌ من رفاقِنا الأساقفة أمرَ بقراءةِ ترجمتِك في الكنيسة التي يرأسُها؛ وشرع القارئ يتلو النبيّ يونان، وللحال تبيَّنَ في ترجمتِكَ شيءٌ مختلِف عمّا اعتادَ المؤمنون سماعَه، وترسَّخ في عقولِهم وقلوبِهم، وكانوا يُردّدونه أجيالًا بعدَ أجيال[٨]. وقامت ضجَّةٌ كبيرةٌ في الشعب، وخاصةً في اليونانيّين الذين قالوا

(٨) يونان ٤: ٦.

www.old-criticism.blogspot.com

بالتزوير، ما اضطُرَّ الأسقف (وكانَ أسقفًا على مدينة أُوئِيا Oëa) إلى استفسارِ يهود المدينة بشأنِه. فأجابوا، إمّا جهلًا وإما مَكرًا، بأنَّ النّصّين اليونانيّ واللّاتينيّ كليهما مُطابقانِ، في هذا الموضِع، للنَّصّ العبرانيّ. وماذا بعدُ؟ وجدَ الأسقف نفسه مضطرًّا إلى تصحيح المقطع كما لو كانَ مغلوطًا، لأنَّهُ لم يُرِدْ بعدَ تلكَ الحادثة الخطيرة، أن يبقى بلا شعب. من هنا، بدا لنا أنّكَ ربَّما تكونُ وقعتَ، أحيانًا، في الخطأ. ولكَ أن تحكم في العواقب الوخيمة، عندما نقع على نصوص لا يُمكن تصحيحُها بالرّجوعِ إلى نصوصٍ باللّغات الشّائعة!

٦ - أمّا بشأن نقلِك الإنجيل عن اليونانيَّة، فإنّنا نشكرُ الله شكرًا عظيمًا على أنّنا، لدى مقارنتِها مع اليونانيَّة، لم نجدْ ما يُقال[٩]. فإذا قامَ مؤيِّدٌ للترجماتِ اللّاتينيَّة القديمة، على علّاتِها، يُخاصِمُنا فيها، فمن السّهلِ أقناعُهُ بقراءةٍ مقارَنةٍ للنّصوص. وإذا كنّا نأسفُ لخطأ نادر في مكانٍ ما، فأيُّ متشدِّدٍ لا يغتفِرُه في عملٍ مثلَ هذا، جليلِ الفائدة ويرقى فوق كلِّ مديح؟ وبعدُ، فإنّنا نستعطفُك أن تقولَ لنا رأيَكَ في الفروق الكبيرة بين النّصّ العبريّ ونصّ السَّبعينيَّة اليونانيّ؛ فالسبعينيَّة لها قيمتُها، وليست بقليلة، من حيثُ أنَّها استحقَّت أن تحظى بانتشارٍ واسِع، وهي التي كانت بين يدَي الرّسُل، وهذا أمرٌ واضح، وأذكُرُ أنَّك أكّدتَهُ أنت بنفسكَ. ولعلَّك تقومُ بعملٍ جزيلِ الفائدة لو نقلتَ بدقّة، إلى اللّاتينيَّة، نصَّ السَّبعينيَّة اليونانيّ؛ إنَّ في الترجمات اللّاتينيَّة المتداولة من الإختلاف ما يكادُ لا يُحتَمَل، حتّى أنّنا لا نجرؤُ على الإستشهادِ بها، خوفًا من أن يكونَ في النّصّ اليونانيِّ ما يُناقضُه.

(٩) في هذا دليلٌ على أنَّ القدّيس أوغسطينُس كانَ يعرفُ اليونانيَّة ولو لمامًا.

www.old-criticism.blogspot.com

حسبتُ أنَّ رسالتي ستكونُ قصيرة، ولكنّي استرسلتُ بها لما راودني من شعورٍ عذب بأنّي أحادِثُك وجهًا لوجه. استحلِفُكَ بالرَّبّ يسوع أن تُجيبَني في كلِّ شيء، وأن تبقى، على بُعدِك، حاضرًا معي.

www.old-criticism.blogspot.com

٧ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

في هذه الرسالة، يردّ هيرونيمُس على الرّسالة السّابقة. ويشكو من أنَّه، إلى الآن لم يتلَقَّ رسالة أوغسطينُس، ويطالبه بأن يرسِلَ إليه نسخةً عنها. ويقول بأنَّ الرأي العام يعتقد بأنَّ أوغسطينُس، يتغاضى عن أمرِ هذه الرّسالة بشكلٍ مدروس، يظهرُ معهُ محرزًا إنتصارًا سهلًا على خصمِه. وبعد ذلك يتعامل هيرونيمُس مع إنكارِ أوغسطينُس بأنَّه هاجمه كتابةً، ويخلُص إلى رفضِهِ، في الوقتِ الحاضر، أيَّ نقاشٍ في مواضيعِ الإنتقاد. الرّسالة مؤرَّخة في العام ٤٠٣. وهي تحمل الرقم ٧٢ في مجموعة أوغسطينُس، و١٠٥ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس إلى السّيّد الكلّي القداسة البابا المغبوط أوغسطينُس، سلامٌ في الرّبّ.

أ – تكتُبُ إليَّ الرّسالة تلو الرّسالة، وتستعجِلني الإجابة على رسالةٍ وصلتني نسخةٌ عنها، ولا تحملُ توقيعَك، بواسطةِ أخينا الشّمّاس سيزينيوس، كما سبق أن أخبرتُك، وتقولُ بأنّك كنت عهدتَ بها إلى أخينا بروفوتورُس، وبعدَه إلى سواه؛ وتُخبرُني بأنَّ بروفوتورُس أعلِنَ أسقُفًا يومَ كانَ يهمُّ بالسَّفر، فلم يسلك طريقَه إلينا، ثمَّ ما لبثَ أن انتقلَ من هذه الدّنيا؛ وبأنَّ الرّسولَ الأخيرَ الذي تكتمُ اسمَه، هالتهُ مخاطرُ الأمواج فلم يشأ ركوبَ البحر. ولهذا، لستُ أعجبُ من أن تكونَ تلكَ الرّسالة بين أيدي الكثيرين في رومة

www.old-criticism.blogspot.com

وإيطاليا، إلّا في يدي أنا الذي لم أستلِمها، على الرّغم من كونِها موجّهةً إليَّ وحدي. وأكثرُ ما يُذهلُني هو أنَّ الأخ سيزينيوس نفسَه، يؤكّد بأنَّهُ عثرَ، منذ نحو خمسِ سنوات، على تلك الرّسالة بين عددٍ من مؤلَّفاتِك، لا في أفريقيا، ولا عندَك، بل في جزيرةٍ في الأدرياتيّ.

٢ - الصداقة لا تحتملُ الرّيبة؛ والتكلّم إلى الصّديق كالتكلُّم إلى الذّات. إنَّ بعضَ أصدقائي، آنيةِ المسيح، وهم كثُرٌ في أورشليم والأماكن المقدَّسة، أفهموني بأنّك لم تتصرَّف ببساطةِ قلب، بل لتكبُرَ على حسابي، وتطلبَ المديح، وتُثيرَ بعضَ الضّجّة، وتكسبَ شيئًا من المجدِ في عيونِ الشَّعب. كنت تتحدّاني وتوهِمُ النّاس بأنّي أهابُ خصمًا مثلك. نصّبتَ نفسَكَ كاتبًا علّامة، وحسبتَني خرستُ مثلَ جاهل التقى أخيرًا من يُخرِسُه. أمّا أنا، فإنّي أعترِفُ بصراحة بأنّي لم أشأ، في البدء، أن أردَّ على سيادتِك، لأنّي لم أصدِّق بأنَّ الرّسالةَ منك، وأنت تكون شهرتَ بوجهي «سيفًا يقطرُ عسلًا»، على حدّ قولِ المثل. وتهيَّبتُ أن يظهرَ في جوابي أيُّ احتقارٍ لكرامةِ أسقفٍ في كنيستي، أو أبّة ملامة على أيِّ شيءٍ وردَ في رسالةِ لائمي، خاصّةً وأنَّ بعضَ مقاطعِها تدخلُ في باب الهرطقة.

٣ - وأخيرًا، فإنّي لم أشأ أن أترُكَ لكَ ذريعةً تمكِّنُكَ من أن تقول: «ماذا، إذًا؟ أرأيتَ رسالتي؟ أتحقّقتَ من توقيعي، لكي تطعنَ صديقًا، بهذه السهولة، وتُلقي عليَّ، على نحوٍ مهين، إثمَ الآخرين؟» أرسِلْ لي، إذًا، كما سبقَ أن كتبتُ لك، تلكَ الرّسالةَ نفسَها ممهورةً بتوقيعِك، أو فكفَّ عن تحدّي عجوزٍ مُتخفٍّ في صومعتِه. أمّا إذا شئتَ أن تُمارسَ علمك وتبسطَ معارفَك، فابحثْ عن صِبيةٍ لا تعوزُهم البلاغةُ والشّهرة، وهم كثُرٌ في رومة،

www.old-criticism.blogspot.com

يستطيعونَ ويجرؤونَ أن يُباروك، وأن يُجاروا أسقفًا في مناقشةِ الكتب المقدَّسة. أمّا أنا، الجنديَّ بالأمس، والشيخَ اليوم، فحسبي أن أصفِّقَ لانتصاراتِكَ وانتصاراتِ الآخرين، لا أن أعودَ إلى حلبةِ الصِّراعِ بجسدٍ متهدِّم. فإذا ألححتَ عليَّ كثيرًا لكي أجيب، فسيكون بوسعي أن أتذكّر كوينتُس مكسيمُس Quintus Maximus الذي بصبرِهِ، تمكّن من تحطيم كبرياءِ الفتى هنيبعل[١٠] الواثق من النّصر.

يقول فرجيليوس: «الزّمن يذهبُ بكلِّ شيء، حتّى باللّب. أذكرُ أنّني، طفلًا، أمضيتُ أيّامًا بطولِها أغنّي؛ واليومَ، نسيتُ تلكَ الأغاني، وبُحَّ صوتُ مَرِيس Mœris» (قصائد ريفيَّة ٩).

وأبقى في الكتبِ المقدّسة: ترك بَرزِلّاي الجلعادي لابنِه الفتيّ كلَّ ما أنعم عليه الملكُ داود، فأظهرَ بذلك أنَّ الشيخوخةَ لا تملِكُ أن تتمنّى أو أن تقبلَ مثلَ تلكَ النِّعم (راجع ٢ صموئيل؛ ٣٢-٣٧).

٤ - تُقسِمُ أنَّك لم تضعْ أيَّ كتابٍ ضدّي، وبما أنَّك لم تكتب شيئًا، فإنّكَ لم ترسِل شيئًا إلى رومة؛ وتقولُ بأنّه إذا التقى في كتاباتِكَ ما يُخالفُ رأيي، فلا ينبغي أن أشعُرَ بأنَّكَ جرحتني، إذ كتبتَ، بكلِّ بساطة، ما بدا لكَ صائبًا. أرجوكَ، أصغِ إليَّ بصبر.

لم تكتب أيّ كتاب! ولكن، كيف تلقّيتُ، عن طريق آخرين، الكتبَ الّتي توبّخُني فيها؟ وكيفَ تملكُ إيطاليا ما لم تكتب؟ وكيف تسألني أن أجيبَ على ما لم تكتبه؟ على أنّي لستُ خاليًا من الحِسّ لكي أعتقِد بأنَّ رأيَكَ المخالِف يجرحُني. ولكنّكَ إذا كنت توبّخُني على كلامي، وإذا كنتَ تسألني تبريرًا له، أو تصحيحًا، وإذا كنتَ

(١٠) تاريخ طيطس- ليفُس ٣ *Tite-Live*؛ الكتاب الثاني.

www.old-criticism.blogspot.com

تتحدّاني بدعوتِكِ لي أن أتلو نشيدَ التوبة، فأستعيدَ بصري، عندها تجدُ الصّداقةُ نفسَها مهانة، وحقوقها منتهَكَة. أكتبُ لكَ هذا لئلّا يبدو وكأنّنا نتصارعُ كالأطفال، ولئلا نكونَ موضوعَ جدالٍ بين أصدقاءٍ وخصوم، ولأنّي أبتغي أن أحبَّك محبَّةً مسيحيَّةً صادقة، فلا أحفظُ في قلبي ما لا تتفوّهُ به شفتايَ. وأنا الذي عشتُ، منذ حداثتي وإلى اليوم، بكلِّ جدٍّ، مع إخوةٍ قدّيسين، في رُكنِ دير، لا يليقُ بي أن أكتبَ كيفما اتّفق ضدّ أسقفٍ في كنيستي، ولا أن أهاجم أسقفًا بدأتُ أحبُّهُ قبلَ أن أعرِفَه، وكانَ أوّل من دعاني إلى الصداقة، وفرحتُ بأن أراهُ يرتقي، بعدي، في علم الكتاب المقدّس. فانكُرْ، إذًا، هذا الكتاب، إن لم يكنْ منك، حقًّا، وكُفَّ عن طلبِ الجواب على ما تُنكرُ كتابتَه؛ أمّا إذا كنتَ صاحبَه، فاعترِف بكلِّ بساطة، حتّى إذا كتبتُ دفاعًا عن نفسي، وقعَتِ المسؤوليَّةُ عليك لكونِك تحدّيتَني، لا عليَّ أنا الذي أرغمتُ على الجواب.

٥ – وتضيف أنَّه إذا كان في مؤلَّفاتِكَ ما يصدمُني، فإنّكَ على استعدادٍ لأن تقبلَ، بأخوّةٍ، ملاحظاتي؛ لا بفرحٍ فحسبُ، على أنّها شهادات مجاملةٍ تجاهَك، بل لأنَّك تسألُنيها كعطيَّة. أعودُ فأقول: إنّكَ تتحدّى شيخًا عجوزًا، وتُحرِّضُ من لا يطلبُ سوى الصمت، وتبدو كأنَّكَ تستعرضُ معرفتَك. ليسَ لمن كانَ في عمري أن يُظهر سوء النيَّة تجاه رجلٍ يُفترَضُ به أن ينظرَ إليه بعطف؛ وإذا وَجَدَ فُجّارٌ ما يُعيبونَهُ في الإنجيل والأنبياء، أفتَعجَبُ أن يجدوا ما يُعيبونَهُ في كتبِك، خاصّةً في ما يمسُّ تفسيرَ الكتب المقدّسة، حيثُ يوجدُ الكثير من الغموض؟ أقولُ هذا، لا لكي أحكم بأنَّ في كتُبِك ما تُعابُ عليه، فإنّي لم أقرأها، ونُسَخُها نادرةٌ هنا، ما عدا «**محاورة الذّات**»، وبعضُ الشّروح في المزامير. ولو أردتُ أن أدقِّقَ في تلكَ

www.old-criticism.blogspot.com

الشّروح، لبيّنتُ بأنّكَ لستَ على وفاقٍ فيه، لا معي أنا الذي لستُ بشيء، بل مع الشُّرّاح اليونانيّين الأقدمين.

وداعًا أيّها الصّديق الحبيب، الإبنُ في السّنِّ والأبُ في الكرامة. وأرجوكَ ألّا تتخلّف، في كلِّ ما تكتُب، بأن تجعلَ، بعنايتِك، أن أكونَ أوّلَ القارئين.

www.old-criticism.blogspot.com

٨ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

سبق أن تعرّفنا إلى طباع القدّيس هيرونيمُس الذي احتفظَ، حتّى في أرفعِ درجاتِ الفضيلة، بشيءٍ من نزقِهُ الفطريّ. وسنتعرَّفُ هنا إلى طباعِ القدّيس أوغسطينُس: يشكو بلطفٍ من حدّةِ التعبير، ويُقرُّ بخطأه غير المقصود، ويطلبُ عنهُ المغفرة؛ لا يخشى ضربًا أو تأديبًا، طلبًا للحقيقة. في هذه الرّسالة يرد أوغسطينُس على رسالة هيرونيمُس رقم (٦٨ - أوغسطينُس/ ١٠٢ - هيرونيمُس). محاولًا أن يُلطّفَ مشاعرَه المجروحة، ويتوسّل إليه أن يتعالى على الإساءة التي سبّبها له، ويرجوه ألّا يقطعَ أواصر الصداقة المتينة التي تربطُهما؛ ويُقاربُ الصّراعَ الناشب بين هيرونيمُس وروفينُس، ويتمنّى، صادقًا، ألّا يؤثّرَ ذلكَ الصّدع على إحداث فرقةٍ بينَ هيرونيمس وبينَه. الرّسالة تنضح بروحِ الوئام والمصالحة، وتطفح بمشاعرِ الصّداقة. وغير مرّة، يتوقّفُ أوغسطينُس عند كلمات هيرونيمُس، خاصّةً عندما يقول: ألا ليتني ألقاكَ فأعانقكَ ونتحادث معًا، فيتعلّم أحدُنا من الآخر (الرسالة ١٠٢). الرّسالة مؤرّخة في العم ٤٠٤. وتحمل الرّقم ٧٣ في مجموعة أوغسطينُس، و١١٠ في مجموعة هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى سيّده الجليل، وأخيهِ الحبيب ورفيقِه في الكهنوت هيرونيمُس، سلامٌ في الرّبّ.

www.old-criticism.blogspot.com

أظنُّكَ استلمتَ قبلَ هذه الرّسالة، رسالةً بعثتُ بها إليكَ مع خادم الله ولدنا الشّمّاس قبريانُس. وتاكّدتَ من أنّي صاحبُ الرّسالة التي وصلتكَ نسخةٌ منها - وإنّي لأراكَ، بجوابِكَ، تُشبعُني ضرباتٍ كتلكَ التي كانَ يكيلُها أنتيلُّس Entellus لدارِس Darès الجبّار، بقفازه الفولاذيّ[١١] - غيرَ أنّي أجيبُكَ على ما تلطّفتَ وكتبتهُ إليَّ بواسطة ولدِنا البارّ أستيريوس. ووجدتُ فيها الكثيرَ من سماتِ محبَّتِكَ الغيورة، وبعضَ الإشاراتِ إلى إهاناتٍ وجّهتُها إليك؛ فقرأتُ فيها الكلامَ العذبَ والكلامَ الجارحَ على السّواء. وأكثرُ ما أدهشني فيها أنّكَ بعد أن قلتَ بأنّك لا تُريدُ أن تُصدّق، بتهوُّر، أنّي صاحبُ الرّسالة، لئلّا يجرحَني جوابك، فأكونُ محقًّا في مطالبتِكَ بالتأكّد من صحّةِ نسبتِها إليّ، تعودُ فتطالبُني بأن أصرِّحَ بوضوح، عمّا إذا كنتُ أنا من كتبَها، أو أن أرسلَ إليكَ نسخةً موثوقةً عنها، لكي نتمكّنَ من أن نتناقشَ في الكتبِ المقدّسة من غير حدّة. فكيفَ يُمكنُ أن يتمَّ ذلكَ من غيرِ حدّة، وأنتَ تتهيّأ لطعني؟ وإذا كنت لا تفكّرُ في طعني، فكيفَ يمكنُني، أنا المجروح منكَ عن غيرِ قصد، أن أملكَ الحقَّ بالشّكوى من أنّكَ لم تبيّن بأنّي صاحبُ الرّسالة، قبلَ

---

(١١) في إشارة إلى معركة القفّاز (Combat de ceste) التي وصفها فرجيليوس في النشيد الخامس من **الإنيادة** (٣٦٢-٤٨٤). وخلاصتُها أنَّ إينيوس دعا المصارعينَ إلى عراكٍ يُكافأُ الفائزُ فيه بجائزةٍ ثمينة، فبادرَ «دارِس» الجبّار إلى الحلبة فلم يجرؤ أحدٌ على نزالِه، وأراد أن ينتزع الجائزة، فما كانَ من الملك أسِستُس Acestus إلّا أن دعا صديقَه أنتِلّس إلى نزاله؛ غير أنّ هذا آثَرَ الانكفاء محتجًّا بذهابِ قواه مع العمر. ولكنّه عاد فنزلَ إلى الحلبة وألقى بقفّازه الحديديّ الذي تسلَّمَهُ من الإله أريكس، فارتعدَ دارِسَ ورفضَ الصّراع. ولكنّ تدخّلَ إينيوس وأسِستُس أعادهُما إلى الحلبة، حيثُ تمكّن أنتِلّس من الغلبة بعد أن أشبعَ دارِسَ ضربًا. وبالنتيجة، حصلَ دارِس على جائزة ترضية، فيما نالَ أنتلّس الجائزة الكبرى وقدّمها ذبيحة شكر إلى الإله أريكس.

www.old-criticism.blogspot.com

أن تردَّ عليّ بهذا الشكل، أي قبلَ أن تُهينَني؟ لأنّكَ لو لم تجرحْني في ردّك، فلن يسعَني أن أشكوَ بحقّ. ومن حيثُ أنّك تردُّ بالإهانة، فأيُّ مجالٍ تتركُ للنقاشِ في الكتبِ المقدَّسة من غيرِ حدّة؟ أمّا أنا، فمعاذَ الله أن أشعرَ بالإهانة، إذا أردتَ أو استطعتَ أن تبيِّنَ أنّكَ فهمتَ، على نحوٍ أفضل، ذلكَ المقطع من رسالة بولُس، أو أيَّ نصٍّ آخرَ من الكتبِ المقدَّسة! وأكثرُ من ذلك، معاذَ الله ألّا أقبلَ بالشكر، وألّا أراها مكسبًا لي، تلك الأنوار التي ترِدُني منكَ فتَهديني، وتلك التنبيهاتِ فأصطلِح!

٢ - أمّا إذا كنتَ، أخي العزيز، لم تحسَب أنَّ كتابي جرحك، فحريٌّ ألّا تحسبَ أنَّ ردَّكَ جرحَني؛ ولَمَا كنتُ أستطيعُ، يومًا، أن أظنَّ بأنَّكَ أجبتني لكي تُهينَني، لو لم تكن أنتَ نفسُكَ أحسستَ بالإهانة. ولو رأيتَ أنّي خالٍ من الإحساس بما يكفي لكي أغضبَ من جوابٍ لا يحملُ إهانة، لكانت تلكَ هي الإهانة بعينِها. ولمّا كنتُ لم أجدهُ مهينًا، فلا أظنُّكَ تريدُ، بجسارة، أن تفترِضَ بي تلكَ الطباع، أنتَ الّذي رفضتَ أن تُصدِّقَ أنّي صاحبُ الرّسالة، حتى ولو عرفتَ فيها أسلوبي. فإذا رأيتَ، عن صوابٍ، بأنَّ لديَّ سببًا للشّكوى، في حال نسبتَ إليَّ ما ليسَ منّي، فكم أكون، بحقّ، أَوْلى بالشّكوى من أن تكونَ قد تجرّأتَ وأخذتني بجريرةِ آخر؟ لعلَّكَ، إذًا، لم تضلَّ إلى درجةِ اعتباري على قدرٍ من الغباء، لكي أشكوَ من ردٍّ لا يحملُ أيَّ تجريح.

٣ - يبقى الآنَ أن تكونَ مستعدًّا لتوجِّهَ إليَّ ردًّا مهينًا، إذا ما تأكَّد لك أنَّ الرسالة وصلتكَ منّي؛ وهنا، وبما أنَّهُ يستحيلُ أن أصدّقَ أنّكَ تهينُني من غير مبرِّر، فليسَ أمامي إلّا أن أعترِفَ بخطإي، وأقرَّ بأنَّني كنت البادئ بطعنِك في تلكَ الرّسالة التي لا

www.old-criticism.blogspot.com

يسعُني إنكارُها. ولكن، لِمَ أجتهِد في السّيرِ بعكسِ التيّار، فيما الأحرى بي أن أطلبَ المغفرة؟ أستحلفُكَ، إذًا، بدعةِ المسيح، أن تغفرَ لي إن كنتُ قد أسأتُ إليك، وألّا تردَّ لي شرًّا بشرّ، فتسيء إليّ بدورِك. ولعلَّك تسيءُ إليَّ إن لم تُبيّن لي ما وجدتَهُ نابيًا في أفعالي وأقوالي؛ لأنّكَ لو أخذتَ عليَّ ما لا يؤخَذ، ستسيءُ إلى نفسِكَ فوقَ ما تسيءُ إليَّ؛ إنَّ رجلًا بمثلِ فضيلتِك، وفي مثلِ موقعِك المقدَّس، لن يفعلَها بقصدِ التجريح، ولن تعيبَ عليّ بخبثٍ ومَكر، ما تعلمُ، في قرارةِ قلبِك، بأنّهُ لا يستحقُّ أن يُعاب. فإمّا أن توبّخَني بروحِ الرّاعي العطوف، ولو لم يكن من خطإٍ حيثُ ترى الخطأ، أو فعامل معاملةً أبويّة ذاكَ الّذي لا تقوى على إدانتِه. يمكن أن يحدث أنّ ما تؤمنُ بهِ يُجافي الحقيقة، ولو انَّ المحبَّة هي التي توحي إليكَ على الدّوام، كلَّ ما تعمل. سأقبلُ بامتنانٍ تصويبًا صادرًا عن محبَّةٍ خالصة، حتّى حيثُ لم أخطأ، فأتعرَّف، في آنٍ معًا، إلى عطفكَ وإلى خطإي. وبمقدار ما يسمحُ الرّبّ، سأكونَ عارفًا بجميلِ ديّاني، وأصلِحَ نفسي.

٤ - علامَ إذًا أرهبُ كلامَكَ، كما أرهبُ قفّازَ **أنتِلُس**؟ لعلَّهُ قاسٍ، ولكنَّهُ خلاصيٌّ. **دارِس** كان يُواجهُ خصمًا يفتكُ به، لا طبيبًا يُداويه؛ قُهِر ولم يشفَ. أمّا أنا، فإن أتلقَّ، بلطفٍ، انتقادَكَ كدواء، فلن أحسَّ بألم؛ وإذا كانَ ضعفي البشريَّ يجعلُني أشعرُ ببعضِ تفجُّعٍ لتوبيخٍ مُستَحَقّ، فخيرٌ لي أن يؤلِمني رأسي لأشفى من السَّقم، من أن أبقى سقيمًا لرفضي أن يُمسَّ رأسي. رأى جيّدًا ذاكَ الذي قالَ بأنَّ أعداءَنا أنفعُ لنا في استدراجنا إلى القتال، من أصدقائِنا الذين لا يجرؤون على لومِنا. فأولئكَ، بعدائيّتِهم، يأتوننا أحيانًا بحقائقَ نجتني منها فائدة، وهؤلاء، على العكس، لا يستخدمون حرّيَّةً

www.old-criticism.blogspot.com

يدينونَ بها إلى البِرّ، لأنَّهم يخشَونَ أن يُسيئوا إلى عذوبة الصّداقة. تُشبّه نفسَكَ بالثّور الهرِم بالجسد، الفتيّ بالرّوح، الذي يواصلُ العملَ المفيدَ في بيدرِ الرَّبّ؛ فهاأنذا، إن قلتُ ما يسيء، فدُسْني بقدمِكَ وسعَ طاقتِك. لن أشكوَ ثقلَ عمرِك، شرطَ أن تطحنَ قشَّ خطيئتي.

٥ - والكلماتُ التي تختمُ بها رسالتك، لا أنفكُّ أقرأُها، وأعيدُ قراءتَها بنهداتٍ حرّى، حيثُ تقول: «أسألُ الله أن أستحقَّ معانقتَك، وأن نتمكّن في لقاءاتِنا من أن يتعلَّمَ واحدُنا من الآخر!». وأنا بدوري أقول: «مكّننا اللهُ، على الأقلّ، من أن نسكنَ ديارًا مُتجاورة، حتّى إذا امتنعَ علينا اللّقاء، سهُلَ تبادلُ الرّسائل!» إنّ المسافةَ الّتي تُباعدُ بيننا لَعظيمة، حتّى أنّني أذكُرُ أنَّه سبقَ لي أن كتبتُ لكَ، في شبابي، حولَ مقطعٍ من رسالةِ بولسَ الرّسول إلى الغلاطيّين، وها قد هرِمتُ ولم أتلقَّ بعدُ منكَ جوابًا؛ كما أنّي أذكرُ، ولا أدري بأيِّ مناسبة، وعلى الرّغم من حرصي الشّديد، أنَّ نسخةً عن رسالةٍ منّي وصلتكَ بدلًا من الرّسالةِ نفسِها؛ ذاكَ أنَّ الرجلَ الذي كلّفتُهُ بها لم يوصِلْها، ولا هو أعادَها إليَّ. في رسالاتِكَ التي وصلتني، أشياءُ رائعة؛ ولو استطعتُ، لآثرتُ على دراساتي كلِّها، غبطةَ أن أكونَ إلى جانبِك. ولمّا كان الأمرِ خارجًا عن قدرتي، فإنّي أفكّرُ بأن أرسِلَ إليكَ واحدًا من أبنائي في الرّبّ لكي تُعلِّمَه. فأرجوكَ أن تتلطَّفَ وتُجيبَني بهذا الخصوص. إنّي أرى أنّي لا ولن أملكَ معارفَكَ في الكتبِ المقدَّسة؛ وإذا كنتُ أملكُ شيئًا، فإنّي أوزّعُهُ، قدرَ طاقتي، على شعبِ الله. يستحيلُ عليّ كلّيًا، بسببِ مهامّي الكنسيَّة، أن أجتهِدَ في الدّراسة بمقدارِ ما يتوجَّبُ من أجلِ تعليمِ الجمهورِ الذي يستمعُ إليّ.

www.old-criticism.blogspot.com

٦ – أجهلُ ما هي تلكَ الكتابات المهينة بحقِّك، التي وصلت إلى أفريقيا. غير أنّي تلقّيت ردّكَ عليها الذي تلطّفتَ بإرسالِه إليَّ. وبعدَ أن قرأتُه، أسفتُ، بحرقةٍ، أن أرى ذلكَ الشّقاق العميق بين صديقين حميمَين، تعرفُ الكنائسُ كلُّها متانة عرى الصّداقة الوُثقى التي كانت تربطُهُما إلى الآن. نلاحظُ، في رسالتِكَ، مدى اعتدالِكَ، ومدى كتمانِكَ سهامَ غضبِك، لئلّا تردَّ شتيمةً بشتيمة. فإذا كنتُ من قراءتِها يبِستُ من الألم، وارتجفتُ من الرّعدة، فما تُراهُ يكونُ شعوري إذا وقعَ بينَ يديَّ ما كُتِبَ ضدّك؟ «الويلُ للعالَم من أسباب العثرات» (متّى ١٨ ؛ ٧) ها هي ذي نراها أمامنا، ويتحقّقُ ما قالتهُ **الحقيقة**: «ويزدادُ الإثم، فتفترُ المحبّةُ في أكثر الناس». (متّى ٢٤ ؛ ١٢). أيّ قلبٍ يسعِه، بعدَ الآنَ، أن يبوحَ بمكنوناتِهِ بثقةٍ وأمان؟ وفي أيّ حضنٍ يُمكنُ للصداقةِ أن تلقي نفسها بكلّيّتِها؟ وأيُّ صديقٍ لا يُخشى من أن يكونَ عدوًّا مُحتمَلًا، إذا كانَ هذا الشّقاق الذي يؤسفُنا، قد تسنّى له أن ينشأ بين هيرونيمُس وروفينُس؟ يا لبؤسِ الطبعِ البشريّ وشقائِه! ويا لقلّةِ الأصدقاء الذين يمكنُ الوثوقُ بهم، حاضرًا، إذا كنّا لا نعرِفُ شيئًا عمّا ستكونُ مشاعرُهُم، مستقبَلًا! ولكن، لِمَ الشّكوى من جهلِ لواحدنا بالآخر، وليسَ من إنسانٍ يعلَم بما هو نفسُهُ إليه صائر؟ إنّهُ يكادُ لا يعرفُ حاضرَه، فكيفَ بهِ لا يجهلُ مستقبلَه؟

٧ – هل أنَّ تلكَ المعرِفة، لا بالحاضرِ فحسب، بل بالمستقبلِ أيضًا، يتمتّع بها الطوباويّون والملائكةُ القدّيسون؟ وعندما كانَ الشيطانُ لا يزالُ ملاكَ خيرٍ، كيفَ كانَ لهُ أن يسعد، لو كانَ عالمًا بخطيئتِهِ المُقبِلة، وبعذابِهِ الأبديّ؟ هذا ما أجهلُه تمامًا. أريدُ رأيَكَ في الموضوع، هذا إذا كان الأمرُ يستوجبُ المعرِفة. أترى ما تفعلُه

www.old-criticism.blogspot.com

بنا البحارُ والصّحاري التي تفصلُ بيننا؟ فلو كنتُ أنا مكان الرّسالة التي تقرأها لتلقّيتُ الجواب لتوّي. أمّا والحالُ هذه، فمتى تُجيب، ومتى تُرسِلُ إليَّ الجواب؟ ومتى يصلُني؟ ومتى أستلِمُه؟ مكّنني الله من أن أنتظِرَ، بصبر، ذلكَ الجواب الذي لن يصلَني بالسّرعة التي أتوخّاها! وأعودُ إلى رسالتِكَ الزاخرة بأشواقِكَ المقدّسة، وأقولُ بدوري: «أسألُ اللهَ أن أستحقَّ ذلكَ العناق، وأن يُمكّننا من التلاقي، فيتعلّمَ واحدُنا من الآخر!»، هذا إن كانَ لديّ ما أعلّمُك!

٨ ـ ليستُ أجدُ إلّا القليل من العزاء في هذه الكلمات التي هي كلماتُكَ بمقدار ما هي كلماتي؛ إنّها تُطرِبُني وتُحييني، في وقتٍ هي دون مبتغانا المشترَك الذي يبقى، أبدًا، معلّقًا وغيرَ محقّق. ومن خلالِها أحسُّ ألمًا حادًّا يُمزّقُني، خاصّةً ساعة أفكّرُ بك وبروفينُس الذي أنعمَ اللهُ عليهِ، بوفرة، بما نبتغيهِ كلانا. وا أسفاه! بعدَ أن تذوّقتُما معًا، وفي اتّحادٍ هو الأعذب، حلاوةَ الكتب المقدّسة، تركتُما المرارةَ تتفشّى بينكُما، حتّى غدت موضوعَ جزعٍ لكلِّ إنسانٍ في كلِّ مكان؛ من حيثُ أنّ هذا الخلاف المؤسِف نشب بينكما وأنتُما في ملءِ العمر، وسطَ الكتبِ المقدّسة، بعدَ أن تحرّرتُما من مشاغلِ الدّهر، ومعًا تبعتُما الرّبَّ، ومعًا عشتُما على هذه الأرض التي وطئَها الرّبُّ بقدميه البشريّتَين، وقبلَ أن يُغادِرَها، قال: «السّلامَ أستودعُكم، سلامي أعطيكُم» (يوحنّا ١٤: ٢٧). حقًّا «إنَّ حياةَ الإنسانِ على الأرضِ تَجَنُّد» (أيّوب ٧: ١). أوّاه! لِمَ لا أملكُ أن أجمعكما معًا في مكانٍ ما؟ لربّما ارتميتُ على أقدامِكُما، لفرط تأثّري وجزعي ولوعتي، وذرفتُ الدّموع فيّاضةً، ولرجوتُ كلّا منكما، على قدرِ محبّتي لهُ، ومحبّتِهِ لنفسِهِ وللآخر، ولجميعِ الناس، وبخاصةٍ للضعفاء الذين مات المسيحُ من أجلِهِم، والذين

www.old-criticism.blogspot.com

تشكّلانِ لهم مشهدًا بالغ الخطورة؛ وأستحلفُكُما بألّا ينشُرَ واحدُكما ضدَّ الآخر كتبًا لن تقويا على محوِها يوم تتصالحان، وتخشيان قراءتَها لئلّا تعودا، مرَّةً بعدُ، إلى الإختصام.

٩ - أخاطبُ محبَّتك بكلِّ صراحة، وأقولُ بأنّهُ لم يُقلِقني شيءٌ فوقَ ما أقلقني ذلك المثل، وأنا أقرأُ مقاطعَ في رسالتِكَ تحملُ بعضَ الحدّة؛ ليسَ يُقلقُني ما تقولُهُ عن **أنتِلُّس** وعن الثّور التَّعِب، حيثُ يبدو للمزاحِ حيّزٌ أكبر ممّا للتهديد؛ إنّه المقطع الذي سبقَ أن تكلَّمتُ عنهُ، ربَّما فوقَ ما يلزم، ولكن ليسَ فوق ما أقلقَني، وهو المقطع الّذي تقولُ فيه جادًّا: «مخافةَ أن تشعُرَ بالجرح، فيحقُّ لكَ أن تشكو». إنّي أسألُكَ أن نبحثَ معًا، إذا أمكن، وأن نتناقشَ فنُغذّي نفوسنا، من دون حاجةٍ إلى مرارةِ سوءِ الفهم. أمّا إذا كنتُ لا أستطيعُ أن أكونَ صريحًا في ما يبدو لي نافرًا في كتاباتِك، ولا أنت بما يبدو لكَ نافرًا في كتاباتي، من غيرِ أن يُداخلَنا حسدٌ، ومن غيرِ أن نشدخ صداقتَنا، فلندَعْ عنّا كلَّ هذا، ولنُجنِّب حياتنا وخلاصنا تلكَ التجارب. خيرٌ لنا ألّا نتقدَّم في العلوم التي تنفُخ، من أن نجرحَ المحبَّةَ التي تبني. أمّا أنا فأشعرُ بأنّي بعيدٌ كلَّ البعد عن ذلكَ الكمال الذي قيلَ فيه: «إن كانَ أحدٌ لا يزلُّ في كلامه، فهو رجلٌ كامل». (يعقوب٣؛ ٢)؛ ولكنّي أحسبُ نفسي قادرًا، برحمةِ الله، وببساطة، على أن أسألَك المغفرة إذا كنتُ أسأتُ إليكَ في شيء؛ وعليكَ أن تُفصِحَ لي عنهُ، حتّى إذا استمعتُ إليكَ، ربحتَ أخاك (متّى ١٨؛ ١٥). يجبُ ألّا تسمَحَ بأن أخطئ، بحجَّةِ أنَّ البعدَ يمنعُكَ من أن توبّخَني، بملءِ صوتِك. أمّا في ما يمسُّ موضوعَ دراساتنا، فإنّي إذا فعلتُ ما أراه صحيحًا، أو آمنت بحقيقةٍ تُخالِفُ رأيَك، أو حسبتُ أنّي أملكُها، فسأجهدُ، أجل، للدّفاع عنها، بقدرِ ما يسمحُ الرَّبّ،

www.old-criticism.blogspot.com

من دونَ أن أسبِّبَ لكَ أدنى إساءة. أمّا إذا تبيَّن لي أنّكَ جُرِحت، فلن أسألَ شيئًا آخرَ غير المغفِرة.

١٠ً - لم أغضِبْكَ، على ما أظنّ، إلّا بقولي ما كان ينبغي ألّا أقولَه، أو بخلافِ ما كانَ عليّ أن أقولَه؛ والحال، فإنّي لا أعجَبُ قطُّ بأنّ واحدَنا لا يعرِفُ الآخر بقدرِ ما يعرفُنا أصدقاؤُنا الذينَ يعيشونَ معنا في ألفة. أقرُّ بأنّي سهلُ الإنقياد، بكلّيّتي، في محبَّتِهم، خاصّةً وأنّ عثرات الدّهر أرهقت كاهلي. أرتاحُ إليهم، فلا أقلق، لأنّي أشعر بحضور الله، فألقي بنفسي إليه واثقًا، لأنَّ لي فيهِ الرّاحةَ والأمان. ومعه لا أرهبُ ذاكَ الغدَ المُريبَ لبشريَّةٍ هشَّة كانَت، إلى الآنَ، تُعذّبُني. عندما أشعرُ بأنَّ إنسانًا مضطرِمًا بالمحبَّةِ المسيحيَّة، صارَ صديقًا لي أمينًا، فإنّ كلَّ ما أسِرُّ به إليه من مشاريع وأفكار، فإنّي لا أسرُّ به إلى الإنسان، ولكن إلى الذي يسكنُ فيه ويهبُه الأمانة؛ «لأنّ الله محبَّة، فمن أقام في المحبَّة أقام في الله، وأقام اللهُ فيه» (١ يوحنّا ٤؛ ١٦). فإذا تخلّى ذاكَ الإنسانُ عن المحبّة، فسيؤلِمُني هجرانه، بقدرِ ما كانَ ليُفرحَني بقاؤه. ومع ذلك، فإذا صار عدوًّا، بعد أن كانَ صديقًا خلوصًا، فلتصرَّفْ بشكلٍ لا يتمكنُ معه من أن يرفعَ السّلاحَ في وجهِنا، وألّا يجدَ حقُّه أو حيلتُه ما يُمكنُ فضحُه. بوسعِ كلِّ واحدٍ أن يتصرَّفَ، بسهولة، على هذا النحو، لا بإخفاءِ ما فعل، بل بعدم فعلِ ما يريدُ إخفاءَه. إنَّ رحمةَ الله تهبُ الصّالحينَ الأتقياء أن يعيشوا، بكلِّ حرّيّة وأمان، مع أصدقائِهم، أيًّا تكنْ مخطّطاتُهم المستقبليّة؛ وألّا يكشفوا أخطاءَ الآخرين التي ائتُمِنوا عليها؛ وألّا يفعلوا هم أنفُسهم ما يخشونَ كشفَه. عندما يخترِعُ واشٍ تهمةَ زور، فإمّا لا يُصدَّق، وإمّا يُصدّق فتتأذّى السمعة من دونِ يمسَّ صفاء العيشِ سوء. ولكن، عندما

www.old-criticism.blogspot.com

نرتكبُ الإثمَ، حقًّا، نكونُ أمام عدوٍّ لصيق خفيّ، يعجزُ عن كشفِه أكثرُ الوشاةِ علمًا بخفايانا. لأجلِ ذلك، فأيُّ عاقلٍ لا يُقرُّ بصبرِك، لِما تتمتّعُ به من ضميرٍ حي، على تحمّلِ صديقٍ قديم يُهاجمُكَ بهذا القدرِ من العنفِ والشَّراسة؟ وفيما بعضُهم يزدرون ما يسوقُهُ من اتّهامات، وآخرون يُصدّقونَها، فإنّنا نرى كيفَ تشحذُ منها سلاحًا للبرِّ تقاتلُهُم به باليسار، وسلاحًا تقاتِلُ بهِ الشَّيطانَ باليمين (راجع ٢قور٦: ٧). غيرَ أنّي كنتُ أتمنَّى أن يظهَرَ أرقَّ وألطَف، وأن يكونَ سلاحكَ أقلَّ مَضاءً. إنَّهُ لحدَثٌ جللٌ ومؤسف، أن تغدُوَ صداقةٌ مُتأصِّلة، عداوةً لا تلين؛ وسيكون حدثًا عظيمًا رائعًا أن نرجِعَ من عداوةِ اليوم إلى اتّحادِ الأمسِ الوثيق.

www.old-criticism.blogspot.com

٩ - من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

على أثر تلقّيه الرسالة رقم ١٠٤، مع نسخة موثّقة عن نصّ كلٍّ من الرسالتين رقم ٥٦ و٦٧ (من مجموعة رسائل هيرونيمُس) (أي ٧١؛ ٢٨، ٤٠ من مجموعة أوغسطينُس)، وفي مدّةٍ لم تتعدَّ الأيّام الثلاثة، كتب هيرونيمُس ردًّا شاملًا على جميع المواضيع التي طرحَها أوغسطينُس. في الرسالة يشرح معنى عنوان كتابه «مشاهير الرّجال» ويُسهب في مسألة النزاع الذي نشب بين بطرس وبولس، ويدلي برأيهِ حولَ السبعينيّة، ويُبيِّن برواية «اليقطين» صحة ترجمتِه ودقّتِها. أسلوب الرسالة ينمّ عن لطفٍ لا يُخفي بعضَ التواضع. على أيّ حال، فإنَّ هيرونيمُس يُقرّ لأوغسطينُس بسلطانِه وبغزارة معرفتِه. الرسالة مؤرّخة في العام ٤٠٤. وتحمل الرقم ٧٥ في مجموعة أوغسطينُس، و١١٢ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس إلى السّيّد الكلّيّ القداسة والطوبى، البابا أوغسطينُس، سلامٌ في الرّبّ.

أ - تلقّيتُ منكَ، عن طريق الشّمّاس قبريانُس، ثلاثَ رسائل، أو بالأحرى ثلاثَ كتب، دفعةً واحدة، تحتوي، برأيِكَ، على أسئِلة، أمّا برأيي فعلى انتقادٍ لمؤلّفاتي. فلو أردتُ أن أردَّ عليها لاقتضى الأمرُ منّي مُجلَّدًا. غيرَ أنّي سأسعى طاقتي، ألّا أتجاوزَ حدود رسالةٍ طويلة، فلا أؤخّرَ الأخَ الذي لم يسألني الرّدَّ إلّا قبل

www.old-criticism.blogspot.com

رحيلِه بأيّام ثلاثة. أمّا وقد استعجَلَنيه، فأراني مضطرًّا إلى معاجةِ تلكَ المسائل من دون أن أشحذَ، كفايةً، فكري، فأجيبَ على عجل، لا بجدّيَةِ مفكّرٍ يكتُب، بل بالأسلوبِ المبتكر لرجلٍ يُملي؛ وينشأ عن ذلك أن أسير كيفَما اتّفق، فيغدو النقاشُ من غيرِ فائدة؛ وبهذا أحاكي الجنديَّ المقدام الذي يُباغتُه هجومٌ، فيعمدُ إلى الهربِ قبلَ أن يتسنّى لهُ أن يلتقِطَ سلاحَه.

٢ - وبعدُ، فإنَّ سلاحَنا المسيح، وتعليمُ الرسول بولُس الذي يقولُ للأفسُسيين: «خذوا سلاحَ الله لتستطيعوا المقاومةَ في يومِ الشّرّ... فانهضوا، إذًا، وشدّوا أحقاءَكم بالحقّ، والبسوا درعَ البِرّ، وأنتعِلوا أقدامكم بالنشاطِ لإعلان بشارة السّلام، واحملوا ترسَ الإيمان، في كلّ حال؛ فبهِ تستطيعون أن تُخمِدوا جميعَ سهام الشّرّير المشتعلة؛ واتّخِذوا لكم خوذةَ الخلاص وسيفَ الرّوح، أي كلمة الله» (أفسُس ٦؛ ١٣-١٧). انطلق الملكُ داود إلى الحرب، متسلّحًا بتلكَ السِّهام، وانتقى خمسةَ حجارٍ مُلسٍ من الغدير، مُبيِّنًا بذلكَ أنّ تيّاراتِ الدّهر لم تُلطّخهُ ولم تُقَسِّه؛ وشربَ، في طريقِه، من ماءِ الغدير، ومن أجلِ ذلك نالَ فخرَ قطعِ رأسِ جوليات بسيفِ ذلكَ الجبّار المتغطرِس، بعدَ أن أصاب الفاجرَ بالحجرِ في جبهتِه (١ صموئيل ١٧؛ ٤٠-٥١)، في ذلكَ الجزء من رأسِ عُزّيّا الذي لمعَ فيه البرص لأنَّهُ تعدّى على هيكلِ الرّبّ (٢ أخبار ٢٦؛ ١٩)، حيثُ يمجّدُ القدّيس في الرّبّ، بحسب هذه الكلمات: «أطلِع علينا نورَ وجهِكَ، يا ربّ». (مزمور ٤؛ ٧). فلنقُل نحنُ أيضًا: «قلبي مستعدٌّ يا أله، قلبي مستعدٌّ. إنّي أرنّم وأعزِف، إستيقظ يا مجدي، إستيقظ أيّها العودُ والكنّارة. سأوقظُ السَّحَر» (مزمور ٥٧؛ ٨-٩)، لكي تتمَّ فينا هذه الكلمات: «أوسِعْ فمكَ فأملأَه». (مزمور ٨١؛ ١١). يُعطي

www.old-criticism.blogspot.com

الله كلمتَه للّذينَ يُبشِّرون، ليكونَ لهم سلطانٌ عظيم. لا أشكُّ في أنّكَ تصلّي أيضًا من أجلِ أن تنتصِرَ الحقيقةُ في نزاعاتِنا؛ لأنّك لا تطلبُ مجدَك بل مجد المسيح، وعندما تنتصِر، أنتصِرُ أنا أيضًا إذا فهمتُ خطإي؛ وإذا انتصرتُ أنا، كنتَ أنت المنتصِر «فليس على الأبناء أن يذّخروا للآباء، بل الآباءُ للأبناء» (٢ قور ١٢؛ ١٤). ونقرأ في أخبارِ الأيّام أنّ بني إسرائيل كانوا يخرجونَ إلى الحربِ بقلبٍ واحد (١ أخبار ١٢؛ ١٧)، لا يطلبونَ النّصرَ لهُم، بل للسّلام، وسطَ والسيوف والدّم المراق وجثثِ الجنودِ القتلى.

فلأُجبْ، إذًا، على جميعِ أسئلتِك، وإن شاءَ الله، أعطيكَ حلًّا لها بكلماتٍ قليلة. إنّي أتجاوزُ العبارات المهذّبة التي تُدغدغُني بها، وأخرسُ عن الرّقّة والعذوبةِ التي تجهدُ لتعزّيَني بها عن انتقاداتِك؛ وأطرقُ الموضوعَ فورًا.

٣ - تقولُ بأنّك استلمتَ من أحد إخوتِنا كتابًا لي من غير عنوان، أعدّدُ فيهِ أدباءَ الكنيسة يونانيّين ولاتينيّين؛ وتقول حرفيًّا إنّكَ حين سألتَه لماذا لا يحملُ عنوانًا على صفحتِه الأولى، وما اسم هذا الكتاب، أجابَ بأنّه «**تخليد ذكرى**». وفي رأيك، أنّ اختيارَ هذا العنوان يكون حسنًا لو لم يحتوِ إلا أسماءَ أدباء مُتوفّين وآثارَهُم؛ أمّا وأنّه يحتوي أعمالَ كثيرٍ من الأدباء الذين كانوا ما يزالون على قيدِ الحياة في الحقبة التي كُتِبَ فيها، وما يزالون إلى اليوم أحياءً، فإنّكَ تعجَبُ من أنّي اخترتُ له هذا العنوان. حسبتُ بأنّ بوسعِ حكمتِكَ أن تُدركَ عنوانَ الكتاب من محتواه، لأنّكَ رأيتَ أنّ أدباءَ اليونانيّة واللّاتينيّة الذين دوّنوا سِيَرَ مشاهيرِ الرّجال، لم يضعوا مؤلّفاتِهم تحتَ عنوان «**تخليد ذكرى**» بل سمّوها: «**رجالٌ عظماء**»، كالقادة، والفلاسفةِ والخطباء والمؤرّخين وشعراء الملحمة والمأساة

www.old-criticism.blogspot.com

والملهاة، على سبيلِ المثال. أمّا الرثاء وتخليدُ الذكرى فلا يُكتبُ إلّا في الموتى، وهذا ما أذكرُ أنّي فعلتُهُ، في الماضي، يومَ كتبتُ رثاءً في الكاهن نيبوسيانُس Népotien الطّيّب الذِّكر. يجبُ أن يحملَ كتابي عنوان: **مشاهير الرجال**، أو **أدباءُ الكنيسة**، ولو انَّ بعضَ المصحّحينَ الجهلة وضعوا له عنوانًا: في **الأدباء**.

٤ً - وتسألني، ثانيًا، لماذا قلتُ، في شرحي للرّسالة إلى الغلاطيّين، بأنَّهُ لم يكن يحقُّ لبولس أن يلوم بطرس في ما فعلَهُ هو نفسُه (راجع غلاطية ٢)، أو أن يعيبَ في آخر نفاقًا لم يسلَم هو منهُ؛ وتؤكّد بأنَّ توبيخَ الرّسول لم يكن تصنُّعًا بل حقيقة، وبأنّه لا ينبغي أن أعلِّمَ الكذب، وأنَّ كلَّ ما جاءَ في كتبِنا المقدَّسة، ينبغي فهمُهُ كما كُتِب. وعلى هذا أجيبُ، أوّلًا، أنّهُ كان بوسع حكمتَك أن تعودَ إلى مقدِّمة شروحي حيثُ أقول: «ماذا إذًا؟ أأحمقُ أنا أم وقحٌ فأعِدَ بما لم يستطعْ آخرُ أن يفعَلَه؟ أبدًا؛ بل إنّي أكثرُ تحفّظًا وحياءً، لأنّي شعرتُ بضعفي فأخذتُ بشروحِ أوريجنّس الذي كتب في الرّسالة إلى الغلاطيّين خمسةَ مجلّدات، وضمّنَ كتابه العاشر من «**منوّعاتِه** *Stromates*» شرحًا موجزًا لتلكَ الرّسالة؛ كما ألّفَ فيها أبحاثًا متنوّعة، ومُختاراتٍ أحسبُها تكفي لوحدِها. وأتجاوزُ ديديمُس الأعمى، وأبولیناریوس اللّاوُديقي الذي خرجَ مؤخّرًا من الكنيسة، والإسكندر الهرطوقي القديم، ويوسيبيوس الأيميزي، وتيودورُس الهيرقلياني الذين تركوا لنا أيضًا عددًا من الشّروحِ القصيرة حولَ هذه الرسالة. لو كان لي أن أورِدَ من هذه كلِّها مختاراتٍ قصيرة، لكان لدينا شيءٌ لا يُستهانُ به. أعترفُ صراحةً بأنّي قرأتُها كلَّها، وجمعتُ في ذهني منها أشياءَ كثيرة، وأمليتُ على كاتبي ما هو منّي، وما هو من الآخرين، من دونَ أن أتذكَّرَ الترتيب أو الكلامَ أو المعنى. معاذَ

www.old-criticism.blogspot.com

الله أن أكونَ أضعتُ بجهلي ما أحسنَ الآخرونَ قولَه، وأن تكونَ بشاعة لغةٍ غريب طمسَت ما حسُنَ في لغتِهم! فإذا بدا لكَ في تفسيري ما ينبغي إدانتُه، فأحرى بعبقريّتِكَ أن تبحثَ عمّا إذا كانَ ما كتبتُه، أخذتُهُ عن أدباءِ اليونان؛ حتّى إذا لم تجدْهُ، أمكنَكَ أن تدين رأيي. خاصّةً وأنّي اعترفتُ، في المقدّمة، بأنّي اتّبعتُ شروحَ أوريجنّس، وأمليتُ أفكاري وأفكارَ الآخرين، كما أنّي، في آخرِ الفصلِ الذي تنتقدُه، كتبتُ هذه الكلمات: «إن كان أحدٌ ليس من رأيي عندما أبيّن بأنّه إذا كان بطرس لم يخطأ، وبولُس لم يوبّخ بعنفٍ من هو أكبرُ منه، فعليه أن يُفسّرَ لي كيفَ أنَّ بولُس يعيبُ في آخرَ ما فعلَه هو نفسُه». وبهذا أردتُ أن أبيّن بأنّي لم أكن أدافع عمّا قرأتُهُ لدى أدباء اليونان، بل كنتُ أردّدُه لكي أتركَ للقارئ الحرّية بأن يحكم في هذا الرأي.

٥ - أمّا أنت، فلكي تتهرّب من سؤالي، وجدتَ لكَ منطقًا جديدًا تؤكّدُ فيه بأنَ الوثنيّين الذين آمنوا بالمسيح أعتِقوا من نير الناموس، أمّا الذين آمنوا بهِ من اليهود فكانوا تحتَ النّاموس؛ وهكذا فإنّ بولس، كمعلّمٍ للأمم، كان محقًّا، برأيك، في أن يوبّخَ الذين يحفظونَ النّاموس، وفي أنَّ بطرس، زعيمَ القائلين بالختان، كان يستحقُّ التوبيخ لكونه فرضَ على الأمم ناموسًا فُرِضَ على اليهودِ وحدهم. فإذا كنتَ، أو بالأحرى، ما دمتَ من الرأي القائل بأنَّ كلَّ يهوديّ مؤمن يبقى خاضعًا للنّاموس، فينبغي عليكَ، أنت الأسقفَ المعروف في العالم كلّه، أن تنشرَ هذا الرأي وأن تعملَ على أن يقبلَ به جميعُ الأساقفة. أمّا أنا، القابعَ في ضومعتي الحقيرة مع رهبان، أي مع خطأة مثلي، فلا أجرؤ أن أحسمَ في أمورٍ جُلّى؛ بل أعترِفُ فقط، وبكلّ بساطة، بأنّي أقرأ كتبَ الأقدمين،

www.old-criticism.blogspot.com

وبحسبِ العادةِ المرعيَّة، أعرض، في ما أكتب، مختلفَ التفاسير، لكي يتَّبع كلُّ واحدٍ الرأي الذي يُريد. هذا ما تعرفُهُ، على ما أظنّ، عن الأدب الوثني، وعن الكتب الإلهيّة، ولا شكَّ بأنَّك تُقرُّ به.

٦ - إنَّ هذا التفسير الذي كان أوريجنّس أولَ من أعطاه في كتابه العاشر من «المنوّعات» والمخصَّص لشرح رسالة بولُس إلى الغلاطيّين، وتبنّاه سائرُ الشُّرّاح، كانَ هدفُه الأساسيّ الردَّ على هرطقة بورفيرُس؛ فبورفيرُس هذا، يلوم بولُس لكونِه تجرَّأ فوبَّخَ بطرس، هامة الرّسل، في وجهِه؛ ولكونِهِ تجرّأ فأقنعَهُ بأنَّهُ أخطأ، أي بأنَّه وقعَ في الخطأ الذي وقع فيه هو بولُس، نفسه، الذي يوبِّخُ آخرَ عليه. وماذا أقولُ عن يوحنّا (الذهبيّ الفم) الذي اعتلى أخيرًا عرشَ القسطنطينيَّة الأسقفيّ، والذي وضع، حولَ هذا الفصل من رسالة بولُس، كتابًا مُسهبًا قالَ فيه قولَ أوريجنّس والأقدمين؟ فإذا كنت تتّهمُني بالخطأ، فأرجوكَ أن تقبلَ بأن أخطأ مثلَ هؤلاء الرِّجال؛ وبما أنّك ترى أنّ كثيرينَ يُشاركونَني هذا الخطأ، فيقعُ عليكَ أن تُبرِزَ واحدًا يُشاركُكَ رأيَك. هذا بشأنِ مقطع الرسالة إلى الغلاطيّين.

٧ - ولئلّا أبدو أنّي لا أنفكُّ أسوقُ الشهادات الكثيرة ضدَّ رأيِك، وأراوغَ في الحقيقة لمصلحةِ رجالٍ كبار، ولا أجرؤ على النّزال، فسأعرضُ بإيجاز أمثلةً من الكتاب. في أعمالِ الرّسل، أنَّ بطرس سمع صوتًا يقولُ لهُ: «قم يا بطرس فاذبحْ وكلْ» (أعمال ١٠؛ ١٣)، أي كلْ «من جميعِ أنواعِ ذواتِ الأربع، ودبّاباتِ الأرض وطيورِ السَّماء» (أعمال ١٠؛ ١٢). إنَّ هذه الكلمات تدلُّ على أنَّه ليسَ في النّاس من هو نجسٌ في طبيعتِه، بل جميعهُم مدعوّون بالتساوي إلى إنجيلِ المسيح. على هذا أجابَ بطرس: «حاشَ لي،

www.old-criticism.blogspot.com

يا ربّ، لم آكل قطُّ نجِسًا أو دنِسًا» (أعمال ١٠؛ ١٤) «فخاطبه الصّوتُ ثانيةً: ما طهَّرَه الله، لا تُنجِّسهُ أنت». (أعمال ١٠؛ ١٥). لذلكَ، ذهبَ إلى قيصريَّة ودخلَ بيتَ كورنيليوس، «وفتحَ بطرُسُ فاهُ وقال: أدركتُ حقًّا أنَّ الله لا يُراعي ظاهر الناس، فمن اتّقاهُ، في كلِّ أمّة، وعملَ البِرّ، كان عنده مَرْضِيًّا» (أعمال ١٠؛ ٣٤-٣٥) «وكانَ بطرس لا يزال يروي هذه الأمور، إذ نزل الرّوح القدس على جميع الذين سمعوا كلمة الله، فدَهِشَ المؤمنون المختونون الذين رافقوا بطرس، من أنّ موهبة الرّوحِ القدس أفيضَت على الوثنيّين أيضًا» (أعمال ١٠؛ ٤٤-٤٥) «فقال بطرس: أيستطيعُ أحدٌ أن يمنعَ هؤلاء من ماء المعموديّة، وقد نالوا الرّوحَ القدس مثلنا؟ ثمَّ أمرَ أن يُعمَّدوا باسم يسوع المسيح» (أعمال ١٠؛ ٤٧-٤٨). وكانَ أن علمَ الرُّسل والإخوةُ في اليهوديَّة أنَّ الأمم اقتبلوا كلمةَ الله؛ «فلمّا صعدَ بطرس إلى أورشليم، آخذ المختونون يُخاصمونهُ، قالوا: دخلتَ إلى رجالٍ قُلفٍ وأكلت معهُم» (أعمال ١١؛ ٢-٣)؛ وبعدَ أن بسطَ بطرسُ حُججَه كلَّها أنهى خطابَه، قال: «إذا كان اللهُ قد وهبَهُم النعمةَ التي وهبنا لأنّنا آمنّا بالربِّ يسوع المسيح، فمن أنا حتّى أستطيعَ أن أمنعَ الله؟ فلمّا سمعوا ذلك، هدأوا ومجّدوا الله وقالوا: إذًا، وهب الله الوثنيّين أيضًا التوبةَ التي تؤدّي إلى الحياة» (أعمال ١١؛ ١٧-١٨). وبعدَ ذلكَ بزمنٍ طويل، قدِمَ بولس وبرنابا إلى أنطاكية، «وجمعا الكنيسة عند وصولِهما، وأخبرا بكلّ ما أجرى الله معهُما، وكيف فتحَ باب الإيمان للوثنيّين». (أعمال ١٤؛ ٢٦). «ونزل أناسٌ من اليهوديَّة وأخذوا يُعلّمونَ الإخوة فيقولون: إن لم تَختَتِنوا على شريعة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص». (أعمال ١٥؛ ١). وإذ قامت في وجهِ بولس وبرنابا حركةٌ ذاتُ

www.old-criticism.blogspot.com

شأن، قرّرا أن يصعدا مع منازعيهِم إلى أورشليم «إلى الرّسل والشيوخ، للنظر في هذا الخلاف» (أعمال ١٥؛ ٢). ولمّا قدِموا أورشليم، قامَ أناسٌ من الذين كانوا على مذهب الفرّيسيّين ثمّ آمنوا، فقالوا: يجبُ ختن الوثنيّين وتوصيتهم بالحفاظ على ناموسِ موسى» (أعمال ١٥؛ ٥). ولمَّا كاد ذاكَ الكلام أن يثيرَ نزاعًا كبيرًا، وقف بطرس وخاطبَهُم بجرأتِه المعهودة قائلًا: «أيّها الإخوة، تعلمون أنَّ الله اختار عندكم، منذ الأيّام الأولى، أن يسمعَ الوثنيّون من فمي كلمةَ البشارة ويؤمِنوا، والله العليم بما في بالقلوب شهدَ لهم إذ وهبهم الرّوحَ القدس مثلَنا، فلم يُفرِّق بشيءٍ بيننا وبينَهُم، إذ طهَّر بالإيمانِ قلوبَهُم. فلماذا تجرّبون الله الآن بأن تجعلوا على أعناق التّلاميذ نيرًا لم يقوَ آباؤنا ولا نحنُ قوينا على حملِه؟ فنحن نؤمن أنّنا بنعمة الرّبّ يسوع، ننال الخلاص كما ينال الخلاصَ هؤلاء أيضًا. فسكت الجماعةُ كلُّهم».. (أعمال ١٥؛ ٧-١٢). بعدَها كانَ أن انضمَّ يعقوبُ والكهنة إلى رأي بطرس.

٨ - إنّ ما تقدّمتُ به، ينبغي ألّا يُمِلَّ القارئ، بل أن يكون، لي وله، وسيلةً يُبرهنُ من خلالِها، أن بطرُس، قَبْلَ بولُس، لم يكن جاهلًا، وهو صاحبُ الرأي، بأنَّ النّاموسَ لم يعدْ ضروريًّا بعدَ الإنجيل. وفي النهاية، فإنَّ سلطةَ بطرس كانت كبيرة بحيثُ كتبَ بولُس في رسالتِه: «وبعدَ ثلاث سنوات، صعدتُ إلى أورشليم للتعرّف إلى صخر (بطرس)، فأقمتُ عندَه خمسةَ عشر يومًا» (غلاطية ١؛ ١٨)؛ ثمَّ يقولُ بعدَها: «ثمَّ إنّي، بعدَ أربعة عشر سنة، صعدتُ ثانيةً إلى أورشليم مع برنابا، واصطحبتُ طيطُس أيضًا. وكان صعودي إليه بوحي، وعرضتُ عليهم البشارة التي أكرزُ بها بين الوثنيّين» (غلاطية ٢؛ ١-٢). وكان بولُس يُشيرُ بذلك إلى أنَّه لم

www.old-criticism.blogspot.com

يكن ليكرزَ بالبشارة بثقة، لو لم يكن مستندًا إلى رأي بطرس والّذين معه. فيُضيفُ لتوّه: «وعرضتُها، في اجتماعٍ خاصّ، على الأعيان، مخافة أن أسعى أو أكونَ سعيتُ باطلًا» (غلاطية ٢؛ ٢). لماذا في مجلسٍ خاصّ وليسَ أمام الجماعة؟ ذاكَ لكي يمنعَ من أن يُثارَ أيُّ شكٍّ بين المؤمنين من اليهود الذين كانوا يعتقدون بضرورةِ الحفاظ على الشّريعة، مع إيمانِهم بالرّبّ يسوع مُخلِّصًا. وفي ذلكَ الحين، يقولُ بولُس، قدِمَ بطرسُ إلى أنطاكية - وعلينا أن نركنَ في هذا إلى شهادة بولُس، ولو انّه لم يرِد في أعمالِ الرُّسل - «فقاومتُهُ مواجهةً، لأنَّهُ كانَ ملومًا، لأنَّهُ قبلَ قدومِ قومٍ من عندِ يعقوب، كان يؤاكلُ الوثنيّين، فلمّا قدِموا، أخذ ينوارى ويتنحّى، خوفًا من أهلِ الختان. فجاراه سائر اليهود في رِيائِه، حتّى أنّ برنابا انقاد هو أيضًا إلى رِيائِهم. فلمّا رأيتُ أنَّهم لا يسيرونَ سيرةً قويمةً كما يقضي حقيقة البشارة، قلتُ لصخر (بطرس) أمامَ جميع الإخوة: إذا كنتَ أنت اليهوديَّ تعيش عيشةَ الوثنيّين، لا عيشة اليهود، فلِمَ تُلزِمُ الوثنيّين أن يسيروا سيرة اليهود؟» (غلاطية ٢؛ ١١-١٤). إذًا، ما من أحدٍ يشكُّ في كونِ بطرُس هو صاحبُ الرأي الذي يُتَّهَم بالإخلالِ به. أمّا سبب الإخلال، فهو الخوفُ من اليهود. فالكتاب يقول بأنَّ بطرس كان يؤاكلُ الوثنيّين؛ فلمّا قدم قومٌ من عندِ يعقوب، توارى وتنحّى، خوفًا من أهلِ الختان. كان يخشى أن يبتعِدَ اليهودُ، وهو رسولُهم، عن الإيمان بيسوع المسيح، بسبب الوثنيّين؛ وعلى مثالِ الرّاعي الصالِح، كان يخافُ أن يخسَرَ قطيعًا ائتُمِنَ عليه.

٩ - بعدَ أن بيّنتُ أنّ بطرس كانَ يُفكّرُ بإبطالِ شريعةِ موسى، وأنَّ الخوفَ هو الّذي قاده إلى التظاهر بحفظِه، لنرَ ما إذا كان بولُس الذي وبَّخَ بطرس، لم يأتِ عملًا مشابِهًا. نقرأ في الكتاب نفسِه أن

www.old-criticism.blogspot.com

بولُس: «طاف في سورية وكيليكية، يُثبِّتُ الكنائس» (أعمال ١٥؛ ٤١) «وقدِم دربة ثمّ لُسترة، وإذا بتلميذٍ هناك اسمُه طيموتاوُس، ابنَ يهوديَّةٍ مؤمنة، وأبٍ وثنيّ؛ وكان الإخوة في لُسترة وإيقونية يشهدون له شهادةً حسنة؛ فرغب بولُس في أن يمضيَ معه، فذهب به وختنَهُ من أجلِ اليهود الذين كانوا في تلك الأماكن» (أعمال ١٦؛ ١-٣).

فيا أيها الرّسولُ المغبوط، بولُس، تعيبُ على بطرس تظاهُرَه بالإبتعادِ عن الأمم، لخوفِهِ من اليهود الذين قدموا من عند يعقوب، فلماذا تطلبُ، بخلافِ رأيك، الختانَ لطيموتاوس، الوثني وابنِ الوثني- لأنّهُ لم يصِر يهوديًّا إلّا في الختان -؟ فتُجيبُني أنَّ ذلكَ بسبب اليهود الذين في تلكَ الأمكنة. أنت الذي تغفرُ لنفسِكَ ختانَ تلميذٍ وثنيّ، ألا فاغفر لبطرُس، الأكبرَ منك، لكونِهِ فعلَ ما فعلَه خوفًا من اليهودِ الذين آمنوا بالمسيح. وكُتِبَ أيضًا: «ومكثَ بولُس هناكَ بضعة أيّام، ثمَّ ودَّعَ الإخوة، وأبحر إلى سورية، ومعهُ بِرِسقِلّة وأقيلا، بعدَ أن حلقَ رأسه في قَنخَرِيّة، لنذرٍ كان عليه» (أعمال ١٨؛ ١٨). ولنُسلِّمْ بأنَّهُ أرغِمَ على فعلِ ما لا يُريده، خوفًا من اليهود، فلماذا، هنا، تركَ شعرهُ ينمو، لنذرٍ كان عليه، ولماذا حلقَهُ في قَنخَريّة بحسبِ الشريعة المفروضةِ على النُّسّاكِ المكرَّسين لله؟ (عدد ٦؛ ١٨).

١٠ً - ولكن، ليسَ هذا سوى بالشّيء اليسير قياسًا إلى ما سَيَلي. يقولُ لوقا، صاحبُ السّيرةِ المُقدّسة: «ولمّا وصلنا إلى أورشليم، رحّب بنا الإخوة فرحين» (أعمال ٢١؛ ١٧). وفي الغد، إذ وافقَ يعقوبُ والشيوخُ الذينَ معه على كرازةِ بولُس، قالوا له: «ترى، أيّها الأخ كم ربوةٍ من اليهود آمنوا بيسوع المسيح، وكلُّهم ذوو غيرةٍ على النّاموس. وقد بلغهُم ما يُشاعُ عنكَ من أنّكَ تُعلّم

www.old-criticism.blogspot.com

جميع اليهود المنتشرين بين الوثنيّين أن يرتدّوا عن موسى، وتوصيهِم بألّا يختِنوا بنيهِم، وألّا يَجْرُوا على عوائدِهم. فما العمل؟ لا شكّ في أنّهم سيسمعون بقدومِك؛ فاعمل بما نقولُه لك. فينا أربعة رجال عليهِم نذرٌ؛ فسِرْ بِهِم واطَّهِرْ معهم، وأنفِق عليهِم ليحلقوا رؤوسَهُم، فيعرفَ جميعُ الناس أنَّ ما يُشاعُ عنكَ افتراءٌ، في حين أنّك سالكٌ سَلَهم في الحفاظ على الناموس» (أعمال ٢١؛ ٢٠-٢٤) «فسارَ بولُسُ بأولئك الرّجال في غده، فاطَّهرَ معهُم، ودخلَ الهيكل، وأعلن الموعد الذي تنقضي فيه أيّام الإطّهار، لكي يُقرَّبَ القربانُ عن كلٍّ منهُم» (أعمال ٢١؛ ٢٦).

١١ً - رأينا أنَّ بطرس وبولُس، على السّواء، تظاهرا بالحفاظِ على أحكامِ النّاموس، خوفًا من اليهود. فبأيِّ جبينٍ، وبأي جسارة يوبّخُ بولُس سواه، على ما فعلَهُ هو نفسُه؟ لقد بيّنتُ، أو بالأحرى بيَّن آخرونَ قبلي، ما عساها تكون حجّتُه. وهؤلاء جميعُهُم لم يُدافعوا عن كذبةٍ بيضاء، كما تدّعي، بل كانوا يعلّمونَ سلوكًا حكيمًا؛ كانوا يريدون أن يُسلِّطوا الضّوءَ على فطنة الرّسل ويدحضوا قِحةَ بورفيرُس الشّتّام الذي يقولُ بأنَّ بطرُس وبولُس تقاتلا قتالَ أطفال، وأنَّ بولُس كان يغارُ من فضيلةِ بطرس، ويتباهى بما لم يفعلْهُ، أو إن كانَ فعلَه، فما كان يرى فيه إلّا فرصةً لتوبيخِ سواه، بقِحة، على عيبٍ أتاهُ هو نفسُه. لقد فسَّرَ هؤلاء المعلّمونَ سلوكَ الرّسولَين وسعَ طاقتِهِم؛ وأنت، فكيفَ تُفسّرُه؟ لعلَّ لديكَ تفسيرًا أفضل، من حيثُ أنَّكَ تدينُ، في هذا، رأيَ الأقدمين.

١٢ً - تكتُب إليّ في رسالتِك: «لستُ أنا من يُعلّمك كيفَ ينبغي أن يُفهَم كلامُ الرّسولِ نفسِه: صرتُ لليهودِ كاليهوديّ لأربحَ اليهود (١ قور ٩؛ ٢٠)، وسوى ذلك ممّا هو من قبيلِ الورع

www.old-criticism.blogspot.com

والتقوى والدِعة، لا من قبيلِ النفاقِ والخداع. وبهذا المعنى، فإنَّ من يخدمُ مريضًا، يتمارَض مثلَه، بشكلٍ من الأشكال؛ لا يدّعي أنَّهُ محمومٌ مثلَه، ولكنَّهُ يُفكِّرُ، بعطف، بالطريقةِ التي يريدُ أن يُخدَم هو بها لو كانَ محلَّه. كان بولسُ يهوديًّا؛ فلمّا صارَ مسيحيًّا، لم يتخلَّ عن المقدَّسات التي اقتبلَها الشَّعبُ اليهوديّ، في وقتٍ كان بحاجةٍ إليها؛ وهو رعاها حتّى بعدَ أن غدا رسولًا للمسيح، لكي يُبيِّنَ أنَّ بوسعِ الذين تلقَّوها من آبائِهم، أن يُمارسوها من غيرِ ضير، حتّى وهم على إيمانِهِم بالمسيح، شرطَ ألّا يضعوا فيها رجاءَ الخلاص؛ لأنَّ الخلاصَ الذي كانت تمثِّلُه المقدّسات القديمة، تحقَّقَ بمجيءِ الرّبِّ يسوع» (الرسالة ٣؛ ٤).

إنّ هذا الخطابَ الطويل في نقاشٍ مستفيض، يعني أن بطرُس لم يضلَّ حينَ فكَّر بأنّهُ كانَ على اليهود الذين آمنوا بالمسيح، أن يحفظوا النّاموس، غيرَ أنَّهُ ابتعدَ عن الخطِّ الصحيح عندما أرغَم الأممَ على التهوُّد؛ وإن لم يكن أرغمَهم بسلطان تعليمِه، فعلى الأقلّ، أرغمهُم بقوَّةِ مَثَلِه. ولم يقلْ بولُس أيَّ شيءٍ مخالِف، لِما فعلَه، لأنّهُ اكتفى بأن لامَ بطرُس على إرغامِهِ الوثنيّين على التهوّد.

١٣ - جوهرُ المسألة، أو بالأحرى جوهرُ فكرتِك، هو أنَّ اليهودَ، بعدَ أن اعتنقوا إنجيلَ المسيح، يُحسنون صنعًا إن هم رَعَوا أحكام الشَّريعة، أي إذا قدَّموا الذبائح، مثلَما قدَّم بولُس، أو ختنوا أبناءَهم كما ختن بولسُ طيموتاوُس، أو رَعَوْا السبتَ كما يرعاهُ جميعُ اليهود. فإذا كانَ هذا صحيحًا، وقعنا في هرطقة قيرنتُس وأبيون، اللذين آمنا بيسوعَ المسيح، ولكنّهُما حُرما من الأساقفة فقط، لأنّهما يمزجان إنجيل يسوع المسيح بأعمالِ الناموس: يُمارسان الطقوسَ الجديدة، ويرعَيان القديمة. ماذا أقولُ عن

www.old-criticism.blogspot.com

الأبيونيّين الذين يتظاهرونَ بالمسيحيَّة؟ ثمّةَ الآنَ بينَ اليهود وفي سائر مجامع الشرق هرطقة، هي هرطقةُ «المعينيّين» (لعلّهم الصابئون) الذين يدينُهم الفرّيسيّون ويدعونَهم، عادةً، نصارى؛ إنَّ هؤلاء الهراطقة يؤمنون بيسوع المسيح ابنًا لله مولودًا من مريم العذراء، ويقولون إنَّهُ هو ذاكَ الذي تألَّم على عهدِ بيلاطس، وقام، وهو الذي نحنُ به مؤمنون؛ لكنَّهم إذ يُريدونَ أن يكونوا في آنٍ معًا يهودًا ومسيحيّين، فلا هم يهودٌ ولا مسيحيّون. أسألُكَ، إذًا، أنتَ الذي تظنُّ أنَّ من واجبِكَ تضميدَ الجرحِ الطّفيف الذي تتّهمني بأنّني تسبَّبتُ لك به، والذي لا يتعدّى كونَه وخزَ إبرة، كما يُقال، أسألُكَ أن تفكِّرَ بالجرحِ الذي تسبّبتَ لي به أنت، بالحربة، وبكلِّ ما في الرُّمحِ من طعن. إنَّ عرضَ مختلَف آراء الأقدمين في تفسير الكتاب، ليسَ بالجريمة، قياسًا إلى العودة إلى إدخالِ هرطقةٍ جديدة خبيثة إلى قلبِ الكنيسة. إذا كنّا مرغمين على قبول اليهود مع طقوسِهم الدينيَّة وإذا كان ينبغي أن نسمحَ لهم بأن يُمارسوا في كنائس المسيح ما كانوا يُمارسونَه في مجامع الشّيطان، فسأرفع صوتي عاليًا وأقول: ليسوا هم من سيُصبحونَ مسيحيّين، بل نحنُ من سنُصبح يهودًا.

١٤ً - أيَّ مسيحيٍّ سيكون بوسعِهِ أن يصبرَ على سماع هذا المقطع من رسالتك: «كان بولسُ يهوديًّا؛ فلمّا صارَ مسيحيًّا، لم يتخلَّ عن المقدَّسات التي أعطيَت إلى الشَّعبِ اليهوديّ، في وقتٍ كان بحاجةٍ إليها؛ ورعاها حتّى بعدَ أن غدا رسولًا للمسيح، لكي يُبيِّنَ أنَّ بوسعِ الذين تلقَّوها من آبائِهم، أن يُمارسوها من غيرِ ضير»؟ (الرسالة ٣؛ ٤). أتوسَّلُ إليكَ مجدّدًا: أصغِ إلى تعبيرِ ألمي. إنَّ بولس الذي صارَ رسولًا للمسيح استمرَّ يرعى شعائر اليهود، وأنت تقول إنّه لم يكن فيها ضيرٌ للّذين كانوا يُريدونَ أن يرعَوها كما تلقَّوها

www.old-criticism.blogspot.com

من آبائِهم. أمّا أنا فأقولُ العكس، وأؤكِّدُ بكلامي الحرّ، في وجهِ العالم بأسرِه، أنَّ في شعائرِ اليهودِ ضررًا وهلاكًا للمسيحيّين، وأنَّ كلَّ مسيحيٍّ يُمارسُها، يهوديًّا كان في الأصلِ أم وثنيًّا، وقع حتمًا في لجَّةِ الشّيطان «لأنَّ المسيحَ هو غايةُ الشَّريعة، لكي يُبرِّرَ كلَّ مؤمن» (رومة١٠؛ ٤)، يهوديًّا كانَ أم وثنيًّا. ولن يكون المسيحُ غايةَ الشَّريعة لكي يُبرِّرَ كلَّ مؤمن، إذا كان اليهوديُّ مستثنى. ونقرأُ في الإنجيل «أنَّ الناموسَ والأنبياء، إلى يوحنّا» (متّى ١١؛ ١٣) وفي مكانٍ آخر: «فاشتدّ سعي اليهودُ لقتلِه، لأنّه لم يقتصِر على استباحة حرمة السّبت، بل قال أيضًا إنَّ الله أبوه، فساوى نفسَه بالله». (يوحنّا ٥؛ ١٨)؛ وأيضًا: «فمن ملئِه، نلنا بأجمعِنا نعمةً مكان نعمة، لأنَّ الشريعة أعطيَت بموسى، وأمّا النعمةُ والحقّ فبيسوعَ حصلا». (يوحنّا ١؛ ١٦-١٧). فمكانَ نعمةِ الناموس الذي انقضى، نلنا نعمةَ الإنجيل الدّائمة؛ وحصلنا على الحقّ بيسوع المسيح، بدلًا من ظلالِ العهد القديم ورموزِه. وبالمعنى نفسِه، يتنبّأُ إرميا على لسان الرّبَ فيقول: «ها إنّها تأتي أيّامٌ، يقولُ الرّبّ، أقطعُ فيها مع آلِ إسرائيلَ وآلِ يهوذا عهدًا جديدًا، لا كالعهد الذي قطعتُهُ مع آبائِهم يومَ أخذتُ بأيديهِم لأُخرِجَهم من مصر» (إرميا ٣١؛ ٣١-٣٢). لاحِظْ ما يقولُه: إنَّه لا يعِدُ الأمم بالعهدِ الجديد، فهؤلاء لم يتلقَّوْا بعدُ أيَّ عهد؛ بل وعدَ اليهودَ الذين سبقَ أن أعطاهُم اللهُ عهدًا بموسى؛ وذلك من أجلِ ألّا يبقَوْا عائشينَ في قِدَمِ الحرف، بل في جِدَّة الرّوح. إنّ بولُس، موضوعَ جدالِنا، غالبًا ما يكرزُ بهذا التعليم. وأختصر فأقصر كلامي على بعضِ النصوص: «ها أنا بولُس أقولُ لكم إنّكم إذا اختتنتُم، فلن يفيدَكم المسيحُ شيئًا» (غلاطية ٥؛ ٢). وأيضًا: «انقطعتُم عن المسيح، أنتم الذين

www.old-criticism.blogspot.com

تلتمسون بِرَّكم من الشريعة، فسقطتُم من النعمة». (غلاطية ٥؛ ٤)، وبعدَها: «فإذا كان الروح بقودُكم، فلستُم بعدُ في حكم الشريعة». (غلاطية ٥؛ ١٨). من هنا نرى أنَّ من كانَ في حكم الشريعة، لا من قبيلِ الإيثار، كما اعتقدَ الأقدمون، بل عن يقينٍ راسخ، كما تعتقِد، فقد خلا من الرّوح القدس. والحال، فلنتعلَّمْ من الله ما هي أحكامُ الشريعة؛ يقولُ الرَّبّ: «فأعطيتُهُم رسومًا غيرَ صالِحة، وأحكامًا لا يحيَوْنَ بها» (حزقيال ٢٠؛ ٢٥). لا نقولُ هذا لكي ندينَ شريعةً روحيّةً مقدَّسة (رومة ٧؛ ١٢، ١٤)، كما فعلَ ماني ومرقِيون، بل لكي لا نعيشَ بعدُ تحت المربّي، بل تحتَ الوارث السّيِّدِ الرّاشد، لأنّ الإيمان وصلنا في ملءِ الأزمة حينَ «أرسلَ اللهُ ابنَهُ الوحيدَ مولودًا من امرأةٍ، مولودًا في حكم الشريعة، ليفتدي الذين هم في حكم الشريعة، فنحظى بالتبنّي» (غلاطية ٤؛ ٤).

٥أ - ثمَّ نقرأ في رسالتك أنَّ بولُس «لم يَلُم القدّيس بطرُس لكونِهِ رعى تقاليدَ آبائِه؛ وكانَ بوسع بطرُس أن يفعلَ ذلكَ، لو شاء، بحقٍّ، ومن غيرِ نفاق ولا تستّر» (الرسالة ٣؛ ٥). أعودُ فأقولُ لكَ، مرَّةً بعدُ، ما دمتَ أسقفًا ومعلِّمَ كنائس المسيح، فعليكَ أن تأتي بالبرهانِ على ما تؤكِّدُه. هاتِ أيَّ يهوديٍّ صارَ مسيحيًّا، وليختنْ مولودَه، وليَرعَ السَّبت، وليمتنِع عن اللّحوم التي خلقَها اللهُ لتؤكَلَ بالشُّكر، وليذبحْ حَمَلًا مساءَ اليوم الرابع عشر من الشَّهرِ الأوَّل؛ وعندما تفعلُ هذا، ولا أظنُّكَ فاعلَه - لأنّي أعرفُك مسيحيًّا عاجزًا عن اقترافِ عملٍ آثم - عندَها، شئتَ أم أبيت، ستدينُ رأيَك، وتُدركُ بأنَّ إعطاءَ البرهانِ على رأيِك، أصعبُ من انتقادِ رأي الآخرين. وربّما خوفًا من ألّا أصدِّقَك، أو ألّا أفهمَ ما تقول - لأنَّ الخطابَ الطويلَ ينقصُه الوضوح، ومتى لم نفهم، لا نعثُرُ على ما

www.old-criticism.blogspot.com

يُعاب - فإنّكَ تُصرُّ وتؤكّد على أنَّ بولُس كان تخلّى عمّا هو سيّءٌ عندَ اليهود. فما هو السيّءُ الذي اطَّرَحه بولُس؟ ألأنّهُ يقول: «جهلوا بِرَّ الله وسعَوْا إلى إقامة بِرَّ أنفسِهِم، فلم يخضعوا لبرِّ الله» (رومة ١٠؛ ٣)؟ ثمَّ إنَّ خطيئتَهم، بعدَ آلام المسيح وقيامتِه، وبعدَ سرِّ النعمة الذي أعطيَ وتجلّى على حسبِ رتبةِ ملكيصادق، كانت في أنَّهم استمرّوا على إيمانِهِم بوجوبِ ممارسةِ الشَّعائر القديمة كضرورةٍ للخلاص، لا كمجرَّدِ مواصلةٍ لتقليد؛ غيرَ أنّه، لو لم تكن تلكَ الشّعائر، يومًا، ضرورةً للخلاص، لكانت شهادة المكابيّينَ، من أجلِها، عبثيَّةً ومن غيرِ ثمر (٢ مكابيّون ٧، ١). وأخيرًا، فإنّ اليهود كانوا يُنكِّلونَ بالمسيحيّين المبشّرينَ بالنعمة باعتبارِهِم أعداءَ الناموس. تلكَ هي الضلالات والأباطيلُ التي يطرَحُها بولُس على أنَّها قذارةٌ وخُسران، من أجلِ أن يربحَ المسيح (فيلبّي ٣؛ ٨).

١٦ً - أخبرتَنا بما اطَّرَحه الرّسول بولُس، ممّا هو سيّءٌ عندَ اليهود؛ فأخبرنا الآنَ ما هو الجيِّد الذي حفظَهُ. تقول: «إنّها أعمال الناموس التي يُمارسُها اليهود، على عادةِ آبائِهِم، كما مارسَها بولس نفسُهُ، من دونِ أن تكونَ ضرورةً للخلاص» (الرّسالة ٣؛ ٦). لستُ أفهم ماذا تعني بهذه الكلمات: «من غيرِ أن تكونَ ضرورةً للخلاص». فإذا كانت لا تؤمِّنُ الخلاص، فلِمَ ممارستُها؟ وإذا كان ينبغي أن تُمارَس، فهذا يعني أنَّها تؤمِّنُ الخلاص، خاصّة وأنَّ تلكَ الممارسة تؤدّي إلى الشهادة. فلو لم تكن تؤمِّنُ الخلاص، لما مورِسَت. وهي ليست أمورًا من غير أهمّيّة، لا تُضرُّ ولا تنفعُ، كما يقولُ الفلاسفة. التقشُّفُ خيرٌ والبذخُ شرّ، أمّا السيرُ والعطسُ والبصقُ فلا هي خيرٌ ولا هي شرّ؛ سواءٌ فعلتَها أو لم تفعلها، لن تُحسَبَ بارًّا أو غيرَ بارّ. غيرَ أنَّهُ لا يسعُكَ ألّا تبالي بأعمالِ

www.old-criticism.blogspot.com

النّاموس؛ فإمّا خيرًا تفعلُ أو شرًّا. أنتَ تقولُ إنَّ ممارستَها خيرٌ وأنا أزعمُ أنَّها شرّ؛ وليست شرًّا فقط للوثنيّين الذين آمنوا، بل لليهودِ أيضًا. وإن لم أكنْ مخطئًا، فإنَّكَ توقِعُ نفسَكَ هنا في خطر لتتفادى خطرًا آخر. وفيما تخشى كُفرَ بورفيرُس، تسقطُ في أشراكِ أبيون، عندما تأمُرُ اليهودَ الذين آمنوا بأن يُحافظوا على الشَّريعة؛ ولمَّا كنتَ تشعُرُ بالخطر ممّا تقولُه، تجهدُ في تلطيفِهِ بكلامٍ باطل حينَ تقول: كان ينبغي أن تُمارَسَ طقوسُ الشَّريعة، بحسبِ تقاليدِ اليهود، من دونِ أن تكونَ ضروريَّةً للخلاص، ومن دونِ التستُّر المُرائي الذي عابهُ بولُس على بطرُس. (الرسالة ٣؛ ٦)

١٧ - تصنَّع بطرس تطبيقَ الشّريعة، أمَّا بولس، لائمُه، فكان يُطبِّقُها بجرأة؛ إذ نقرأ بعدَها في رسالتِك: «إذا كان بولُس مارسَ شعائرَ الناموس لكي يُظهِرَ لليهود بأنّه يهوديٌّ فيربح اليهود، فلماذا لم يُضحِّ مع الوثنيّين، هو الذي عاشَ كأنَّهُ بلا ناموس، مع من هم بلا ناموس، لكي يربحَهُم أيضًا؟ ذاكَ أنَّهُ كان يهوديًّا بالطبيعة، ويقولُ ذلكَ، لا تصنُّعًا بما ليسَ فيه، بل رأفةً باليهودِ وبالوثنيّين، وحبًّا بمساعدتِهِم؛ فبدا، بدافعِ الشَّفقة، وكأنَّهُ يسترسِلُ في ضلالاتِهِم، لا بالحيلةِ والنّفاق، بل بالورع والتقوى والدعة». (الرسالة ٣؛ ٦). إنّكَ تدافع بقوَّةٍ عن بولس بقولِكَ إنّهُ لم يكن يتصنَّعُ مشاركةَ اليهود ضلالاتِهم، بل كانَ حقًّا في الضلال؛ وإنّهُ لم يُرِدْ أن يُقلِّدَ بطرسَ في النفاق لكي يُخفي حقيقتَهُ خوفًا من اليهود، بل ليعلنَ بحرّيَّةٍ أنَّه يهوديّ. يا للرسول الطيّب! ففيما هو يريدُ أن يجعلَ اليهود مسيحيّين، يجعلُ نفسَهُ هو يهوديًّا. لم يكن يستطيعُ أن يُعيدَ المُسرِفينَ إلى الإعتدال، من دونَ أن يصيرَ هو نفسُه مُسرِفًا، ولا أن يُشفقَ على البؤساءِ ويغيثهم، كما تقول، من دون أن يصيرَ هو نفسُه

www.old-criticism.blogspot.com

بائسًا. إنّهم حقًّا بؤساء أولئكَ العبرانيّون، ويستحقّون الشفقة، لأنّهم، بتصلّبِهِم وبحبِّهم للشريعةِ المُبطَلَة، جعلوا من رسولٍ للمسيحِ يهوديًّا! ليس من فارقٍ كبيرٍ بينَ رأيِكَ ورأيي؛ فأنا أقول بأنَّ بطرس وبولُس مارسا أحكام الناموس، أو تظاهرا بممارستها خوفًا من اليهودِ المسيحيّين؛ وأنت تؤكِّد بأنّهما فعلا ذلك لا تستُّرًا ورياءً، بل بدافعِ الورع والتقوى. فما الفارق إذًا، ما دمنا متّفقين على أنّهما تظاهرا على غيرِ حقيقتِهما، سواءٌ بدافعِ الخوف أو بدافعِ الإشفاق. إنَّ الحجَّة التي تقيمُها ضدّي بأنَّ بولُس اضطُرَّ أن يصيرَ للوثنيّين كالوثنيّ، لأنَّهُ كانَ لليهود كاليهوديّ، إنّما هي لصالحي؛ لأنَّه، مثلما لم يكن بولُس حقًّا يهوديًّا، كذلكَ فإنَّه لم يكن حقًّا وثنيًّا ومثلما لم يكن حقًّا وثنيًّا، كذلك فإنَّهُ لم يكن حقًّا يهوديًّا. يُماشي الأمم باقتبالِهِ القُلفَ في إيمانِ المسيح، ويعدُهم بأن يأكلَ، مثلَهُم، اللحومِ المحرَّمة على اليهود، لا أن يعبدَ أصنامَهُم، كما تعتقد. لأنَّه، في المسيح يسوع، لا يقوى الختانُ والقَلَف على شيء (غلاطية ٥؛ ٦/ ٦؛ ١٥)، بل العملُ بوصايا الله هو كلُّ شيء.

١٨ - أسألُكَ، إذًا، وأستحلفُك، أن تُسامحني على هذا النقاش القصير. فإذا لم أكن ما كانَ ينبغي أن أكون، فالحقُّ يقع عليك، أنت الذي أرغمتني على الردّ، وجعلتني أعمى مثلَ ستيزيخورُس. لا تحسبَنّي معلِّمًا للكذب، أنا الذي أسيرُ على خطى المسيح الذي قال: «أنا الطريقُ والحقّ والحياة» (يوحنّا ١٤؛ ٦). ولا يسعُني أنا الغيورَ على الحقّ أن أنحني لنيرِ الكذب. لا تُحرِّض عليَّ جماعةً من الرُّعاع الجهَلَة الذين يُجلّونكَ كأسقف، ويُصغونَ إليكَ في كنيستِكَ بالإعجاب والوقار الذي يليقُ بكهنوتِك؛ إنَّهم لا يعبأون بي، أنا المحدودبَ في آخرِ العمر، الذي لم يعد يرغبُ إلّا

www.old-criticism.blogspot.com

في وحدةِ الديرِ والحقول. إبحث لكَ عن أناسٍ غيري يكونُ بوسعِك أن تُعلِّمَهُم وتوبِّخَهُم؛ فإنَّ بيني وبينكَ بحارًا واسعة وأمداء شاسِعة، حتّى يكادُ صوتُكَ لا يبلغُ مسامعي؛ وإنِ اتَّفقَ أن كتبتَ لي رسالة، فإنّها تصلُ إلى إيطاليا وروما، على أنَّها موجّهةٌ إلى هناك.

١٩ً - تسألني في رسالةٍ ثانية لماذا تحملُ نسختي الأولى في الكتبِ القانونيَّة، نجومًا وخطوطًا، فيما نشرتُ نسختي الجديدة من دونِ أن أضمّنَها تلكَ العلامات؛ اعذرني إذا قلتُ لكَ إنّك لا تُدركُ ماذا تطلب. النسخةُ الأولى هي نقلٌ عن السبعينيَّة، وحيثُما وُجِدَ خطٌّ، عنى أنَّ السبعينيَّة تقولُ أكثرَ من العبريَّة، وحيثُما وُجِدَت نجمةٌ نبَّهَت على ما استعارَه أوريجنّس من ثيودون. في هذه نقلتُ عن اليونانيَّة، وفي تلكَ عن العبريَّة، مُهتمًّا بالمعنى دونَ ترتيبِ الكلمات. أعجبُ لكونِكَ لا تقرأُ السبعينيَّةَ في نصّها الأصليّ، بل كما صحّحها أوريجنّس وشوَّهَها بنجومِه وخطوطِه، وأعجَبُ لكونِكَ لا تتّبع ترجمةً متواضِعة وضعَها مسيحيّ؛ خاصَّةً وأنَّ ما أضافَهُ أوريجنّس، أُخِذَ عن ترجمةٍ نشرها، على أثرِ آلام المسيح، يهوديٌّ مارق. فإن كنتَ حقًّا تُفضِّلُ السبعينيَّة، فاعدُل عن قراءة كلِّ ما أشيرَ إليهِ بنجمة، واشطبهُ من نُسَخِك، وهكذا تُبرهِنُ عن تعلُّقِكَ بالأقدمين. فإن فعلتَ هذا، كنتَ مُرغمًا على إدانةِ جميع مكتبات الكنائس، لأنّنا نكادُ لا نعثرُ إلّا على نسخةٍ أو اثنتين من الكتاب لا تحملانِ إضافاتِ أوريجنّس.

٢٠ً - تقول بأنَّه كان عليَّ ألّا أترجِمَ بعدَ الأقدمين، وتستخدِمُ منطقًا، في القياسِ، جديدًا فتقول: «إمّا أنّ النّصّ الذي نقلَهُ السبعون غامضٌ، وبوسعِكَ أن تُخطئَ مثلَهم، وإمّا أنَّهُ واضح، فلا يكون لَهُم فيه مجالٌ للخطأ». (الرسالة ١؛ ٢). إنَّ كلَّ المعلّمين

www.old-criticism.blogspot.com

الأقدمين الذين سبقونا في الرَّبّ، والذينَ فسَّروا الكتبَ المقدَّسة، كانوا يستندونَ إلى نصوصٍ غامضَة أو إلى نصوصٍ واضحة؛ فإذا كانت غامضة، كيفَ تجرّأتَ وأقدمتَ بعدَهم على شرحِ ما كانَ مغلقًا عليهِم هم أنفسُهم؟ وإذا كانت واضحة، فلم يكن من فائدة في تفسيرِكَ أمورًا لم تخفَ عليهِم، خاصّةً في المزامير التي كانَ لليونانيّين فيها مجلَّداتٌ ومجلَّدات، من أوريجنِّس إلى يوسيبيوس القيصري إلى ثيودورُس الهيرقلاني، إلى أستيريوس السيتوبولي، إلى أبوليناريوس اللاّوُديقي، إلى ديديمُس الإسكندري. كما أنَّ مؤلَّفاتٍ صغيرة وُضعت أيضًا حولَ بعض المزامير المتفرِّقة، ولكنّنا نتكلَّمُ هنا في المزاميرِ بجملتِها. فقد نقلَ هيلاريوس أسقف بواتييه، ويوسيبيوس الفرقيلي، إلى اللاّتينيَّة، شروح أوريجنِّس ويوسيبيوس القيصري. كما أنَّ أمبروسيوس، أسقف ميلانو، اتَّبعَ هيلاريوس في بعضِ النقاط. فلتُجبني حكمتُك: لماذا بعد كلّ أولئكَ الشُّرّاح قلتَ ما يُخالِفُ رأيَهم في شرح المزاميرِ؟ فإذا كانت المزاميرُ غامضة، فيُفتَرَضُ أنَّهُ كانَ بإمكانِك أن تخطأ؛ وإذا كانت واضحة، فيُفتَرَض أنَّهُ لم يكن بوسعِ مثلِ هؤلاء الشّرّاح أن يخطأوا فيها؛ وهكذا، ومهما كان من أمر، فإنَّ شرحكَ يكونُ من غيرِ فائدة؛ وانطلاقًا من هذه القاعدة، لن يتجرّأَ أحدُ، بعدُ، أن يتكلَّمَ بعدَ الأقدمين، والموضوعُ الذي عولِجَ مرَّةً، لا يصحُّ أن يُعالَجَ مرَّةً أخرى. وقد لا يكون بوسعِ عطفِكَ أن يحرِمَ الآخرينَ، هنا، عفوًا سموحًا تمنحُه لنفسِك. أمّا أنا فلم أسعَ إلى إبطالِ النّصوص القديمة بترجمتِها إلى اللاّتينيَّة من أجلِ النّاس الّذينَ لا يعرفونَ غير لغتي؛ أردتُ بالأحرى، أن أعودَ فأثبِّتَ النصوص التي أغفلَها اليهودُ أو شوَّهوها، لكي يعرِف اللاّتينيّون حقيقةَ النّصّ العبريّ. فإذا كان ثمَّةَ

www.old-criticism.blogspot.com

من لا تروقُه قراءتي، فليسَ من يُرغِمُهُ عليها. فليتلذّذ بشربِ الخمرِ العتيقة، وليزدرِ خمرتي الجديدة، أي أعمالي في تفسيرِ النصوص القديمة، وفي توضيحِ ما كان منها غامضًا. أمّا في شأن الطريقةَ الّتي ينبغي اتّباعُها في ترجمة الكتبِ المقدَّسة، فقد فصّلتُها في كتابي بعنوان: «**الطريقة المثلى في الترجمة**»، وفي سائر مقدّماتي القصيرة للكتب المقدَّسة التي ترجمتُها. وأعتقِد بأنَّ عليَّ أن أحيلَ القارئَ اللبيبَ إليها. وإذا كنتَ توافقُني، كما تقول، على ترجمتي للعهد الجديد، لأنَّ كثيرينَ من الذين يُتقنون اليونانيَّة يُمكنُهم أن يُثمّنوا عملي، فينبغي أن تكونَ على الثقةِ نفسِها بخصوصِ ترجمَتي للعهد القديم، وأن تكونَ مطمئنًّا إلى أنّني لم أضِفْ شيئًا من عندي، وأنّي نقلتُ النّصّ المقدّس على ما هو عليهِ في العبريَّة. وإن شككتَ، فعليكَ باليهود.

٢١ - لعلَّكَ تقول: «وما العملُ إذا رفضَ اليهودُ الجواب، أو كذبوا فيه؟» هل يُعقلُ أن تصمتَ جماعةُ اليهودِ كلِّهم، عن ترجمتي؟ ألن يوجَدَ أحدٌ يعرِفُ العبريَّة؟ وهل سيقتدي جميعُ النّاس بأولئكَ اليهود الذين تتكلَّمُ عنهُم، والذين تجمَّعوا في زاويةٍ صغيرةٍ في أفريقيا واتَّفقوا على التجريح بي؟ فهاكَ ما تقصُّه عليّ في إحدى رسائلِك: «واحدٌ من رفاقِنا الأساقفة أمرَ بقراءةِ ترجمتِك في الكنيسة التي يرأسُها؛ وشرع القارئ يتلو النبيّ يونان، وللحال تبيَّنَ في ترجمتِكَ شيءٌ مختلِف عمّا اعتادَ المؤمنون سماعه وترسَّخ في عقولِهِم وقلوبِهم، وكانوا يُردّدونه أجيالًا بعدَ أجيال. وقامت ضجّةٌ كبيرةٌ في الشعب، وخاصةً في اليونانيّين الذين قالوا بالتزوير، ما اضطُرَّ الأسقف (وكانَ أسقفًا على مدينة أُوئِيا Oëa) إلى استفسارِ يهود المدينة بشأنِه. فأجابوا، إمّا جهلًا وإما مكرًا، بأنَّ النّصّين

www.old-criticism.blogspot.com

اليونانيّ واللّاتينيّ كليهِما مُطابقانِ، في هذا الموضِع، للنَّصّ العبرانيّ. وماذا بعدُ؟ وجدَ الأسقف نفسه مضطرًّا إلى تصحيح المقطع كما لو كانَ مغلوطًا، لأنَّهُ لم يُرِدْ بعدَ تلكَ الحادثة الخطيرة أن يبقى بلا شعب. من هنا، بدا لنا أنّكَ ربَّما تكونُ وقعتَ، أحيانًا، في الخطأ». (الرسالة ٦؛ ٥).

٢٢ - تقول بأنّي أخطأتُ في ترجمةِ كلمةٍ ما في نبوءةِ يونان، وأنَّ خطأ كلمةٍ واحدة تسبَّب بهياج الشَّعب، حتَّى كاد الراعي أن يخسرَ قطيعَه. ولكنَّكَ تُخفي عنّي ما تتّهمُني بأنّي أخطأتُ في ترجمتِه، فتحرمني بذلك وسيلةَ الدّفاع عن نفسي، مخافةَ أن يأتي ردّي داحضًا لمزاعمِك. لعلَّ ما تقصِدهُ هنا، هو ما حدثَ منذُ سنوات عندما حشرت **اللبلابةُ** نفسَها في الوسط، فقام كورنيليوس وأسينيوس بولّيون[١٢] ذلكَ العصر يؤكِّدُ بأنّي ترجمتُ **اليقطينَ باللّبلاب**. وقد رددتُ على هذا بإسهاب في شرحي ليونان. أكتفي بأن أقولَ، الآن، إنَّهُ حيثُ وضع السَّبعون كلمة يقطينة، وأكيلا ومترجمون آخرونَ كلمة كيسُّس kissos/κισσος التي تعني اللبلاب، نرى في النّصّ العبرانيّ سيسَيون Ciceion التي يلفظُها السّريان سيسِيا ciceia. والسيسِيا شجيرةٌ أوراقُها شبيهةٌ بأوراقِ الكرمة، وما إن تُزرَع حتّى تُصبحَ شُجيرةً تقفُ على جذعها من غيرِ حاجةٍ إلى ما يسندُها مثلما هي حالُ اليقطين واللبلاب. فلو أنّني نقلتُ الكلمة بحرفيّتها، وكتبتُ **سيسيون**، لما فهمَها أحد؛ ولو قلتُ **يقطينة** لكنتُ أنقلُ ما ليسَ في العبريَّة؛ فوضعتُ كلمة **لبلابة** أسوةً بمترجمينَ آخرين. فإذا

(١٢) أسينيوس بولّيون (٧٦ق.م-٤ب.م) رجل دولة وخطيب ومؤرِّخ وشاعر روماني؛ وكورنيليوس أديب روماني كان صديقًا لشيشرون، لم يتعاطَ السّياسة فعمّر طويلًا.

www.old-criticism.blogspot.com

كان يهودُكَ، بحسبِ روايتِك، يزعمون، عن مكرٍ أو عن جهل، أنَّ النّصّ العبرانيّ مطابقٌ في هذا للنّصّين اليونانيّ واللّاتينيّ، فواضحٌ أنَّهم لا يعرفون العبريَّة، أو أنّه طابَ لهم أن يكذبوا ليسخروا من الذين يُحبّون اليقطين[١٣].

(١٣) يتّضح من وصفِ هيرونيمس للفظة سيسِيا Ciceia السريانيَّة وسيسَيون Ciceion العبرانيَّة بأنَّ الشجيرةَ المقصودة هي الخَرْوَعة، ونقلت على هذا النحو إلى العربيّة.

www.old-criticism.blogspot.com

١٠ - من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

رسالة مقتضَبة ولكنّها مفعمة بروح الصّداقة والمحبّة؛ فيها يعتذر هيرونيمُس عن قلّة اكتراثه بالمسائل التي طرحَها أوغسطينُس (راجع الرّسالة السّابقة)؛ ويتمنّى أن يتسنّى لهما، من الآنَ فصاعدًا أن يتجاوزا المشاحنات، ويعملا كأخوين في حقلِ الكتاب المقدَّس. الرّسالة مؤرّخة في العام ٤٠٥. وتحمل الرقم ٨١ في مجموعة أوغسطينُس و١١٥ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس إلى السّيّد الكلّي القداسة البابا المغبوط أوغسطينُس، سلامٌ في الرّبّ.

طلبتُ بإلحاحٍ إلى الأخ فيرمُس Firmus أن يُتحفَني بأخبارِك، وعلمتُ بفرح أنّكَ بكاملِ الصحّة والعافية. كنتُ أتوقّعُ، لا بل كان لي الحق بأن أتوقّعَ رسائلَك؛ غير أنّهُ أبلغَني أنّه أتى من أفريقيا من دون أن تراه. أبعثُ إليكَ معه بآياتِ احترامي؛ إنّ محبّتَهُ لك لا تُقاس. أسألكَ، في الوقتِ نفسِه أن تُسامحني لكوني لم أتمكّنَ من أن أرفضَ لكَ جوابًا على إلحاحِكَ المتواصل. إنّي خجِلٌ من نفسي. ولكن، لستُ أنا من أجابَك، بل إنّ قضيّتي هي التي ردّت على قضيّتِك. فإن كنتُ أسأتُ إليكَ في ردّي، فاعذرني إن قلتُ لكَ بأنّ خطيئتَك أعظم لكونِكَ تحدّيتني. ولكن، لا شكاوى من هذا القبيل، بعد اليوم. فلتقُمْ بيننا أخوّةٌ خالصة. ولا نتبادلَنّ، بعدَ اليوم

www.old-criticism.blogspot.com

رسائل الجدال، بل فلتكنْ رسائلَ صداقة. يسلّمُ عليكَ بحرارة الإخوة الذين يخدمون الرّبَّ معي. أسألُكَ السّلامَ باحترام على جميع القدّيسين الذين يُعاونونَكَ في حملِ نيرِ المسيح، وخاصّة القدّيس الجليل البابا أليبيوس (الأسقُف). حفظكم المسيحُ الإله القدير بالصحةِ التّامّة. أسألُكم أن تذكروني، أيّها السّيد الكلّيُّ القداسة والبابا المغبوط! إذا كنتَ قرأتَ كتابي في شرحِ نبوءة يونان، فأظنُّكَ أنصفتني في مسألة **البقطينة** المضحكة؛ وإذا كنتُ دفعتُ، بالريشة، الصّديقَ الذي بدأ نتناولني بالسّيف، فإنّ ملامة نزاهتِكَ وعدلِكَ ينبغي أن تقعَ على المعتدي لا على المدافع[١٤]. فلنلعبْ، إذا شئتَ، في ميدان الكتاب، ولكن من دونِ أن يجرحَ أحدُنا الآخر.

(١٤) إشارة إلى الرّسالة رقم ٣ أعلاه.

www.old-criticism.blogspot.com

١١ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

رسالة مُسهبة، يؤكّد فيها أوغسطينُس للمرّة الثالثة، بعد الرسالتين ٥٦ و٦٧ على رأيهِ في نظريّة هيرونيمُس بشأن الخلاف الذي نشأَ بين بطرس وبولس في أنطاكية. وإذ يؤكّد على ذلك، ينفي كلّ نيّةٍ له في التعرّض لمشاعر هيرونيمُس، ويعتذر عن اللّهجة التي صاغ بها رسالتيه السّابقتَين؛ ويعود فيكرّر أنّه لم يكن هو السبب في تأخّرهما بالوصول إليه. الرّسالة مؤرّخة في العام ٤٠٥. وتحمل الرقم٨٢ في مجموعة أوغسطينُس و١١٦ في مجموعة هيرونيمُس.

من أوغسطينُس إلى السيّد المحبوب، المكرَّم في أحشاء المسيح، والأخ القدّيس، الرفيق في الكهنوت، هيرونيمُس، سلامٌ في الرّبّ.

١ - مرَّ زمنٌ طويل منذ أن بعثتُ إلى محبّتك برسالةٍ طويلة ردًّا على تلكَ التي تذكر بأنَّكَ وجهتَها إليَّ بواسطة ابنِك البارّ أستيريوس الذي صار رفيقًا لي، لا أخًا فحسب. لستُ أعرف إلى الآن إذا كانت استحقّت أن تحطَّ بين يديك. إلّا أنّي أستنتِجُ أنّها وصلتكَ عن طريقِ أخينا العزيز **فيرمُس**، من خلالِ المقطع الذي تقولُ فيه إنّكَ «إذا كنتَ دفعتَ، بالريشةِ، الصديقَ الّذي بدأ فتناولنكَ بالسّيف، فإنَّ ملامة نزاهتي وعدلي ينبغي أن تقعَ على المعتدي، لا على المدافع». ذاكَ هو الدليلُ الضعيفُ الوحيد الذي يجعلُني أظنُّ بأنَّكَ

www.old-criticism.blogspot.com

قرأتَ رسالتي. وقد أسفتُ فيها للخصام الأليم الحاصل بينكُما، والذي حلَّ مكانَ صداقةٍ عمَّت تقواها فكانت مصدرَ فرحٍ لكثيرين. لم أفعل ذلك لكي ألومَ أخًا لا أجرؤُ أن أفترِضَ فيه أيَّ خطأ؛ غير أنّني كنتُ أتحسَّرُ على بؤسِ إنسانٍ لبسَ على ثقةٍ، مهما عظمت محبَّتُه، من أن يبقى أمينًا لصداقاتِه. ولكنّي كنتُ أفضِّل أن أسمعَ منكَ إن كنتَ منحتني عفوًا سألتُكَه؛ أودُّ لو تظهِره لي بصورةٍ أوضح؛ على أنَّهُ يبدو لي أنَّكَ سامحتَني، من خلالِ ما رأيتُه من لهجةٍ ودودة منفتِحة طبعت رسالتَك؛ وعلى أيِّ حال، ليسَ لديَّ ما يؤكِّدُ لي ما إذا كنتَ كتبتَها، فعلًا، بعد أن قرأتَ رسالتي.

٢ - إنّكَ تطلُب، بل تأمر بثقةِ المُحِبّ، أن نلعب في ميدانِ الكتاب، من دونِ أن يجرحَ أحدُنا الآخر. من جهتي، فإنّي أفضِّلُ ما هو أكثرُ جدِّيَّةً من اللعب. إذا كنتَ قد ارتأيتَ أن تستعمِلَ هذه الكلمة بهدفِ عملٍ سهل، فإنّي أعترِفُ بأنّي أبتغي من جودِكَ ومن قدراتِكَ ومن حكمتِك أعمالًا جدّيَّةً نديمة، تعوَّدَ عليها فكرٌ ثاقب عرفَ كيفَ يخلقُ لنفسِهِ فسحاتٍ خصبة. لن يكون ذلكَ بالمعرفةِ فحسب، بل بوحيِ الرّوح القدس، من أجلِ أن تُساعِدني، في تلكَ المسائلِ الكبرى الصعبة، لا في الخوضِ، لاعبًا، في ميدانِ الكتاب، بل في تسلُّقِ الجبالِ الّتي تقطعُ الأنفاس. فإذا اعتقدتَ أنَّك تقولُ «**فلنلعَبْ**»، بسبب ما يليق أن يسود نقاشَ الأصدقاءِ من مناخٍ ودّيّ، سواءٌ أكانَ في المسائل الغامضةِ الصعبة أو الجليَّة السهلة، فأرجوكَ أن تخبرَني كيف يسعُنا أن نصلَ إلى غايتنا. لأنّنا إذا كنّا على خلافٍ مع الرّأي الآخر، لنقصٍ في فهمه، أو لعدم التفاتٍ إلى محتواه، وسَعَيْنا إلى إيثارِ رأيٍ آخر مناقض، واسترسلنا في الجرأة، فلا بدَّ من أن نقعَ في هاجس التباهي الصّبياني الّذي

www.old-criticism.blogspot.com

يسعى إلى الشّهرة، عن طريق مهاجمةِ عظماءِ الرّجال؛ وعندما نتبصَّرُ في اختيارِ ألفاظِنا تخفيفًا لحدّةٍ يستحيلُ فصلُها عن التنديد، فلن يُقالَ، بعدُ، بأنّنا نستعملُ سيفًا مدهونًا عسلًا. لستُ أدري أيَّ أسلوبِ نقاشٍ مفيد هذا الّذي تقترحُه، لكي تتجنَّبَ هذا الخطأ المزدوج، أو أن تُزيحَ عنهُ الريبة، إلّا إذا كان يقوم دائمًا على موافقةِ صديقٍ عالِم في مسألةٍ مطروحةٍ للنقاش، ويبقى أدنى اعتراضٍ ممنوعًا، حتّى ولو كان طلبًا للفهمِ والتعلُّم.

٣ – عندها سنكونُ، بالتأكيد، نلهو كمن في ملعب غير ظليل، تحاشيًا لإساءة؛ ولكن، في لعبةٍ كهذه، ألا يُخشى من أن نغدوَ ألعوبةً للآخرين؟ أمّا أنا، فإنّي أعترفُ لمحبّتك أنّي تعلّمتُ ألّا أؤمنَ إيمانًا راسخًا إلّا بعصمةِ واضعي الكتب الّتي تُسمّى قانونيّة؛ هم وَحدَهم محطُّ إكرامي، وإليهم أقدِّمُ الإجلال. حتّى إذا وقعتُ لديهم على ما يبدو مخالفًا للحقيقة، لم أفكّر بمعارضتِهم، بل أعتبرُ أنَّ في النسخةِ عيبًا، أو أنَّ في الترجمةِ خطأً، أو أنّي أسأتُ الفهم. أمّا في ما أقرأه من مؤلّفاتِ سائر الكُتّاب، ومهما بلغوا من قداسةٍ ومعرِفة، فلستُ أحسبُه صحيحًا لمجرّدِ أنّهم اعتقدوه، بل لأنّهم تمكّنوا من إقناعي بأنّهم لم يُجافوا الحقيقة، إمّا بشهادةِ الكتاب المقدّس، وإمّا بحججٍ مقنعة. لا أظنُّكَ، أخي، تخالفُني الرّأي، ولا شكَّ في أنّك لا تسعى إلى أن تُقرأَ كتبُك كما تقرأُ كتبُ الأنبياءِ والرُّسُل، الّتي لا بدَّ من أن يأثمَ كلُّ من يشكُّ في حقيقتِها الكاملة. إنّ هذا أبعدُ ما يكون عن تقواكَ المتواضعة، وعن الفكرةِ الصحيحة الّتي تملكُها عن نفسِك؛ لأنّكَ لو لم تكنْ متواضعًا، لما قلت: «سألتُ الله أن أكون مستحقًّا معانقتَك، وأن نتمكّن في لقاءاتِنا من أن يتعلّمَ واحدُنا من الآخر»!

www.old-criticism.blogspot.com

٤ - أَنظُرُ إلى حياتِكَ وإلى أخلاقك، فلا يسعُني أن أفكِّرَ بأنَّكَ قلتَ هذا كذبًا وتملُّقًا؛ فكم أحرى بي أن أؤمنَ بصدقِ بولُس الرّسول في هذا النصّ حولَ بطرس وبرنابا: «فلمّا رأيتُ أنَّهُم لا يسيرونَ سيرةً قويمة كما تقتضي حقيقة البشارة، قلتُ لصخر (بطرس) أمام الجميع: إذا كنتَ، أنت اليهوديَّ، تعيش عيشة الوثنيّين، لا عيشة اليهود، فلِمَ تُلزِمُ الوثنيّين أن يسيروا سيرة اليهود؟» (غلاطية ٢؛ ١٤). كيفَ لي أن أطمئنَّ ألَّا يخدَعَني رجلٌ، لا في ما يكتب ولا في ما يقول، إذا كانَ الرَّسولُ يخدَعُ بنيه الّذين يلِدُهُم ولادةً جديدة إلى أن يتصوَّرَ المسيحُ فيهِم (أي الحقيقة) (راجع غلاطية ٤؛ ١٩)، هوَ الّذي سبقَ أن قالَ لهم: «وما أكتبُه إليكُم، فالله شاهدٌ، على أنّي لا أكذبُ فيه»؟ (غلاطية ١؛ ٢٠). غيرَ أنَّهُ ما كانَ ليكتُبَ، بكلِّ صدق، ولاستخدَمَ مع بنيه لا أدري أيَّ حجّةٍ كاذبة بقولِهِ إنَّه رأى أنَّ بطرس وبرنابا لا يسيران بمقتضى حقيقة البشارة، وأنَّهُ عارضَ بطرس مواجهةً، فقط لأنَّه كانَ يُلزِمُ الوثنيّين بأن يسيروا سيرة اليهود!

٥ - ولكن، أليسَ من الأفضل أن نعتقدَ بأنَّ الرسول بولُس لم يكتب بكلِّ صدق، من أن نعتقِدَ بأنَّ بطرس أتى عملًا سيّئًا؟ فإذا كان ذلك، فلنقل إذًا - لا سمحَ الله - أنَّهُ خيرٌ أن نعتقدَ أنَّ الإنجيل قد كذب، من أن نعتقِدَ أنَّ بطرس أنكرَ المسيح (متّى ٢٦؛ ٧٥)، وخيرٌ أن نتّهِمَ سفرَ الملوك (صموئيل الثاني) بالكذب، من أن نعلِنَ داود النّبيَّ العظيم الّذي اختارَه الرَّبُّ الإله، مذنبًا لاشتهائِهِ آخر امرأة وانتزاعِها، ولاقترافِهِ، فوقَ جرم الزّنى جريمة قتلِ الزّوجِ المروِّعة. (٢ صموئيل ١١؛ ٣-١٧). أمَّا أنا، المطمئنَّ إلى حقيقة الكتب المقدَّسة الرّاسخة، ذات السلطان السَّماوي الأسمى، فإنّي أقرأُها

www.old-criticism.blogspot.com

بإيمانٍ وثقة؛ وقد تعلَّمتُ أن أؤمنَ بصحّتِها عندما توافق وتؤدِّب وتدين؛ ولا أخشى أن يطالَ اللّومُ أحقَّ النّاسِ بالمديح، على أن أرتابَ في الكلامِ الإلهيِّ نفسِه.

٦ - إذ لم يتمكَّن المانويّون من أن يُحوِّروا معنى كثيرٍ من النّصوص الّتي تدينُ صراحةً ضلالَهم الآثم، زعموا أنَّ تلكَ النّصوص مزوَّرة، من دون أن ينسبوا التزويرَ إلى الرّسل الّذين كتبوا، بل إلى آخرينَ شوَّهوا تلكَ الكتب المقدّسة. غير أنَّهم لم يتمكّنوا، يومًا، من إثباتِ زعمِهم، لا بعددِ النسخِ ولا بقِدَمِها، ولا بالإستنادِ إلى اللّغةِ الّتي نُقلَت عنها الترجمة اللّاتينيَّة. فمكثوا مهزومينَ تحتَ قوةِ الحقيقة الّتي يعرفُها جميعُ النّاس، وانصرفوا يجرّون أذيالَ الخيبة. ألا تعرف حكمتك، أيّ سانحةٍ للنصرِ كانت ستنفتِح أمامَ مكرِهِم، لو أنّنا قلنا إنَّ الرّسُل أنفسَهم زوَّروا الكتاب، لا أنَّ آخرينَ زوَّروا ما كتبَه الرّسُل؟

٧ - تقول بأنّه لا يُصدَّق أن يكونَ بولُس قد عاب على بطرُس ما فعلَهُ هو نفسُه. لستُ أهتمُّ الآنَ بما فعلَ بولُس، بل بما كتب؛ هذا هو الأهمُّ في المسألة، من أجلِ أن تبقى كاملةً، وبمنأىً عن كلِّ شكّ، حقيقةُ الكتب الإلهيّة الّتي أُعطيت لنا لترسيخِ إيمانِنا، لا بأناسٍ عاديّين، بل بالرسل أنفسِهِم الّذين منهم تقلَّدَت القوَّةَ القانونيَّة. لأنَّه لو كانَ بطرُس فعلَ ما وجبَ أن يفعلَهُ، يكون بولس قد كذبَ بقولِه إنّه رأى بطرس لا يسلك باستقامةٍ بمقتضى حقيقة الإنجيل. من يعمل واجبَهُ، حسنًا يعمل. وكذبَ من قالَ بأنَّ فلانًا أساء فعلًا، وهو يعلمُ أنَّهُ فعلَ ما كان يجبُ أن يفعلَه. أمّا إذا كانَ بولُس قد كتبَ الحقيقة، فيبقى صحيحًا أنَّ بطرُس لم يكن سالكًا باستقامة في حقيقة الإنجيل؛ إذًا، كان يفعل ما لا يجبُ عليه فعلُه؛

www.old-criticism.blogspot.com

فإذا كان سبقَ أن فعلَ بولُس أمرًا مماثلًا، أراني أعتقِدُ أنَّهُ، إذ أصلحَ نفسَهُ، لم يكن بوسعِهِ أن يتغاضى عن لوم رفيقِه في الرّسالة، على أن أظنَّ أنَّه كذب في رسالتِه، أو في أيِّ رسالةٍ أخرى، وخاصّةً في تلكَ الّتي تبدأ بهذه الكلمات: «وما أكتبُه إليكُم، فالله شاهدٌ، على أنّي لا أكذبُ فيه»؟ (غلاطية ١؛ ٢٠).

٨ - أمّا أنا فأعتقد أنَّ بطرُس قد تصرَّفَ على هذا النحو، لكي يُلزِمَ الوثنيّين بالتهوُّد؛ لأنّي أقرأ ما كتبَ بولُس ولا أظنُّهُ كذب. وبطرُس لم يعملْ حسنًا؛ والحال، فإنَّهُ خالَف حقيقةَ الإنجيل إذ أوحى للمسيحيّين بأنَّه لا سبيلَ لديهِم للخلاص خارجًا عن شعائر الشريعة القديمة؛ وهذا ما كان يؤمن به، في أنطاكية، اليهودُ الّذين آمنوا بالمسيح؛ وقد حاربَهُم برُلس بكلِّ ما أوتي من ثباتٍ وحيويّة. وإذا كان بولُس قد ختنَ طيموتاوُس (أعمال ١٦؛ ٣)؛ وإذا كان قد وفى نذرًا في قَنخَرِيَّة (أعمال ١٨؛ ١٨)؛ وإذا كان، بتنبيهٍ من يعقوب في أورشليم، قد مارسَ طقوسَ النّاموس مع الّذين يعرِفونَه (أعمال ٢١؛ ٢٦)، فلم يكنْ ذلك لكي يُبرهِنَ أنّ خلاصَ المسيحيّين يتحقَّقُ من خلالِ الشعائر، ولكن من أجلِ ألّا تُعتبَرَ عبادةَ أصنامٍ إقامةُ شعائرَ إلهيَّة متوارثة منذُ القديم وترمزُ إلى المستقبل. وقد ظُنَّ ممّا قالَه بولُس ليعقوب، بأنَّهُ يُعلِّمُ اليهودَ بأن يرتدّوا عن موسى (أعمال ٢١؛ ٢١). والحال، فإنَّهُ لا يجوزُ للّذينَ يؤمنونَ بيسوعَ المسيح أن يرتدّوا عن نبيٍّ ليسوع المسيح، وأن يكرهوا أو يدينوا تعليمَ ذاكَ الّذي قالَ المسيح نفسُه عنهُ: «لو كنتم تؤمنونَ بموسى، لآمنتُم بي، لأنَّهُ كَتَبَ عنّي». (يوحنّا ٥؛ ٤٦)

٩ - إنتبه جيّدًا، أرجوك، إلى كلام يعقوبَ نفسِه: «ترى، أيّها الأخ كم ربوةٍ من اليهود آمنوا بيسوع المسيح، وكلُّهُم ذوو غيرةٍ على

www.old-criticism.blogspot.com

النّاموس. وقد بلغهُم ما يُشاعُ عنكَ من أنّكَ تُعلِّمُ جميع اليهود المنتشرين بين الوثنيّين أن يرتدّوا عن موسى، وتوصيهِم بألّا يختِنوا بنيهِم، وألّا يَجْرُوا على عوائدِهم. فما العمل؟ لا شكّ في أنّهم سيسمعون بقدومِك؛ فاعمل بما نقولُه لك. فينا أربعة رجال عليهِم نذرٌ، فسِرْ بِهِم واطَّهِرْ معهم، وأنفِق عليهِم ليحلقوا رؤوسَهُم، فيعرفَ جميعُ الناس أنَّ ما يُشاعُ عنكَ افتراءٌ، في حين أنّك سالكٌ مثلَهم في الحفاظ على الناموس. فأمّا الّذين آمنوا من بينِ الوثنيّن، فكتبنا إليهِم وحكمنا أن يصونوا أنفُسَهم ممّا ذُبح للأصنام، ومن الدّم والمخنوقِ والزِّنى». (أعمال ٢١؛ ٢٠-٢٥). يبدو لي واضحًا أنَّ يعقوب نصحَ بهذا من أجلِ أن يُكذِّبَ ما سمعَه، عن بولس، اليهودُ الّذين آمنوا بالمسيح، وبقوا على غيرتِهِم على الناموس، لئلّا ينظروا، بسبب تعليم المسيح، إلى الناموسِ الّذي أعطاه موسى لآبائِهم، على أنّه رجسٌ، وأنَّهُ كُتبَ من دونِ أمرِ الله. إنَّ الضجّةَ الّتي أثيرَت حولَ بولس، لم تكن صادرةً عن الّذين كانوا يُدركونَ بأيّ ذهنيَّةٍ صار على اليهود الّذين آمنوا بالمسيح أن يُمارسوا، من الآنَ، الشعائرَ القديمة، أي أن يُكرِّموا سلطتَهم الإلهيّة، ومقدّساتِهِم النبويّة، لا أن ينالوا منها الخلاص الّذي يتجلّى في المسيح، ويُعطى بسرِّ المعموديّة. بل إنَّ تلكَ الضّجة أثارَها الّذين يزعمونَ أنَّ الإنجيلَ لا يكفي للخلاص من دونِ ممارسةِ الشَّعائر القديمة، فكانوا يعرفونَ أنَّ بولُس مُبشِّرٌ بالنعمة بالغُ الحماسة، ومقاومٌ عنيفٌ لأفكارِهِم، يُعلِّمُ أنَّ الإنسانَ لا يُبرَّرُ بأعمالِ النّاموس، بل بنعمةِ يسوع المسيح، الّتي لا يرسُم لها الناموس سوى خطوطٍ من ظلّ؛ إنَّهُ من أجلِ ذلك، اتُّهِمَ بأنَّهُ عدوُّ الشريعةِ ووصايا الله، لكي يُثيروا بوجهِه الحقد والإضطهاد. ولم يكن لبولُس من سبيلٍ لتفادي تلكَ التُّهَم

www.old-criticism.blogspot.com

الباطلة، إلّا بممارسَة ما اتُّهِمَ بإدانتِهِ باعتبارِه رجسًا. بهذا برهنَ أنَّه ما كان ينبغي أن يُمنعَ اليهودُ من شعائرِهم القديمة على أنَّها باطلة، ولا إلزامُ الوثنيّين بممارستِها على أنَّها ضروريَّة.

١٠ً - لأنّه لو كانَ شجبَها، كما يزعمون، ثمَّ عادَ فمارسَها ليخفي حقيقةَ رأيِهِ بعملٍ مموَّه، لما قالَ له يعقوب: «فيعرفَ جميعُ الناس» بل كان قال: «فيظُنَّ جميع الناس أنَّ ما بلغهُم عنكَ افتراء» خاصّةً وأنَّ الرسل كانوا قد أمروا، في أورشليمَ نفسِها، ألَّا يُلزَمَ الوثنيّين بالتهوُّد (أعمال ١٥؛ ١٩)؛ لكن لا أن يُمنعَ اليهودُ من ممارسةِ الطقوس اليهوديّة، ولو انَّ شريعة المسيح لم تعُدْ تُلزِمُهم بها. فإذا كانَ بطرُس، بعدَ هذا الحكم من قِبَلِ الرّسل، قد تملَّقَ اليهودَ في أنطاكية ليُلزِمَ الأممَ بأن يُمارسوا شعائر اليهود - الأمر الّذي لم يكن هو نفسُهُ مُلزمًا بفعلِه، حتّى ولو لم يكن ممنوعًا من نصحِ اليهود باحترام النبوءات الإلهيَّة - أفيجِب أن نَعجَبَ من أن يكونَ بولُس قد ضغط عليه ليُعلِنَ جهارًا أن يتذكّر ما سبق أن أمرَ بهِ هو والرّسل في أورشليم؟

١١ً - أمّا إذا كان بطرُس، وهذا ما أميلُ إلى اعتقاده، قد فعلَ ذلك قبلَ مجمع أورشليم، فليسَ مستهجنًا أن يكون بولس قد أرادَ منهُ ألَّا يُخفيَ بدافعِ الخوف، بل أن يُبديَ بكلِّ صراحة، ما كانَ يعلَم بأنَّهُ رأيُه الحقيقيّ، سواءٌ أكانَ مُطَّلِعًا على ذلكَ من خلال التشاورِ معهُ في الإنجيلِ الّذي يبشّران به كلاهُما، أو لأنَّه علمَ بالوحي الإلهي الّذي تلقّاه حولَ هذه النقطة لدى اهتداء كورنيليوس قائد المئة، أو لأنَّهُ رآه يؤاكِلُ الوثنيّين قبل أن يصلَ، إلى أنطاكية، أولئكَ الّذين كان يخافُهُم؛ إذ أنّنا لا نُنكِر أنَّ بطرس كان في حينه من رأي بولُس. إذًا، لم يكن بولُس يُعلِّمُه الحقيقةَ في هذه المسألة، بل كانَ

www.old-criticism.blogspot.com

يُعيبُ عليهِ تملُّقَه اليهود، الّذي كان من خلالِهِ يُلزِمُ الأمم بالتهوُّد، فقط لأنَّ ذلكَ التملُّق بدا وكأنَّهُ يدعمُ حجّةَ القائلين بأنّ المؤمنين لا خلاص لهم إلّا بالختان، وبسائر الطقوس، رموز الأمور العتيدة.

١٢ً - إذًا، ختن بولُس طيموتاوُس لئلّا يبدو الوثنيّون الّذين آمنوا بيسوع المسيح، في نظر اليهود، وخاصة في نظرِ أقارب طيموتاوس لأمِّهِ، وكأنَّهُم يكرهون الختان كُره اليهود للأوثان؛ فيما الختانُ من الله والأوثانُ من الشّيطان. غير أنَّه لم يختُن طيطس، لئلّا يبدو وكأنَّه يُقيم حجّةً للّذين يقولون بأنَّ لا خلاصَ من دونِ الختان، وللّذين، خداعًا للوثنيّين، يذيعون هذه الفكرة على أنَّها لبولُس. وهذا ما يُفصحُ عنهُ بولُس نفسه بشكلٍ كافٍ في هذه الكلمات: «على أنَّ طيطُس الّذي كان معي، وهو يونانيّ، لم يُلزَم الختان؛ وإلّا لكان ذلك بسبب الإخوة الكذّابين المتطفِّلين الذين اندسّوا بيننا ليتجسّسوا حرّيَتنا الّتي نحنُ عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا، ولم ننقَدْ لهم خاضعين، ولو حينًا، لتبقى لكم حقيقة البشارة». (غلاطية ٢؛ ٣-٥). نرى هنا أنَّ الرّسول كان يُدرِكُ غايةَ أولئكَ الإخوة الكذَبة، ولهذا لم يصنعْ ما صنعه مع طيموتاوس، وما كانت تُبيحُ له صُنعَه تلكَ الحرّيّة الّتي أظهرَ بها أنَّه لا ينبغي طلبُ الشعائر كضرورة، ولا إدانتُها كرِجس.

١٣ً - تقول، ولكن ينبغي أن نحترزَ ألّا نُسلِّمَ، في هذا النقاش، كالفلاسفة، بتلكَ الأعمال البشريَّة الّتي تحتلُّ مكانًا وسطيًّا بين الخير والشّرّ، ولا تكون لا من هذا ولا من ذاك، وتجعلُنا في حَيرةٍ، بالإعتراضِ الّذي تُقيمُه، بأنَّ أعمالَ الناموس لا يسعُها أن تكونَ بينَ بين، فإمّا جيِّدة، أو سيّئة. فإذا كانت جيّدة، ينبغي أن نخضَع لها؛ وإذا كانت سيِّئة، فعلينا أن نُقرَّ بأنَّ سلوكَ الرّسل في هذا

www.old-criticism.blogspot.com

الشّأن لم يكن صادقًا، بل منافق. - أمّا أنا، من جهتي، فلستُ أخشى الدفاعَ عن الرسل بمنطقِ الفلاسفة، عندما يقولُ هؤلاء أمرًا صحيحًا، أكثر ممّا أخشى الدّفاعَ عنهم بمنطقِ المحامين الّذين يسلكونَ، في دفاعِهم، على حسابِ الحقيقة. وإذا أمكنَ أن يبدو مناسبًا أن نستندَ، في ما أوردتَ في عرضِكَ من الرسالة إلى الغلاطيّين، إلى هذه المقاربة الأخيرة لكي نُبرِّرَ نفاقَ بطرس وبولُس، فلماذا أخشى أمامَكَ اسم فلاسفةٍ تعليمُهم باطل، لا لكونِ كلّ ما يقولونَهُ زورًا، بل لأنَّه يحتمِلُ الكثيرَ من الخطأ؛ حتّى ولو وجدوا صحيحًا يقولونَه، يبقَونَ غُرباءَ عن نعمةِ المسيح الّتي هي الحقيقة بعينِها؟

١٤ - ولكن، لِمَ لا أقولُ إنَّ أعمالَ الناموس القديم ليست صالحة، وأنَّها لا تُبرِّر، لأنَّها لا تبدو أكثرَ من رمزٍ للنعمة الّتي تُبرِّر؛ كما أنّها ليست سيّئة من حيثُ أنَّ الله رسَمَها كشعائر ملائمة لزمنٍ ولشعب؟ وأستندُ أيضًا إلى رأيِ النبيّ الّذي بواسطتِه أعلنَ اللهُ أنَّه أعطى شعبَهُ «رسومًا غيرَ صالحة» (حزقيال ٢٠؛ ٢٥). لعلَّه، لهذا لا يُسمّيها رسومًا سيّئة، بل فقط رسومٌ غيرُ صالحة؛ أي أنَّها ليست هي الوسيلة التي يستطيعُ البشرُ أن يصيروا بها صالحين، أو لا يستطيعونَ أن يكونوا صالحينَ من دونِها. أستميحُ عطفَكَ الصّادق أن تُخبرني إذا كان على مؤمن من الشرق ذاهبٍ إلى رومة، أن يتصنَّع صيامَ السّبوت باستثناءِ سبتِ الفصح. أفنقولُ إنَّ صيامَ السبتِ إثم؟ سيكون ذلك، لا إدانةً لكنيسة رومة فحسب، بل لكنائس أخرى كثيرة بعيدة وقريبة، حيثُ التقليدُ نفسُه متَّبعٌ ومستمرّ. أم نزعمُ أن عدم صيامِ السَّبت إثم، ونتجرّأ فندين بذلك عددًا كبيرًا من كنائس الشَّرق والجزءَ الأكبرَ من العالَم المسيحي؟ ألستَ تُفضّل بأن نقيمَ وسطًا ما

www.old-criticism.blogspot.com

يُستحسَنُ حِفظُه، لا بذهنيَّةِ النفاق، بل بذهنيَّة التساهُل والإحترام المتبادَل؟ على أنّهُ ليسَ، في الكتب القانونيّة، شيءٌ من هذا القبيل يوصى به المسيحيّون. ومن بابٍ أولى، لستُ أجرؤ أن أدعو سيّئًا ما يُلزِمُني الإيمان المسيحيُّ نفسُه بالنظرِ إليه كوصيّةٍ إلهيَّة؛ ولو أن الإيمانَ نفسَه يُعلِّمُني أيضًا أن ليسَ هذا قطُّ ما يُبرّرُني، بل هي نعمةُ الله باسم ربّنا يسوع المسيح.

١٥ – أقولُ، إذًا، إنَّ الختانَ والشعائرَ الأخرى المماثلة، أوصت بها المشيئة الإلهيَّة الشّعبَ اليهوديَّ في العهدِ المدعوِّ قديمًا، كرمزٍ نبويّ ينبغي أن يتحقَّقَ في المسيح؛ إنَّ هذه الأمور، منذ أن تحقَّقت، لم تعُدْ للمسيحيّين سوى شهاداتٍ من أجلِ فهمِ النبوءات القديمة؛ وليسَ بعدُ من ضرورةٍ لاتّباعِها، كما لو كنّا ما زلنا ننتظرُ تجلّي الإيمان الّذي تُبشِّرُ هذه الظِّلالُ بتجلّيه. ولكن، على الرّغم من أنَّهُ كان لا ينبغي فرضُها على الوثنيّين، فإنّه لم يكنْ ملائمًا نزعُها من تقاليدِ اليهود، على أنَّها أمورٌ مقيتة مُدانة. كانت ستسقطُ، تدريجيًّا وبهدوء، مع تطوُّرِ الكرازة وتقدّم نعمة المسيح الّتي بها وحدها سيعرفُ المؤمنون أنَّ بوسعِهِم أن يُبرَّروا ويخلُصوا، لا بالظلال النبويَّة الّتي بشَّرت بما هو صائرٌ أمامَنا. كلُّ ذلكَ الماضي الدينيّ كان ينقضي، بدعوةِ اليهود إلى المسيح، وبحلولِ الأزمنةِ الرّسوليَّة. حسبُ ذلكَ الماضي، صونًا لكرامتِه، ألّا يُطرَحَ طرحَ أمرٍ كريه، أو شبيهٍ بالعبادة الوثنيَّة. ولكن، لم يكن ينبغي أن تذهبَ تلكَ الطقوس إلى أبعدَ من ذلك لئلّا يُعتقَدَ بأنَّها ضروريَّة ويُربطَ بها الخلاص، كما ظنَّ الهراطقة الّذين أرادوا أن يكونوا يهودًا ومسيحيّينَ في آنٍ، فلم يكونوا لا مسيحيّين ولا يهودًا. تلطَّفتَ ونبَّهتني بكثيرٍ من العطف بأن أحترزَ من ضلالِهِم؛ ولكنّي لم أشاطرهم يومًا هذا الضّلال. كان

www.old-criticism.blogspot.com

الخوفُ قد أوقعَ بطرُس في هذا الإعتقاد، لا بتبنّيه، بل بالتظاهُر به؛ فكتبَ بولُس بكثيرٍ من الحقّ بأنَّه رآه لا يسيرُ مستقيمًا في حقيقة الإنجيل، ولامه بكثيرٍ من الحقّ لكونِهِ ألزمَ الأمم بالتهوُّد. أمّا بولس، هو، فلم يُرغِم أحدًا؛ كان يرعى الشعائر القديمة، بصدق، عندَ الضّرورة، لكي يُبيِّن أنَّها ليست مُدانة؛ ولكنَّه استمرَّ يُبشِّرُ بأنَّ يسوع المؤمنينَ أن يخلُصوا، لا بها، بل بنعمةِ الإيمانِ المتجلّي، من أجلِ ألّا يدفعَ أحدٌ إليها على أنَّها ممارساتٌ ضروريَّة. ومع إيماني بأنَّ الرّسولَ بولس فعلَ ذلكَ بصدقٍ تامّ، فإنّي أحترزُ اليوم ألّا ألزِمَ يهوديًّا صارَ مسيحيًّا بشيءٍ مماثل أو أن أسمحَ له به. تمامًا مثلما أنت نفسُك الّذي تعتقدُ بأنَّ بولُس تملَّق، لا تفرضُ على أحدٍ مثلَ هذا التملُّق ولا تسمحُ له به.

١٦ - أتريدُني أن أقولَ أيضًا بأنَّ لُبَّ المسألة، أو بالأحرى، رأيك، هو أنَّهُ، بعدَ انجيل المسيح، حسنًا يصنع اليهودُ الّذين صاروا مسيحيّين بتقديمِهِم الذّبائح، مثلما صنع بولُس حسنًا بختانه الأطفال، وبختانِهِ طيموتاوُس، وبحفظِهِ السَّبتَ كما يحفظُهُ اليهود، شرطَ ألّا يفعلوا ذلكَ إلّا من قبيلِ التظاهر؟ إذا كان هذا تعليمُك، فلن نقعَ بعدَها في هرطقةِ أبيون ولا في هرطقةِ أولئكَ الّذين يُسمّونَهُم نصارى، ولا في أي هرطقةٍ أخرى قديمة؛ وسنجدُ أنفُسَنا ساقطين لا أدري في أيِّ هرطقةٍ جديدة، لا بدَّ من أن تكونَ أشدَّ ضررًا إذا كانت صادرةً عن إرادةٍ كاذبة وعن سابقِ تصوُّرٍ وتصميم، منها إذا كانت من صنعِ الضلال. فإن أجبتَ، دفاعًا عن نفسك، بأنَّ الرّسولَين كانا على حقٍّ في تَملّقهما، خوفًا من أن يُشكّكا عددًا كبيرًا من اليهود الضُّعفاء الّذين صاروا مسيحيّين، والّذين لم يُدركوا بعدُ أنَّهُ ينبغي اطِّراحُ تلك الشَّعائر، وأنَّ تملُّقًا من هذا النّوع سيكونُ

www.old-criticism.blogspot.com

جهلًا بعدَ أن ترسَّخت عقيدة النعمة المسيحيَّة وسطَ كثيرٍ من الوثنيّين، ووسطَ جميعِ كنائسِ المسيح، من خلالِ قراءةِ الشَّريعةِ نفسِها والأنبياء، حيثُ نتعلَّم بأيّة طريقة ينبغي أن نفهَمَ تلكَ الوصايا، من دون الحاجةِ إلى العملِ بها. لماذا لا يُسمحُ لي القول بأنَّ الرّسولَ بولس ومسيحيّين آخرين ذوي إيمانٍ طاهر كان عليهِم أن يُكرِّموا تلكَ الشعائر القديمة عن طريق ممارستِها بصدق من أجلِ ألَّا تصبحَ تلكَ الطقوسُ النبويَّةُ المغزى الّتي رعاها الأقدمونَ بورعٍ وتقوى، ممقوتَةً من أبنائِهم وكأنَّها رجسٌ شيطانيّ؟ لا شكَّ في أنَّها، منذ أن ظهرَ الإيمان الّذي كانت تُبشِّرُ به، والّذي تجلّى بعدَ موتِ الرّبّ وقيامتِه، فقدَت قوَّتها كشعائر واجبة؛ وباعتبارِها مثلَ أجسادٍ ميتة، كان من الواجب أن يحملَها أصدقاؤُها إلى القبر، لا تستُّرًا بل بورعٍ وتقوى. لم يكن يليقُ بأن تُهمَلَ للحالِ تلكَ البقايا، وتُلقى إلى حسدِ الأعداءِ ينهشونَها كالكلاب. إنّ كلَّ مسيحيٍّ، اليوم، ولو وُلِدَ يهوديًّا، يُريدُ أن يرعى تلكَ الشعائر، لا بدَّ أن يُقلِقَ رُفاتًا راقدة. إنَّهُ لا يحملُ الميت، ولا يواكبُهُ بورعٍ إلى مثواه، بل يُدنِّسُ قبره.

١٧ - على أنّي أعترف أنّي في المكانِ الّذي قلتُ لكَ فيه في رسالتي بأنَّ بولُس، بعدَ أن صارَ رسولًا للمسيح، قد مارسَ شعائرَ اليهود، من أجلِ أن يبيِّنَ أنَّه ليسَ فيها من ضررٍ للّذين يرغبونَ في ممارستِها في روحيَّة العهد القديم؛ كانَ عليَّ أن أجعلَ حدودَ ممارستِها الممكنة عندَ بدء تجلّي النعمةِ المسيحيَّة، لأنَّهُ في تلكَ الأزمنةِ الإيمانيّة الأولى، لم يكن في ممارستِها ضرر. وبعدَها كان على المسيحيّين أن يتخلَّوْا عن تلكَ الشعائر، بصورةٍ تدريجيَّة؛ فلو انَّ هذا التخلّي تمَّ بصورةٍ فوريَّة، لكنّا في خوفٍ من ألَّا يُفرَّقَ بين شريعة الله الّتي أعطاها الله إلى شعبِه بموسى، وبينَ طقوسِ الرّوحِ

www.old-criticism.blogspot.com

الشّرّير في هياكلِ الأبالِسة. أحرى بي أن ألومَ نفسي لأنّي أهملتُ هذه الفكرة الإضافيَّة، من أن أشكو لومكَ لي في هذا الموضوع. غيرَ أنّي سأقولُ لكَ، بأنّي قبلَ أن أتلقّى رسالتَكَ بوقتٍ طويل، كنتُ قد قاربتُ تلكَ المسألة في مؤلَّفٍ ضدَّ فاوست Faust المانويّ، ولم أنسَ هذا التحفّظ. بوسعِك أن تتلطَّفَ وتقرأهُ إن شئت، كما أنَّ إخوتي الّذين يحملونَ إليكَ هذ المؤلَّف سيُبيّنونَ لكَ أنّه سبقَ أن أوردت، منذُ مدّة، هذا التحفُّظ على ما كنتُ قد أكّدتُه بوجهٍ عامَ. وها إنّي أستحلِفُكَ، بحقّ المحبَّة، أن تُصدِّقَ ما أؤكِّدُه لكَ من صميمِ قلبي، وأمامَ الله، وهو أنّه لم يخطر في بالي أنّنا نستطيع، اليومَ، أن نوصي أو نسمح بأن يُمارسَ يهودٌ صاروا مسيحيّين تلكَ الشعائر القديمة، لأيِّ حجّةٍ أو أي ذريعةٍ كانت، ولو انَّ رأيي في بولُس لم يتغيَّرْ منذُ أن صارت رسائلُه معروفةً لديَّ. كما أنَّه لا يبدو لكَ، ولا أنت أيضًا، أنَّ أحدًا بوسعِهِ اليومَ أن يمتلِكَ الحقَّ بممارسة النفاق الّذي تظنُّ بأنَّ الرّسولَين قد مارساه.

١٨ً – تقول، وتؤكِّدُ على رأيِكَ بوجه العالم بأسره، على حدّ تعبيرك، بأنَّ شعائر اليهود مضرَّةٌ وقاتلةٌ للمسيحيّين، وأنَّ كلَّ من مارَسَها، يهوديًّا كانَ أم وثنيًّا، سقط في لجّة الشّيطان. إنّي أؤيّدُ هذا الرّأي وأدعمَه، وأضيف: كلُّ من مارسَ هذه الشّعائر، يهوديًّا كان أم وثنيًّا، لا بصدقٍ فقط، بل برياء، سقط في لجّةِ الشّيطان. ماذا تريدُ أكثر؟ كما أنَّ تملّقَ الرّسولين ليس، بنظرِكَ، مُبرِّرًا يصلُحُ في أيّامنا، كذلك فإنّ صدقَ بولُس في ممارسة طقوسِ الشّريعة لا يُبيحُ، بنظري، ممارستَها اليوم. إنَّ ما كان بالأمسِ مقبولًا بات اليومَ مرذولًا. نقرأ: «بقي الناموسُ والأنبياءُ إلى يوحنّا» (لوقا ١٦: ١٦). كان اليهود يطلبونَ موتَ المسيح، «لأنَّهُ لم يقتصِر على استباحة

www.old-criticism.blogspot.com

حرمة السَّبت، بل قال إنَّ الله أبوه، فساوى نفسَهُ بالله» (يوحنّا ٥؛ ١٨)؛ و«من ملئه نلنا نعمةً مكانَ نعمة، لأنَّ النّاموسَ أُعطِيَ بموسى، وأمّا النعمة والحقُّ فبيسوع المسيح حصلا». (يوحنّا ١؛ ١٦). على الرّغم من هذه النصوص الإنجيليَّة، وعلى الرّغم من أنَّ إرميا بشَّرَ بأنَّ الله سيقطع مع آل إسرائيلَ وآلِ يهوذا عهدًا جديدًا، لا كالعهد الّذي قطعهُ مع آبائِهِم (إرميا ٣١؛ ٣١-٣٢)، فلستُ أصدِّقُ أنَّ أبوي الرّبِ نفسِه قد ختناهُ رياءً. رُبَّ قائلٍ بأنَّ الرَّبّ لم يكن ليمنعَهُ في مثلِ عمرِه، ولكنّي لا أصدِّقُ بأن يكونَ قد كذبَ على الأبرص فأوهمَهُ بأنَّهُ شفي بقوَّتِهِ الشّخصيَّة لا بقوّة ناموسِ موسى: «إمضِ فأرِ الكاهنَ نفسَك، وقدِّم عن طُهرِكَ ما أمرَ به موسى، شهادةً لهم». (مرقس ١؛ ٤٤). ولم يصعد إلى أورشليمَ، رياءً، في يومِ عيد؛ كما أنَّهُ لم يصعد لكي يراه النّاس، فذهبَ سرًّا.

١٩ً - قالَ الرّسولُ نفسُه: «ها أنا بولُس أقولُ لكم إنّكم إن اختَتَنتُم، فالمسيحُ لا ينفعُكُم شيئًا» (غلاطية ٥؛ ٢). إذًا، فإنَّ بولُس خدع طيموتاوُس وكانَ سببًا في ألّا ينفعَه المسيح بشيء. أنردُّ بأنَّ الختان، إذ لم يكن سوى خداع، لم يكن ليُضرّ؟ ما تلكَ كلماتُ الرّسول؛ فهو لم يقل: إن اختتنتُم صادقين لا مرائين، بل قالَ بصورةٍ مُطلقة: «إن اختَتَنتُم، فالمسيحُ لا ينفعُكُم شيئًا». إنّكَ تريدُ، أنتَ، دعمًا لرأيِكَ، أن يُفهَمَ ضِمنًا هذا الكلام: «إن اختتنتُم رياءً»؛ أمّا أنا فأسألُكَ أن تسمحَ لنا بأن نفهمَ بأنَّ عبارة: «إن اختتنتُم» موجَّهة إلى الّذينَ كانوا يريدون أن يختتِنوا، لأنَّهم كانوا يؤمنونَ بأنّه لا خلاصَ لهم في المسيح، إلّا بالختان. فالمسيحُ لم يكن، إذًا، ينفعُ شيئًا كلَّ من اختتَنَ بهذه الرّوحيّة وهذه الرّغبة، وهذه النيَّة؛ والرّسولُ يقولُها بوضوحٍ في مكانٍ آخر: «لأنَّهُ إن كانَ البِرُّ بالناموس، فالمسيحُ إذًا

www.old-criticism.blogspot.com

مات باطلًا». (غلاطية ٢؛ ٢١) والنّصّ الّذي أوردْتَهُ أنت نفسُك يُبيِّنُهُ أيضًا: «لم يعُدْ لكم نصيبٌ في المسيح، أنتم الّذين تدَّعون أنَّكُم بالناموس بُرِّرتُم؛ وقد سقطتُم من النّعمة». (غلاطية ٥؛ ٤). إذًا، فالرّسول يشجب الّذين يعتقدون أنَّهُم بالنّاموس تبرَّروا، لا الّذينَ يُمارسون أعمالَ النّاموس إكرامًا للهِ واضِعِها، وهم يعرفونَ مغزاها النبويّ، وإلى أي زمنٍ تدوم. من هنا هذه الكلمات: «فإن كان الرّوح يقودُكم، فلستُم بعدُ في حكم الشريعة». (غلاطية ٥؛ ١٨). ثمَّ تُلاحظ بأنَّهُ ينتجُ عن ذلك أنَّ من جعلَ نفسَه تحتَ الشريعة، لا بالرّياء الّذي تنسبُه إلى أسلافِنا، بل بصدقٍ تامٍّ كما أفهمُه أنا، فهو خالٍ من الرّوح القدس.

٢٠ - يبدو لي أنَّها مسألةٌ على قدرٍ كبيرٍ من الأهمّيَّة، أن نعرفَ ما معنى أن نكونَ تحتَ النّاموس بالمعنى الّذي يدينُهُ الرّسول. لا أخالُه قالَ هذا عن الختان، أو عن ذبائح اليهود الّتي بطُلت لدى المسيحيّين، أو عن أيِّ أمرٍ آخرَ من هذا القبيل؛ ولكنّي أظنُّ أنَّه قالَه عن وصيَّة الناموس هذه: لا تشتَهِ... (خروج ٢٠؛ ١٧/ تثنية ٥؛ ٢١) الّتي على المسيحيّين، حكمًا، أن يرعَوْها، والّتي يوصي بها الإنجيلُ صراحةً. إنّه يؤكِّدُ بأنَّ «الشّريعة مقدَّسة، والوصيّة مقدّسة وعادلة وصالحة» ثمَّ يُضيف: «فهل صارَ الصّالحُ لي موتًا؟ معاذ الله. إلّا أنّ الخطيئة، لكي تظهَرَ حقًّا خطيئة، أورثتني الموت متذرّعةً بما هو صالحٌ، حتّى أنَّ الخطيئة صارت أعظَم بفعل الوصيَّة» (رومة ٧؛ ١٢-١٣). وما يقولُه الرَّسولُ عن الخطيئة الّتي صارت أعظَمَ بالناموس، يقولُهُ في مكانٍ آخر بهذه الكلمات: «وإنّما جاءت الشريعة لتكثُرَ الذلّة؛ ولكن حيثُ كثرت الخطيئة، فاضت النعمة». (رومة ٥؛ ٢٠). وفي مكانٍ آخر، وبعدَ أن تكلّم عن موهبةِ النعمة

www.old-criticism.blogspot.com

الّتي تُبرِّر، يتساءلُ: «فما شأن الشريعة؟» ويُجيب: «إنّما أُضيفَت بسبب المعاصي، إلى أن يأتي النسل الّذي جُعِلَ له الموعِد» (غلاطية ٣؛ ١٩). إذًا، فإنَّه يدينُ الّذين يعتقدون بأنَّهُم بالنّاموسِ يُبرَّرون، من حيثُ أنَّهُم لا يُتِمّونَ النّاموس، ما داموا لا يفهمونَ برَّ النّعمة ليسلكوا في وصايا الله، مُتّكلينَ، بصَلَفٍ، على قواهُم الذّاتيّة. ذاكَ «أنَّ المحبَّة هي كمال الشريعة» (رومة ١٣؛ ١٠)، «فمحبَّةُ اللهِ أفيضت في قلوبنا بالرّوح القدُس الّذي وُهبَ لنا» (رومة ٥؛ ٥)، لا بنا نحنُ. إنّ معالجةَ هذه المسألة تتطلَّبُ وحدَها، مجلَّدًا كاملًا. فإذا كانت وصيَّةُ الشريعة: «لا تشتَهِ»، تجعلُ آثمًا الإنسانَ الّذي لا تعينُ ضَعفَه البشريَّ نعمةُ الله، وتدينُ العاصي عوضًا عن أن تُبرِّرَ الخاطئ؛ فمن باب أولى ألّا يتبرَّرَ أحدٌ بالوصايا الرّمزيَّة، كالختان وسواهُ من الأعمال المحكومةِ بالإبطال الحتميّ بتجلّي النعمة. على أنّه لم يكن طرحُها ضروريًّا على أنَّها رجسٌ وثنيٌّ شيطانيّ، ولو انَّ النعمة الّتي سبقَ أن تنبّأت بها بدأت تتجلّى، بل كان ينبغي السَّماحُ بممارستِها لفترةٍ، خاصّةً للّذينَ آمنوا من ذلكَ الشَعب الّذي أعطيَت له. إذًا لكانت دُفِنت بالإكرام، ولطرَحَها المسيحيّون إلى الأبد.

٢١ً - قل لي، أرجوكَ، ماذا تقصدُ بهذه الكلمات: «لا من قبيلِ التحايُل، كما اعتقدَ أسلافُنا»؟ فإمّا أنَّهُ ما أسمّيه كذبةً بيضاء، وهي وسيلةٌ نحسبُ بها أنَّنا حسنًا نفعلُ إن كذَبنا، أو أنّي لا أرى أبدًا ماذا تعني، أللّهمَّ إلّا إذا كان الكذبُ لا يعودُ كذبًا، إذا سُمّيَ تحايُلًا. فإذا كان هذا يُخالِفُ المنطق، لماذا لا تقولُ صراحةً بأنّ الكذبةَ البيضاء مُباحة؟ لعلَّكَ لا تستسيغُ اللفظة، لأنّنا لا نجدُها في الكتب الكنسيَّة، مع أنَّ صديقَنا أمبروسيوس جعلَ منها عنوانًا لبعض مؤلَّفاتِه المليئة بالوصايا المفيدة. أفينبغي أن نشجُبَ صاحبَ كذبةٍ

www.old-criticism.blogspot.com

بيضاء، ونوافقَ من كذبَ تحايلًا؟ فليكذبْ إذًا، كيفَما شاء، من رأى هذا الرأي؛ وتبقى مسألةٌ كبرى أن نعرِفَ ما إذا كان يُمكنُ السماحُ، أحيانًا، بأن يكذبَ رجلُ الصّلاح، حتّى المسيحيّ الّذي قيلَ لهُ: «وليكن كلامُكم نعم نعم، ولا لا، لئلّا تُدانوا» (يعقوب ٥؛ ١٢/ متّى ٥؛ ٣٧)، والّذي يُصغي بإيمانٍ إلى هذه الكلمات: «تُهلِكُ النّاطقينَ بالكذب» (مزمور ٥؛ ٧).

٢٢ - ولكن، كما قلتُ، إنّها مسألةٌ كبرى. وكلُّ من يظنُّ أنَّ بوسعِهِ أن يكذب أحيانًا، فليحكم في الظرف الّذي يظنُّ أنَّ بإمكانِهُ أن يسمحَ لنفسِهِ بتوسُّلِ الكذب، شرطَ أن يؤمن، ويؤكِّدُ بقوّة، بأن أيَّ كذبةٍ لا تظهرُ لدى واضعي الكتب المقدَّسة، وخاصّةً القانونيَّة منها. لا ينبغي على وكلاء المسيح الّذينَ قيلَ عنهُم: «يُطلبُ في الوكلاء أن يكونَ كلٌّ منهم أمينًا» (١ قور ٤؛ ٢)، أن يعتبروا أنَّهُم تعلَّموا شيئًا عظيمًا إذ تعلَّموا الكذبَ لكي ينشروا الحقيقة؛ لأنَّ الأمانة تقضي بأن نفعلَ ما نقول. ولن يكون، بعدُ، كذبٌ، إذا كنّا نعملُ بما نقوله. والرّسولُ بولُس، الوكيلُ الأمين، يكتُب، من دونِ شكّ، بأمانة. إنَّهُ وكيلُ الحقّ وليسَ وكيلًا للزّور. إذًا، قالَ الحقّ، عندما كتبَ أنَّه وجدَ بطرُس لا يسيرُ مستقيمًا في حقيقة الإنجيل، وأنَّهُ عارضهُ مواجهةً لأنَّهُ كان يُلزِمُ الوثنيّين بالتهوُّد. وقد تقبَّلَ بطرس برقَّةِ تواضُعه اللّطيفِ المقدَّس، ما قاله بولُس، لخيرِه، بصراحةِ المحبَّةِ الأخويَّة. وكانَ تقبُّله مثالًا نادرًا ومقدَّسًا أعطاهُ لخلفائِه، وعلَّمَهم به أن يقبلوا التنبيهِ ممّن هم دونَهُم، فيما لو حدثَ أن ابتعدوا عن الطريقِ القويم. مثالٌ أقدسُ وأندرُ من مثالِ بولُس الّذي يُريدُنا أن نتجرّأ على مقاومة من هم أعظمُ منّا، دفاعًا عن الحقيقة الإنجيليَّة، ولكن، من دونِ أن نجرحَ المحبَّةَ الأخويَّة. ومع أنّه خيرٌ أن نلزَمَ الطريق القويم،

www.old-criticism.blogspot.com

من أن نبتعِدَ عنهُ بأيّ شكلٍ من الأشكال، فإنَّ تقبّلَ الإصطلاحِ بطيبِ خاطر، لأبهى وأجدى من التجرّؤ على إظهارِ خطأ. إنَّ بولس يستحقُّ الثّناء على صراحتِهِ المبرَّرة، وبطرُس على اتّضاعِهِ المقدَّس. لكان ذلكَ الإتّضاعُ ممنوعًا، برأيي، في مواجهةِ وشاياتِ بورفيرُس، فلا يُعطي بورفيريوس هذا مبرّراتٍ خطيرة لرشقِ بطرسَ بالشّتائم. أيّ إهانةٍ تُطلقُ في وجه المسيحيّين أفظعُ من اتّهامِهِم بالتحايُل في كتاباتِهِم وفي ممارستِهِم شعائرَ عبادةِ إلهِهِم؟

٢٣ – تسألُني أن أذكرَ لكَ أقلَّه اسم واحدٍ ممّن أشاطرُهم الرّأي في هذه المسألة، فيما أنت تُسمّي الكثير من المؤلّفين الّذين سبقوك، ويُشاطرونكَ الأفكارَ نفسَها. وتطلب منّي، إذا كنتُ ألومُكَ في ما أخطأتَ فيه، أن تسمحَ بأنْ تُشارِكَ في الخطأ مثلَ هؤلاء الرّجال الّذينَ أُقرُّ بأنّي لم أقرأ واحدًا منهم. إنّهم ستة أو سبعة ومن بينِهِم أربعة تنقُضُ سلطانَهُم بنفسك. أبدأُ باللاوُديقي الّذي تكتم اسمَه، وتقول بأنَّهُ غادر مصرَ منذ مدَّةٍ قصيرة؛ ثم تقولُ إنَّ إسكندر هرطوقيّ قديم؛ وأقرأ أنَّكَ تندِّدُ بأوريجنّس وديديمُس في أحدثِ مؤلَّفاتِك، بعنفٍ ملحوظ، وحولَ مسائلَ بالغة الأهمّيّة، على الرّغم من أنَّك سبقَ أن أثنيتَ على أوريجنّس أيَّما ثناء. أعتقِدُ، إذًا، أنَّك، ولا أنتَ نفسك، تريدُ أن تسيرَ في ضلالاتِ هؤلاء الرِّجال، ولو أنّكَ، حينَ تتكلَّم على هذا النحو، لا تعتقد بأنَّهُم أخطأوا في هذه المسألة. إذ من ذا يرغبُ في أن يضلَّ مع أيٍّ كان؟ بقي ثلاثة وهم يوسيبيوس الإيميزي، وثيودورُس الهيرقلياني، وذاكَ الّذي تذكرُهُ أخيرًا، يوحنّا[١٥]، الّذي كانَ يرعى، منذ وقتٍ غيرِ بعيد، كنيسةَ القسطنطينيَّة بالكرامة الأسقفيَّة.

---

(١٥) هو يوحنّا فم الذّهب بطريرك القسطنطينيَّة (٣٩٧-٤٠٧)، خلفًا لنكتاريوس.=

www.old-criticism.blogspot.com

٢٤ً - والحال، فإذا طلبتَ أو تذكّرتَ ما قالَه صديقُنا أمبروسيوس[١٦] حولَ هذا الموضوع، أو ما كتبَه صاحبُنا قبريانُس[١٧]، لعلَّكَ تجد أنّهُ لا تنقصُنا المراجع الّتي بوسعنا الإستنجادُ بها دعمًا لرأينا. على أنَّه سبقَ لي أن قلتُ لكَ بأنَّ الكتب المقدَّسة القانونيَّة هي الوحيدة الّتي أدينَ لها بالخضوع الطوعيّ، وهي الوحيدَة الّتي أركنُ إليها، لشعوري بأنَّ واضعيها لا يسعُهم أن يضلّوا في شيء، ولا أن يكتبوا زورًا. ولو انّي سعيتُ إلى كاتبٍ آخر لأقابلَكَ ثلاثةً بثلاثة، لَخلتُني وجدتُه من خلالِ مطالعةٍ واسعة؛ ولكن إليكَ من يُعوِّضُني عن جميعِ الآخرين، لا بل من هو أعظمُ منهُم جميعًا، ألا وهو الرّسول برلس نفسُه. فإليهِ ألجأ. وبهِ أستنجِد في الرأي المناهض لرأيي، والذي يقولُ بهِ شارحو رسائلِه؛ أستنطقُه، وأسألُهُ إذا كانَ قد كتب الحقيقة في ما كتبَهُ إلى الغلاطيّين من أنَّهُ رأى بطرس لا يسيرُ سيرًا قويمًا في حقيقة الإنجيل، فقاومهُ مواجهةً لأنَّهُ كان يُلزِمُ الوثنيّين بالتهوُّد، أم أنَّهُ توسَّلَ الحيلةَ فكذب وكتبَ زورًا. وأسمعُهُ يصرخُ بي بصوتٍ ورِع في بدءِ روايتِه: «وما أكتبُه إليكُم، فالله شاهدٌ على أنّي لا أكذبُ فيه» (غلاطية ١؛ ٢٠).

٢٥ً - فليُسامحْني الّذين هم على غيرِ رأيي. ولكنّي أقربُ إلى تصديق رسولٍ عظيم، يُشهِّد الله على صدقِ ما يقول، منّي إلى كاتبٍ مهما بلغَ علمُه، يستشهِدُ بما كتبَ آخرون. لستُ أخشى أن يُقال بأنّي أبرّئُ بولس ممّا شابهَ بهِ اليهودَ في ضلالِهِم، وهو قد سلكَ فيه،

=خُلِع من منصبِه ونُفي، ومات في المنفى.

(١٦) راجع **شرح القدّيس أمبروسيوس للرّسالة إلى الغلاطيّين**.

(١٧) راجع **رسالة قبريانُس إلى كوينتُس رقم ٧١**.

www.old-criticism.blogspot.com

ولم يكن يتظاهر، بل كانَ يستخدمُ حرّيَّةً رسوليَّة تُلائم العصر، فيمارسُ، عند الحاجة، ومن أجلِ تكريمِها، تلكَ الشّعائر القديمة الّتي وُضِعت، لا بحيلةِ الشيطان خداعًا للبشر، بل بعناية الله، بهدفِ التبشيرِ بالأمورِ المقبِلة؛ وبالتأكيد، لا ولم يسلُك في ضلالات اليهود، هو الّذي لم يكن يعلَمُ فقط، بل كان يُعلِّمُ بحماس، ومن غيرِ كلل، بأنَّ إلزامَ الأمم بتلكَ الأعمال، واعتبارَها ضروريَّةً لتبريرِ المؤمنين، أيًّا كانوا، هو الضلالُ بعينِه.

٢٦ – سبق أن قلتُ إنَّ بولس صارَ يهوديًّا مع اليهود، ووثنيًّا مع الوثنيّين، لا بحيلةٍ كاذبة، بل بورعٍ وتقوى؛ ويبدو لي هنا أنّكَ لم تفهمني جيّدًا، أو أنّي، بالأحرى، لم أكن واضحًا في تفسيري، بما فيه الكفاية. لم أرِدْ أن يفهمَ القارئ أنَّ بولُس تملّقَ من بابِ الرَّأفة، بل إنَّه كان صادقًا فيما يفعلُه مثلَ اليهود، بقدرِ ما كانَ صادقًا في ما فعلَهُ مثلَ الوثنيّين، وتُذكّرُه أنت نفسُك. وهنا أقرُّ لك بامتنان وقوفَكَ إلى جانبي. سألتُكَ في رسالتي السّابقة كيفَ ينبغي أن نفهَمَ أنَّ بولس صارَ يهوديًّا مع اليهود، متصنّعًا أعمالَ اليهود، هو الّذي صار وثنيًّا كالوثنيّين من دون أن يتصنّعَ التضحيةَ للأصنامِ كالوثنيّين؛ فأجبتني بأنَّه صارَ وثنيًّا كالوثنيّين بقبولِهِ القُلَف، وبإباحتِهِ أكلَ اللحوم المحظَّرة على اليهود؛ ولكن، قل لي، هل فعلَ ذلكَ رياءً؟ فإذا بدا تأكيدُ الأمرِ خاطئًا أو غير منطقيّ، عليكَ أن تُسلِّم بأنَّ ما فعلَهُ ليكونَ سالكًا في تقاليد اليهود بحرّيَّةٍ حكيمة، لم يفعلْه قطُّ كعبد، ولا كمخادع، وذا أحقر.

٢٧ – والحال، فإنّه يُعلن للمؤمنين وللّذين عرفوا الحقيقة، إلّا إذا اتَّهمناه هنا بالكذب، «كلُّ ما خلق الله حسن، وما من طعامٍ مرذولٍ إذا تناوَله الإنسان بشكر». (١ طيم ٤؛ ٤). إذًا، كان بولُس

www.old-criticism.blogspot.com

مؤمنًا؛ لم يكن بولسُ رجلًا أمينًا فقط، بل كان وكيلًا أمينًا؛ لم يكن فقط يعرفُ الحقيقة، بل كان مُعلِّمَها؛ إذًا، كان ينظر، لا بمكر، بل بصدق، إلى كلِّ ما خلقَه الله لغذاء الإنسان على أنَّهُ صالح. وما دامَ جعلَ نفسَهُ مع الوثنيّين كالوثنيّين، من دون أن يُسايرَهم في ذبائحِهم وشعائرِهم، بل بتلقينِهم ما يعرفُه وما يجب أن يُفكرّوا في اللّحوم وفي الختان، فلماذا لم يكن بوسعِهِ أن يكونَ يهوديًّا كاليهود من غيرِ أن يظهرَ ممارسًا لأعمالِهم؟ ولماذا كان ليُحافظَ على أمانةِ وكيلٍ أمين على فرع الزيتونة البّريَّة المطعَّم، فيتستَّر لا أدري بأيِّ حجاب أمام فرعِ الزيتونة الأصلي النابتِ في جذعِها؟ لماذا كان ليصيرَ وثنيًّا كالوثنيّين، وهو يلقّنُهم أفكارَهُ ويفكّر بما يقولُه، ويصيرَ يهوديًّا كاليهود ويُبقي في قلبِهِ شعورًا يُناقضُ أقوالَهُ وأفعالَه وكتاباتِه؟ وقانا الله هذا الإعتقاد! كانَ الرَّسولُ يدينُ لهؤلاء وأولئك بمحبَّةِ القلبِ الطاهر والضمير الحي والإيمانِ الصريح. وهكذا جعلَ نفسَهُ كلَّ شيءٍ للكلّ لكي يُخلِّصَ الكلّ، لا بحيلةٍ كاذبة، بل بروح الوداعة؛ أي ليس بتصنُّع صنعِ الشّرِّ كالآخرين، بل بالعمل على شفاءِ آلام الجميعِ بالرَّحمة كما لو كانوا أحصّاءَه الأقربين.

٢٨ - وكذلك، فإنّه عندما كان لا يُظهرُ في نفسِه أي نفورٍ من شعائر العهدِ القديم، لم يكن مُتملِّقًا مُخادعًا، بل كان يُكرِّم بصدقٍ الوصايا الإلهية الّتي كان ينبغي أن تستمرَّ بعدُ لحين، ولم يكنْ يُريد أن يُخلَطَ بينَها وبينَ ذبائحِ الوثنيّين. كانَ يجعلُ نفسَه يهوديًّا لليهود، لا بحيلةٍ كاذبة، بل بروح الوداعة، عندَما كانَ يُريد أن ينشُلَهم من زلّتِهم، كمن ينشُلُ نفسَه، إذ رفضوا الإيمانَ بيسوعَ المسيح، واعتقدوا أنَّ بوسعِهِم التطهُّرَ من خطاياهُم والخلاص بممارسة شعائرِهم القديمة. كان يحبُّ قريبَه مثلَ نفسِه، «ويصنعُ للآخرين ما

www.old-criticism.blogspot.com

يُريدُ أن يصنعَهُ الآخرونَ له، فهذا هو النّاموس والأنبياء» (راجع متّى ٧: ١٢)، كما أعلنَ الرَّبُّ وعلَّم.

٢٩ - إنَّ روحَ الوداعة هذه، يوصي بها الرَّسولُ الغلاطيّين بقولِهِ: «إذا وقع أحدُكم في فخّ الخطيئة، فأصلِحوا أنتم الرّوحيّين بروح الوداعة، وحذارِ أنتَ من نفسِكَ لئلّا تُجرَّبَ أنت ايضًا» (غلاطية ٦: ١). فانظرْ إذا كان لم يقلْ: كونوا مثلَهُ لكي تربحوه. وهذا لا يعني، بالطّبع، أن نرتكبَ الخطيئة مثلَه، أو أن نتصنَّعَ ارتكابَها؛ ولكن علينا أن نرى في زلّةِ الآخرين إمكانيّة سقوطِنا، فنُنجدَهم بالرّحمة كما نُريدَ ذلكَ لنفوسِنا، أي لا بحيلةٍ كاذبة، بل بروحِ الوداعة. وهذا ما صنعه الرسول بولُس مع اليهوديّ، ومع الوثنيّ، ومع كلِّ إنسانٍ سقطَ في الزلّة، أو في أيّ ضلال؛ لم يكن يتصنّع ما ليس فيه، بل يتصرّفُ برأفة الإنسان الّذي يخشى السقوطَ نفسَه، فصارَ كلَّ شيءٍ للكلّ لكي يُخلّص الكلّ.

٣٠ - تكرَّم، أرجوك، وارجعْ إلى ذاتِك، وانظرْ إليَّ أمامَك، وتذكَّرْ رسالتَك القصيرة الّتي بعثتَ بها إليَّ مع أخينا قبريانُس الّذي هو اليومَ أخي في الكهنوت، وأعِد قراءتها إن كنتَ تحتفظُ بنسخةٍ عنها. وانظرْ بأيِّ نبرةٍ صادقة وأخويّة، وبأيِّ دفقِ محبَّة، بعدَ أن تلومَني بعنفٍ على بعضِ إساءاتي نحوك، تُضيف: «هذا ما يجرحُ الصَّداقة، وهذا ما ينتهِكُ حقوقَها. فلا نَظهَرَنَّ وكأنّنا نتصارعُ كالأطفال، ولا نكُنْ موضوعَ جدالٍ بين أصدقاءٍ وخصوم». (الرسالة ٧: ٤). أشعرُ أنَّ هذه الكلمات لا تخرُجُ من القلبِ فحسب، بل هي نصيحةٌ تُسدينيها بعطف. ثمَّ تُضيفُ بعد ذلك - وكنتُ لأفهمَها حتّى ولو لم تقُلها -: «أكتب إليكَ هذا لأنّي أبتغي أن أحبَّك محبَّةً مسيحيَّةً صادقة، فلا أحفظُ في قلبي ما لا تتفوّهُ به شفتايَ» (الرسالة

www.old-critics.blogspot.com

٧؛ ٤)! فيا أيّها الرجل القدّيس الّذي يُكنُّ له قلبي محبّةً حقيقيّة، كما يراها اللهُ في روحي! إنَّ الشُّعور الّذي عبّرتَ لي عنهُ في رسالتِك، والّذي لا أشكُّ فيه، أظنُّ أنَّ الرّسول بولُس قد أظهرَه، لا لكلِّ إنسانٍ بمفردِه، بل لليهود واليونانيّين والوثنيّين، بنيه الّذين ولدَهم في الإنجيل، أو الّذين كان يجهد لكي يلِدَهم، وبعد ذلك لجميع مسيحيّي الأزمنة العتيدة الّذين ستُحفظُ لهم تلكَ الرّسالة، من أجلِ ألّا يكتُمَ الرّسولُ في قلبِهِ ما لا يضعهُ على شفتيه.

٣١ - وبالتأكيد، فإنّكَ أنت جعلتَ نفسَك ما أنا عليه، لا بحيلةٍ كاذبة، بل بروح الوداعة، عندما فكّرتَ بأنّ من واجبِكَ ألّا تدعَني في خطأٍ تعتقدُ أنّي وقعتُ فيه، مثلما كنتَ تريدُ ألّا تُترَكَ فيما لو وقعتَ فيه أنتَ نفسُك. إنّي إذ أشكرُكَ على عاطفتِك، أسألك ألّا تغضبَ عليَّ إن كنت قلتُ لكَ رأيي في ما آلَمني في كتاباتِك. أودُّ لو انَّ الجميعَ يُعاملونَني كما عاملتُك؛ أودُّ أن يُوفّروا عليَّ مديحًا كاذبًا، حينَ يجِدونَ في كتاباتي ما أُلامُ عليه، وألّا يُذيعوا أخطائي أمام الآخرين، ويكتموها أمامي؛ فهذا، بالأخصّ، ما يجرحُ الصّداقة وينتهكُ حقوقَها.

لا أعرف إذا كان بوسعنا أن نُسمّي صداقاتٍ مسيحيّة، تلكَ التي تستوحي المثلَ القائل: «التملُّق يصنعُ الأصدقاء، والصدقُ الأعداء»، بدلَ أن تستوحي قولَ الحكيم: «جروحُ المحبِّ أمينة، وقُبَلُ المبغضِ خائنة» (أمثال ٢٧؛ ٦).

٣٢ - حريٌّ بنا، وعلى قدرِ طاقتِنا، أن نعلّمَ أصدقاءَنا الصّادقينَ في غَيرتِهم على أعمالِنا، أنَّ في وسعِ الأصدقاء أن يختلفوا في الرأي حولَ نقطةٍ في العقيدة، من دون أن يعتري محبّتَهم

www.old-criticism.blogspot.com

أيُّ نقصان، ومن دونِ أن تُولِّدَ الحقدَ حقيقةٌ تقالُ بمحبَّة، سواءٌ أكانَ المعترضُ على حقّ، أم قالَ غير الحقّ، ولكن بإيمانٍ راسخٍ صادق، من دون أن يكتمَ شيئًا في قلبِه لا يذكرُهُ على شفتيه. كما أنَّ إخوتي، أصدقاءك، آنية المسيح بحسبِ شهادتِك، يؤمنونَ بأنَّ عدمَ وصولِ رسالتي إليكَ ووقوعَها في أيدٍ أخرى قبلَ وصولِها إليك، لم يكن بسببِ خطأٍ منّي، وقد أسفتُ له أسفًا شديدًا. يطولُ بي الأمرُ من غيرِ طائل، لو أردتُ أن أرويَ لكَ كيف حدثَ ذلك؛ حسبي، إن كنتَ تُصدِّقُني، أن تعرِفَ أنّهُ لم يكن في الأمرِ أيُّ مخطّطٍ مقصود ممّا أُلصِقَ به؛ لم أُرِدْ ذلكَ ولم آمُرْ بهِ، ولم أوافقْ عليه، ولم يَرِدْ قطُّ في ذهني أنَّ هذا يمكنُ أن يحدُث. فإذا كانَ أصدقاؤُكَ لا يُصدِّقون ما أؤكِّدُه هنا أمامَ الله، فلا حولَ لي. معاذ الله أن أتَّهِمَهُم بأنَّهُم يهمسونَ إلى قُدسكَ سوءًا لكي يثيروا بيننا العداوات! ألا أبعدَت عنّا رحمةُ الله تلكَ المأساة! وربَّما كانَ بوسعِ أصدقائكَ، عن غيرِ سوءِ نيَّة، أن يتوجّسوا، في أيِّ رجلٍ، خطأً بشريًّا. هذا ما أظنُّهُ بهم، إذا كانوا آنيةً للمسيح، «آنيةً للكرامة لا للهوان، أهلًا لاستعمال الرّبّ، معدَّةً لكلِّ عملٍ صالح». (٢ طيم ٢: ٢٠-٢١). فإذا علموا بردّي هذا واستمرّوا على شكوكِهِم، أيقنتَ أنَّهُم لا يعملون عملًا صالحًا.

٣٣ - إن كنتُ كتبتُ إليكَ بأنّي لم أرسل إلى رومة أيّ كتابٍ ضدَّك، فذاكَ لأنّي لستُ أطلِقُ اسمَ كتابٍ على مجرَّدِ رسالةٍ بسيطة؛ كما إنّي أجهلُ تمامًا عن أيّ شيءٍ آخر كلَّموك؛ لم أبعث بتلكَ الرّسالة إلى رومة، بل إليك. لم أنظر إليها كرسالةٍ ضدَّك، لأنّي كنتُ أعلمُ أنَّ غايتي الوحيدة، أن ألفتَ نظركَ بصراحةِ الصّداقة، فيصحِّحَ واحدُنا الآخرَ بتبادُلِ الآراء. وأسكتُ الآنَ عن أصدقائِك، لأتوجَّهَ إليكَ وأستحلفُكَ بنعمةِ افتدائِنا، ألّا تتهمَني بالخداع الماكر، إذا

www.old-criticism.blogspot.com

كنتُ أُذكِّرُ في رسالتي بالمواهب الكبرى التي أفاضها عليكَ جودُ الله؛ أمّا إذا كنتُ أهنتُكَ في شيء، فاعفُ عنّي؛ لا تذهبْ إلى ما هو أبعدُ من قصدي فيما ذكَّرتُكَ بهِ حولَ شاعرٍ، وكانَ فيهِ من قلّةِ الفطنة فوقَ ما فيه من حُسنِ البيان؛ لم أقلْ ذلك كما كان يَحسنُ بي أن أقولَه، لكي تستعيدَ عينَي بصيرتِك اللتين لم تفقدْهما يومًا، بل لكي تبقى عيناكَ السليمتان والمنفتحتان على الدّوام أكثرَ التفاتًا وانتباهًا إلى موضوعِ النقاش. لم أفكِّر هنا إلّا بنشيد التوبة الذي علينا أن نُنشِدَه، مثلَ ستيزيخورُس، إذا ما كتبنا شيئًا نُضطرُّ أن نمحوَهُ في كتاب لاحق؛ لم أفكِّر يومًا في أن أنسُبَ إليكَ عمى ذلكَ الشاعر، أو أن أخشى عليكَ منه. وأعودُ فأكرِّر إليكَ رجائي بأن تلومني، بثقة، كلّما رأيتَ أنَّ اللومَ واجب. وحتّى ولو انَّ الأسقفيَّة، بحسب تراتبيَّة الكرامات التي تجري عليها الكنيسة، أسمى من الخورنة، إلّا أنَّ أوغسطينُس، وفي كثيرٍ من الأمور، أدنى من هيرونيمُس؛ وبالتالي، لا ينبغي أن نرفضَ أو نزدريَ إصلاحًا يأتي ممّن هم أدنى، أيًّا كانوا.

٣٤ - أقنعتني قناعةً تامَّةً بجدوى نقلِكَ الكتب المقدَّسة عن العبريَّة؛ إنّكَ بذلك تُصلِحُ ما أهملَه اليهود وأفسدوه. ولكنّي أسألُكَ أن تتكرَّمَ وتخبرَني من هم اليهود الذين أهملوا وأفسدوا؛ إذا كانوا مترجمين يهودًا سابقين لمجيء المسيح فمَن هم؟ أو إذا كانوا مترجمينَ جاؤوا بعدَ ذلك، ويمكن التشكيك بأنَّهم حذفوا أو حوَّروا شيئًا في النصوص اليونانيَّة، لئلّا تنقلبَ الشهاداتُ ضدّهم، لصالحِ الإيمان المسيحي، فلِمَ يكونُ اليهودُ الذين سبقوا المسيح فعلوا ذلك؟ إنّي، في الحقيقة، لا أعرفُ شيئًا.

ثمَّ أرجوكَ أن ترسل إليَّ نسختَكَ السبعينيَّة، لأنّي لم أكن أعلم

www.old-criticism.blogspot.com

أنَّكَ نشرتَها؛ كما أودُّ أن أقرأَ الكتاب الذي كلمتني عنه، عرَضًا، حولَ أفضل الطرق للترجمة، فأعرف كيفَ أنَّ معرفة اللغات، في ترجمة، يمكن أن تتوافق مع تخميناتِ الشُّرّاح؛ لأنّهم، مهما بلغوا من صفاءِ الإيمان ووحدتِه، يستحيلُ ألّا يصِلوا إلى آراءٍ مختلفة بسبب غموضِ الكثيرِ من النصوص. على أيِّ حال، أعودُ فأقول بأنَّ تنوُّعًا كهذا لا يمنعُ وحدةَ الإيمان، من حيثُ أنَّ الشارحَ نفسَهُ بوسعِه أن يفهَم، بأشكالٍ مختلِفة، النصَّ الغامضَ نفسَهُ، ويبقى على إيمانِه.

٣٥ - إنَّ ما يجعلُني أتمنّى الحصولَ على نسختِكَ السبعينيَّة، هو رغبتي في التخلُّص من ذلكَ الحشد من المترجمين اللّاتينيّين، الذين تجرّأوا، بما هم عليه من جهلٍ، وترجموها. وبودّي لو انّي أُظهِرُ، ولمرَّةٍ نهائيَّة إذا استطعت، للذينَ يعتقدونَ بأنّي أغارُ من أعمالِكَ المفيدة، أنّي إذا كنتُ لا أوافق على أن تُقرأ في الكنائس ترجمتُكَ عن العبريَّة، فذلك لكي لا أظهرَ بأنّي أُدخلُ جديدًا ضدَّ سلطان السَّبعينيَّة، فأزرعَ بلبالًا وشكوكًا في شعبِ المسيح الذي تعوَّدَ قلبُهُ وأذنُه ترجمةً وافق عليها الرُّسُل أنفُسُهم. فمن حيثُ أنَّ شُجيرةَ كتاب يونان[١٨] ليست، في العبريَّة لا يقطينًا ولا لبلابًا، بل لا أدري أيّةَ شجيرةٍ تستقيمُ على ساقِها دونما حاجةٍ إلى سنَد، فإنّي أفضِّلُ أن يُقرأ اسم اليقطين في جميعِ الترجماتِ اللّاتينيَّة؛ وإنّي أرى أنَّ السبعينَ لم يضعوا هذا الإسمَ من دونِ غاية، إذ كانوا يرونَ، ولا شك، بأنّها كانت تدلُّ عل ما يُشبِهُ الشُجيرةَ التي يتكلَّمُ عنها النبيّ.

٣٦ - أحسبُ أنّي قلتُ ما يكفي، وربَّما أكثرَ بكثير ممّا يُشكِّلُ

(١٨) يونان ٤؛ ٦ (هي الخروَعة).

www.old-criticism.blogspot.com

ردًّا على تلكَ الرّسائل الثلاث التي وصلني اثنتان منها بواسطة قبريانُس، والثالثة بواسطة فيرمُس. أجبني بما تراه مناسبًا لتعليمي وتعليم الآخرين.

من الآن، سأهتمُّ، بمعونةِ الله، أوسعَ اهتمامٍ، بأن تصلَكَ رسائلي قبلَ أيِّ شخصٍ آخرَ يمكنُ أن يُذيعَها في كلِّ اتِّجاه. أؤَكِّدُ بأنّي لا أرغبُ قطُّ في أن يُصيبَ رسائلَكَ ما أصابَ رسائلي، وهذا ما تشكو منه بحقّ. ينبغي ألّا نكتفيَ بأن تسودَ بيننا المحبَّة، بل الصّداقةُ الصريحةُ أيضًا، فنتمكّنَ من أن يقولَ واحدُنا للآخر ما يؤثِّر فيه من أعمالِنا، ولكن، على الدّوام، بروح المحبَّةِ الأخويَّةِ الخالصة التي ترضي الله. وإذا كنتَ تعتقِدُ بأنَّ هذا لا يُمكنُ أن يحصلَ من دون أن يُسيءَ إلى الصّداقة، فدعنا منهُ. إنَّ المحبَّة التي أرغبُ في أن تسودَ بيننا هي التي تسمو فوقَ كلِّ إهانة؛ غيرَ أنَّ المحبَّة، ولو ناقصة، تبقى خيرًا من لا شيء[١٩].

---

(١٩) بين رجلين عظيمين وقدّيسَيْن عظيمَين، كان يستحيلُ ألّا تنتصِر الحقيقة. فرسالةُ القدّيس أوغسطينُس هذه تركت أثرًا كبيرًا في نفسِ القدّيس هيرونيمُس الّذي استجابَ لرأي أسقف هيبّون. ففي كتابه **ضدَّ بيلاجيوس** الّذي صاغَه بشكلِ حوارٍ بين أتيكُس Atticus وكريتوبولُس Critobulus، يقولُ ناسكُ بيتَ لحم إنَّه ليسَ في الأساقفة مَنْ لا يُلام، من حيثُ أنّ بطرُسَ نفسَهُ استحقَّ لوم بولُس «فمن ذا يشكو من أنّهُ يُحرَم ممّا لم ينلْهُ هامةُ الرّسلِ نفسُه؟». وبعد عشرِ سنواتٍ أو إحدى عشرة سنة على هذه الرّسالة، كتبَ القدّيس أوغسطينُس إلى أوقيانُس في موضوع الكذبة البيضاء يقول: «إنَّ الأخ الجليل هيرونيمُس، وأنا أيضًا، سبقَ أن أعطينا هذا الموضوعَ حقَّه في المعالجة؛ وفي كتابه الأخير **ضدَّ بيلاجيوس** الّذي نشره تحت اسم كريتوبولُس، تبنّى في هذه النقطة، وفي كلامِ الرُّسل رأيَ القدّيس قبريانُس المغبوط، وهو الذي تبنّيتُهُ أنا أيضًا» (**الرسالة ١٣٠** - أوغسطينُس)

www.old-criticism.blogspot.com

١٢ - من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

هنالك الكثير من الدلائل الّتي تشير إلى أنَّ هذه الرّسالة القصيرة هي جزءٌ من الرّسالة ١٩٥ (مجموعة أوغسطينُس). وفيها يرسُم صورة رمزيَّة عن الإنتصار الّذي حقّقته البيلاجيّة في فلسطين، فيقول إنَّ أورشليم باتت في أيدي نبوخذنصّر، ولن تُبالي بصوتِ إرميا، (أي بصوتِه هو هيرونيمُس) أو لعلَّهُ كان يُشيرُ إلى رومة الّتي أخضعَها ألاريك. يعرضُ هيرونيمُس فكرتَه بكثيرٍ من الغموض؛ وفي سطورِها الأولى تلميحٌ إلى هراطقة هُزموا ولم يخضَعوا. يعود تاريخ الرّسالة إلى العام ٤١٠. وهي الرّسالة ١٢٣ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، و١٤٢ في مجموعة هيرونيمُس.

كثيرون يعرجون من رجليهِم الإثنين؛ يُحَطَّمُ رأسُهم ولا يُخفضونَه. لم يعدْ لديهم الحرّيَّة نفسُها لنشرِ ضلالاتِهِم، غيرَ أنَّهُم يتشبَّثون بها.

يُسلِّم عليك باتّضاع الإخوة القدّيسون الّذين معي، وخاصَّةً ابنتاكَ القدّيستان الجليلتان[٢٠]. أرجو سيادتَك أن تُسلِّم، باسمي، على أخوَيكَ سيِّديَّ أليبيوس وإيفوديوس.

إنَّ أورشليم الّتي استولى عليه واحتلَّها نبوخذنصَّر، تأبى أن

(٢٠) هما باولا وابنتها يوستوكيا.

www.old-criticism.blogspot.com

تُصغِيَ إلى نصائح إرميا، وتُفضِّلَ مصرَ، لتموت عندَ تحفنيس[21]، وتهلِكَ في عبوديَّةٍ أبديَّة.

(٢١) تحفنيس (١ ملوك ١١؛ ١٩-٢٠) هي زوجة فرعون مصر، الّتي زوَّجت هدد الأدوميّ بأختِها.

www.old-criticism.blogspot.com

١٣ - من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس

بناءً على طلب هيرونيمُس، استشار مرتشيلّينُس (الرسالة ١٢٦) أوغسطينُس في مبدأ النفس، ولكنَّه لم يحظَ منهُ بجواب شافٍ. وفي هذه الرّسالة يعترف أوغسطينُس لهيرونيمُس بعدم أهليّتِهِ للإجابة على هذا السّؤال الدقيق، ويسألُه رأيَه فيه. ويبدأ فيرى بأنَّ النفسَ خالدة وغيرُ مادّيَّة، وخطيئتُها تعودُ إلى خيارِها الحرّ لا إلى الله. ويقول بأنَّه مستعدٌّ للقبول بنظريَّة الإبداعيّة[٢٢] Créationnisme كحلٍّ لهذه المسألة الشّائكة، في حال تمكّن هيرونيمُس من أن يُبرهنَ له كيف يُمكن أن نوافق بين هذه النظريّة وبين إدانة الكنيسة لتعليم بيلاجيوس، وتأكيدِها على عقيدة الخطيئة الأصليَّة. إنّها إحدى أهمّ الرّسائل التي كتبَها أسقُف هيبّون، وهي تزخرُ بسداد الرأي ونفادِ البصيرة وسحرِ البيان وفيضِ العبقريَّة والتواضع والتحفّظَ في الأمور المريبة. يمتزجُ الخيالُ فيها بعمق التحليل. وقد يُذهِلُنا فيها ذلكَ التشبيه المأخوذ من الموسيقى للدلالةِ على التناسق الرّائع في نظام الكون. يعود تاريخ الرّسالة إلى العام ٤١٤ أو ٤١٥؛ وهي تحمل الرقم ١٦٦ في سلسلة رسائل أوغسطينُس، و١٣١ في مجموعة هيرونيمُس.

---

(٢٢) الإبداعيَّة Créationnisme تقول بأنَّ خلقَ الحيوان والنبات تمَّ بشكلٍ فوريّ وإفراديّ، كلٌّ حسبَ جنسِه، ثابتٌ لا يتحوَّل.

www.old-criticism.blogspot.com

١ – سألتُ إلهنا الذي «دعانا إلى ملكوتِهِ ومجدِه» (١ تسالونيكي ٢؛ ١٢) أن يتلطّفَ ويجعلَ فائدةً لكلَينا، أيُّها الأخُ القدّيس هيرونيمُس، في ما أكتبُه لأستشيرَكَ في أمورٍ أجهلُها. على الرّغم من أنّكَ أكبر منّي سنًا بكثير، غيرَ أنّي هرمتُ أنا أيضًا، وها إنّ العجوزَ يستشيرُ عجوزًا. ولكنّي لا أرى أنّي تأخرتُ كثيرًا في طلبِ تعلُّم ما يجبُ أن أعرِفه. صحيحٌ أنَّهُ يليقُ بالعجوزِ أن يُعلِّمَ من أن يتعلَّم، ولكن، يليقُ به، أكثر، أن يتعلَّم، من أن يكون جاهلًا في ما يُعلِّمُه. وسطَ الهموم التي يُسبِّبُها لي حلُّ المسائل الصّعبة، ليسَ اشقَّ عليَّ من بُعدِك. قد تمرُّ أيامٌ وأشهرٌ بل سنوات قبلَ أن يتسنّى لي أن أوصلَ إليكَ رسالةً أو أستلِمَ منكَ رسالة. ولو أتيحَ لي لتمنّيتُ أن أراكَ كلَّ يومٍ فأكلِّمكَ في ما يَشغَلُني. ولمّا كنتُ لا أقوى أن أفعلَ ما أريد، فعليّ بما أستطيعُه.

٢ – جاءني شابٌ ورعٌ اسمُه أوروسيوس، وهو أخٌ في وحدةِ الكنيسة الجامعة، إبنٌ في العمرِ ورفيقٌ في الكرامة الكهنوتيَّة، متوقِّدُ الذهن، طلقُ الكلام، مضطرِمُ الغَيرة، يريدُ أن يكون إناءَ كرامةٍ في بيتِ الرّب، وقادرًا على محاربةِ العقائد المضلَّة المفسدة التي ألحقت ضررًا بالنفوس، في إسبانية، فوقَ ما ألحقته حرابُ البرابرة بأجسادِهم. جاءَ من شواطئ الأوقيانُس وهو على يقينٍ، بسبب ما سمع، من أنَّ في وسعِه أن يتعلَّمَ منّي كلَّ ما كانَ راغبًا في معرفتِه. لم تكن رحلتُه من غيرِ فائدة؛ فأوَّلُ ثمرةٍ جناها كانت ألّا يثقَ كثيرًا بالشُّهرة التي رافقتني؛ ثمَّ علّمتُه ما ملكتُ من معرفة؛ وما لم أقوَ عليه، أشرتُ عليهِ أينَ يكون لهُ أن يتعلَّمَه، وحثثتُه على الذّهابِ إليك. ولمَّا وجدتُهُ طائعًا لرأيي ومشورتي، رجوتُه أن يعودَ إليّ عندما يُفارقُك. فوعدني، وبدا لي أنَّ تلكَ السانحة كانت تدبيرًا إلهيًّا

www.old-criticism.blogspot.com

لكي أستشيرَكَ في الأمور التي أرغبُ في معرِفتِها منك؛ كنتُ أبحثُ عمّن أُرسلُه، فلا أجد شخصًا موثوقًا، ويكون مستعدًّا للسفر ومعتادًا عليه. وحالَما تعرَّفتُ إلى هذا الشّابّ، لم يُخامرني شكٌّ بأنَّهُ هو الذي كنتُ أطلبُه من الرّبّ.

٣ - فإليكَ، إذًا، الأمور التي أسألُكَ أن توضحَها لي. أقرُّ بأنّني من الذين تشغلُهم مسألة النفس. سأقولُ ما أحسبُهُ ثابتًا في هذه المسألة، ثمَّ أضعُ بينَ يديكَ ما أرى أنَّهُ يستحقُّ الشَّرح. إنَّ نفسَ الإنسان خالدة بطريقةٍ ما خاصّةٍ بها؛ فهي ليست خالدة تحتَ أيِّ ظرف، كما الله الذي قيلَ فيه: «الذي له وحده الخلود» (١ طيم ٦؛ ١٦). يقول الكتابُ المقدّس قولًا كثيرًا في الموت والنفس؛ منها: «دعِ الموتى يدفنون موتاهم» (متّى ٨؛ ٢٢). تُحرَمُ النفسُ من حياةِ الله فتموت، ولكنّها، تبقى، بشكلٍ من الأشكال، حيَّةً في الطبيعة؛ ومع أنَّها مائتة، بمعنىً ما، فإنَّ لنا الحقَّ في أن ندعوها خالدة. ليست النفسُ جزءًا من الله، لأنّها لو كانت كذلك، لأبت، في أيِّ حال، أن تكون خاضعةً للتحوُّل والفساد؛ ولو كانت كذلك، لما كان فيها، لا تراجعٌ ولا تقدُّم؛ ولَما كانت، فيما خصَّ مشاعرَها، تبدأُ بامتلاكِ ما لا تملكُه، أو بخسارة ما تملكُه. والحال، فما نحن بحاجةٍ إلى شهادةٍ من خارج، لكي نُبيِّنَ أنَّ الأمرَ ليسَ هكذا؛ حسبُنا أن ننظرَ إلى أنفُسِنا فنعرف. إنَّ الّذين يقولون بأنَّ النفسَ جزءٌ من الله، باطلًا ينسبُون إلى الجسد، لا إلى النفس، النجاساتِ والرذائلَ التي نراها في أكثر النّاس إثمًا، والهوانَ والخمولَ الذي نعانيهِ في جميع الناس. ما همَّ النفس من أين يأتيها المرض ما دامَ لا يسعُها أن تمرض وهي تشاركُ في الخلود. كلُّ ما لا يقبلُ التحوُّلَ والفساد، لا يُمكن أن يتحوّل أو أن يفسد، تحتَ أيِّ ظرف؛ وإلّا لن يكونَ

www.old-criticism.blogspot.com

«**أخيلُ**» وحدَهُ منيعًا، كما تروي الأسطورة، بل كلُّ جسدٍ سيكونُ منيعًا، إن كانَ يستحيلُ أن يناله سوء. إنّ طبيعةً يمكن أن تتحوَّل بأيّ طريقةٍ، أو لأيّ سبب، وفي أيِّ مكان، ليست إذًا نفسًا خالدة: والحال، فإنّهُ لا يجوزُ أن نعتقد أنَّ الله ليسَ خالدًا حقًّا وبصورةٍ مطلقة. وعليه فإنَّ النفسَ ليست جزءًا من الله.

٤ - وعلى الرّغم من أنّه ليسَ من السهل إقناعُ العقول الغليظة بأنَّ النفسَ ليست جسديَّة، إلّا أنّني واثقٌ من ذلك. ولكن من أجلِ ألّا نَشْرَعَ في نزاعاتٍ كلاميَّة من غيرِ طائل، أو أن نرضى بها - لأنَّهُ ما الجدوى من الصّراعِ حولَ الكلمات عندما نكونَ متَّفقين على المضمون؟ - فإذا كانت كلمة «**مادّة**» تدلُّ على كلِّ ما هو موجود، وتحتَ أيِّ شكلٍ من الأشكال، سواءٌ أكانَ جسمًا أو جوهرًا أو أيَّ شيءٍ آخر، فإنَّ النفسَ مادَّة. كما أنَّهُ إذا كنّا لا نريدُ أن نُسمّي «**لامادّيّة**» إلّا الطبيعة التي لا نتبدَّلُ إطلاقًا، وحيثما وُجِدَت تكونُ كاملة، فإنَّ النفسَ «**مادّة**»، لأنَّ النفسَ ليسَ لها مثلُ هذه الطبيعة. أمّا إذا كانَ ليسَ بمادَّة إلّا ما هو جامدٌ أو متحرّك في المدى، وله طولٌ وعرضٌ وارتفاع، بحيثُ يحتلُّ الجزءُ الأكبرُ الحيِّزَ الأكبر، والجزءُ الأصغرُ الحيِّزَ الأصغر، ويكونَ، في الجزء، أصغرَ منهُ في الكلّ، فإنَّ النفسَ ليست «**مادَّة**»؛ لأنّها تنتشرُ في الجسم الذي تُحييه، لا بتمدُّدٍ محلّي للأجزاء، بل بشكلٍ من أشكالِ التأثير الحيويّ، فتكونَ موجودةً، في آنٍ معًا، بكلّيَّتِها، في كلِّ أجزائِها، فلا تكون الصغرى في أصغرِها ولا الكبرى في أكبرِها؛ بل تكونُ هنا أقوى وهناكَ أضعف، وكلُّها في كلِّ أجزائِها وكلّها في كلِّ جزء. وما تشعُرُ به، حتّى في جزءٍ واحدٍ من الجسم، تشعُرُ بهِ بكلّيّتِها: وخزةٌ طفيفةٌ في اللّحم الحيّ، ولو في مكانٍ من الجسم يكاد لا يُرى، لا يخفى على

www.old-critic.blogspot.com

النفسِ بكلّيّتِها؛ ومع ذلكَ فإنَّ الجسدَ لا يشعرُ بكلّيّتِه بالوخزةِ، بل في مكانٍ واحدٍ فقط. فمن أينَ يأتي، إذًا، أن تشعرَ النفسُ بكلّيّتِها بما لا يشعرُ به الجسدُ بكلّيّتِه، إن لم تكن موجودةً بكاملِها في مكانِ الوخزة، ولكي تكونَ موجودةً بكاملِها، ليست بحاجةٍ إلى أن تتركَ باقي أجزاء الجسد؟ ذاكَ أنَّ تلكَ الأجزاء تبقى حيَّةً بوجودِها حيثُ لم يُصبْها شيءٌ مشابِه. وإذا أصابت الجسدَ وخزاتٌ في أماكن مختلفة، فإنَّ النفسَ بكلّيّتِها تشعرُ بها كذلك. وهكذا لا يسع النفسَ أن تكونَ موجودةً في جميعِ أجزاء الجسدِ وفي كلٍّ منها، إذا كانت تمتدُّ فيها، مثلما نرى الأجسامَ تحتلُّ حيّزًا أدنى في أصغرِ أجزائها، وأكبرَ في أكبرِها. فإذا كان بوسعِنا أن نقول إنَّ النفسَ جسمٌ، فإنّها ليست بالتأكيد جسمًا أرضيًّا، ولا سائلًا ولا هوائيًّا ولا أثيريًّا؛ لأنَّ كلَّ هذه الأجسام تحتلُّ حيّزًا كبيرًا أو صغيرًا، بحسبِ أحجامِها، وليسَ بينَها من جوهرٍ موجودٍ بكاملِهِ، في أيِّ جزءٍ من ذاته، بل إنَّ الأجزاء مختلفةٌ مثلُها مثل الأماكن. وبالتالي فإنَّ للنفسِ طبيعةً ما خاصّةً بها، سواءٌ أكانت النفسُ ماديَّةً أو لامادّيَّة، وهي جوهرٌ مخلوق يسمو على كلَّ العناصر التي تؤلّفُ مادَّة الكون، ولا يسعُها أن تُمَثَّل، بحقّ، ولا بأيِّ صورة من الصُّور التي تقعُ تحت الحواسّ، بل يمكنُ إدراكُها بالعقل، والشّعورُ بها بالحياة. لا أقولُ هذا لكي أعلّمَكَ ما تعرفُه، ولكن لكي أعرضَ ما أراهُ أكيدًا بشأن النفس، لئلّا يظنَّ أحدٌ أني لا أعرفُ شيئًا عن النفس، لا بالعقلِ ولا بالإيمان، ساعةَ أصلُ إلى ما أبحثُ عنه.

٥ - إنّي متأكّدٌ أيضًا من أنَّ النفسَ لم تسقط في الخطيئة، لا بخطأٍ من الله، ولا اضطرارًا، لا من الله، ولا منها، إنّما هي سقطت بإرادتِها الذّاتيَّة، وليسَ بوسعِها أن تُنقَذَ من «جسدِ الموت هذا»

www.old-criticism.blogspot.com

بإرادتِها وحدها، كقوَّةٍ كافية، ولا بموتِ الجسد، بل بنعمة الله بيسوعَ المسيح ربِّنا (رومة ٧: ٢٤-٢٥). وليسَ في الجنسِ البشريّ كلِّه نفسٌ واحدة لا تحتاجُ، لخلاصِها، إلى يسوع المسيح الإنسان الوسيط بين الله والنّاس. إنَّ كلَّ نفسٍ، وفي أيِّ عمرٍ من حياتِها، تخرجُ من الجسد، من دونِ نعمة الوسيط، ومن دونِ المشاركةِ في سرِّه المقدَّس، لن تتفادى العذاب الآتي؛ وفي الدينونة الأخيرة، ستعودُ تلبسُ جسدَها لتتألَّم؛ أمّا إذا عادت، بعدَ ولادتها الأولى من آدم بالجسد، فوُلِدَت بالمسيح يسوع وصارت شريكةً له، فستنعم بالرّاحة بعد موت الجسد، وتستعيدُ جسدَها للمجد. هذا ما أتمسَّكُ بهِ بثباتٍ بشأن النفس.

٦ - إسمعني الآن، أرجوك، ولا تزدرِ طلباتي، لا ازدراكَ الذي من أجلنا ارتضى أن يكونَ مزدرىً! أسألُ أينَ تُصابُ النفسُ بالخطيئة التي، بنتيجتِها، تسقطُ في الهلاك الذي لا يُعفى منهُ طفلٌ يموت من دونِ أن ينالَ نعمةَ المسيح بالعماد؟ لأنَّكَ لستَ من أولئكَ الذين ينطقونَ بأشياءَ جديدة، ويذهبونَ إلى حدِّ القول بأنّه ليس من خطيئةٍ أصليَّة يُعفى منها الطفلُ بالعماد. فلو كنت أعرفُ أنَّ هذا هو رأيُك، أو بالأحرى، لو لم أكن أعرف أنّكَ لا تقولُ بمثلِ هذا، لما ارتأيتُ أن أوجُهَ إليكَ سؤالي. غيرَ أنّي أعلم أن رأيكَ مطابقٌ للإيمان الكاثوليكيّ الذي لا يتزعزع؛ في ردِّكَ على مزاعم يوفينيانُس الباطلة أوردتَ هذه الكلمات لأيّوب: «ليس من طاهرٍ أمامك، ولا حتّى طفلٌ ابنُ يومٍ على الأرض»[٢٣] (أيوب

(٢٣) جاءت الترجمة في الكتب القانونيَّة على الشّكلِ التالي: «من يأتي بطاهرٍ من نجس؟ لا أحد. فإذا كانت أيّامُهُ محدودة، وعدد شهورِهِ معيَّنًا عندك، وقد قضيتَ لهُ أجلًا، لا يتعدّاه» (أيّوب ١٤؛ ٤-٥).

www.old-criticism.blogspot.com

١٤؛ ٤ السبعينيَّة). ثمَّ أضفت: «نولدُ وعلينا ذنبٌ فيه شيءٌ من الشبه بمعصية آدم» وكتابُكَ في شرحِ يونان يُظهِرُ ذلك بصورةٍ واضحة وملحوظة حيثُ تقول: «بحقٍّ، يُلزَمُ الأطفالُ بالصّيام بسبب الخطيئة الأصليَّة». فإني، إذًا، على حقّ في أن أتوجَّهَ إليكَ لأعرفَ أين تُمنى النفسُ بتلكَ الخطيئة التي لا خلاصَ منها إلَّا بسرِّ النعمةِ المسيحيّة حتّى في الطفولةِ الأولى.

٧- لبضع سنوات، وفي كتابٍ لي في «**الإرادة الحرَّة**»، لاقى في البدء انتشارًا محدودًا، ثمَّ ما لبثَ أن راج الآنَ كثيرًا، أشرتُ إلى أربعة آراء حولَ أصلِ النفس. أهي امتدادٌ لنفسِ الإنسانِ الأوَّل؟ ألكلِّ مولودٍ جديد نفسٌ جديدة تُخلقُ معه؟ هل إنَّ الأنفُسَ موجودةٌ في مكانٍ ما، والله يُرسِلُها؟ أم إنّها تستقرُّ من تلقاءِ نفسِها في الأجساد؟ حسبتُ أنَّ عليَّ أن أدقِّقَ في هذه الآراء المختلفة، ولكن بشكلٍ يبقى معه رأيي، أينما وُجِدَت الحقيقة، على صلابتِهِ، ضدَّ الّذين يُريدونَ أن يُلصِقوا بالله، إلى جوهرِه، طبيعةً شرّيرة، عنيتُ بهم المانويّين (الإرادة الحرة: الكتاب الثالث؛ ٢١)؛ لم أكن بعدُ سمعتُ بالبريسيلّيانيّين[٢٤] الذين لا يختلفُ تعليمُهم، إلّا في القليل، عن تعليم المانويّين. لهذا لم أتطرَّقْ إلى رأيٍ خامس تُشيرُ إنتَ إليه، لئلَّا يفوتَكَ أيُّ شيءٍ في ردِّكَ على مرقلّينُسَ السعيد الذّكر، الذي يبقى أخانا في محبَّةِ المسيح. يدَّعي هذا الرأي بأنَّ النفسَ جزءٌ من

(٢٤) هم أتباع هرطقة بريسلّيانُس أسقف أفيلا Avila حتى سنة ٣٨٥، حين أدانَته كنيسة رومة الناشئة، وحكم عليه بالموت. تأثّرت البريسيلّيانيَّة بالغنوصيّة وكانت تقومُ على مبادئ ثلاثة:
- النفسُ جزءٌ من الله، أمَّا الجسدُ والمادَّة فمن مبدأ الشرّ.
- النجومُ والأفلاك هي التي تُحدِّدُ مصير النفس.
- أسماء الثالوث الأقدس الثلاثة تدُلُّ على الأقنوم نفسِه.

www.old-christianism.blogspot.com

الله. لم أقل شيئًا، في البدء، لأنَّ همّي لم يكن تجسُّدَ النفس، وإنّما طبيعتها؛ ثمَّ لأنَّ هذا كان رأي الذين أحاربُهُم، خاصّةً لكي أنأى بطبيعةِ الخالق المصونة والخالية من كلِّ عيب، عن طبيعة المخلوق الملوّثة بكلِّ دنس. والذين كنتُ أقاوِمُهم كانوا، في الواقع، يؤكِّدونَ أنَّ جوهر الله الصّالح نفسه، يحتوي على جزءٍ فاسِد، ومُخضَع، وملزم بأن يخطأ بفعلِ جوهرِ الشَّرّ الذي ينسبون إليه مبدأً خاصًّا وقدرات. فما خلا هذا الرأي الخامس الذي هو رأيُ هراطقةٍ ضالّين، أرغبُ في أن أعرِفَ أيّ رأي حولَ أصلِ النفسِ، بين الأربعة، هو الأفضل. ولكن مهما كانَ خيارُنا، معاذَ الله أن نُسلِّمَ بما يتعارضُ مع ذلكَ الإيمان الأكيد بأنَّ كلَّ نفسٍ، حتّى نفس الطفل الوليد، بحاجةٍ لمن يُنقذُها من الخطيئة، وأنَّ خلاصَها لا يتمُّ إلّا بيسوع المسيح، وبه مصلوبًا.

٨ – لنختصِرْ. لإنَّكَ تعتقد بأنَّ الله يخلقُ نفسًا لكلِّ إنسان يأتي إلى العالَم؛ ولئلّا يواجَه رأيُكَ هذا بأنَّ الله أنهى عملَ الخلقِ في اليوم السادس، وفي السابع استراح، فإنّك تردُّ هذا القولَ من الإنجيل: «أبي إلى الآنَ يعمل» (يوحنّا ٥؛ ١٧). هكذا كتبتَ لمرقِلّينُس؛ وفي رسالتكَ هذه تلطَّفتَ وتكلَّمتَ عنّي بكثيرٍ من العطف، وقلتَ له: «لديكَ أوغسطينُس في أفريقيا، وبوسعه أن يعلِّمَك في هذا الموضوع». (الرسالة ١٢٦ في مجموعة هيرونيمُس). فلو انّي استطعت، لما كانَ طلب حلًّا لهذه المسألة من رجلٍ يقيمُ على هذا البعد، إذا كان، فعلًا، كتب إليك من أفريقيا. لأنّي أجهلُ التاريخَ الذي كتب فيه إليك؛ كلُّ ما أعرفُهُ هو أنَّهُ تأكَّدَ من شكوكي حولَ هذه المسألة. لهذا رأى أن يكتبَ إليكَ من دون أن يُخبرَني. ولو أخبرني، لكنتُ شجَّعتُهُ كثيرًا، ولكنتُ

www.old-criticism.blogspot.com

شكرتُهُ على خطوة بوسعِها أن تكونَ مفيدة لنا جميعًا، لو انَّكَ لم تفضِّل أن تكتب له، باختصار، على أن تُعطيَه جوابًا وافيًا. وأعتقِد أنَّكَ لم ترَ فائدة في أن تعملَ لمكانٍ أقيمُ فيه، من حيثُ أنَّك تفترِض أنّي على قدرٍ من المعرِفة يُمكِّنُني من أن أَهدي مرقِلّينُس إلى ما يبحثُ عنه. أودَّ لو يكونُ هذا رأيي أنا أيضًا، ولكنّي لستُ متأكّدًا إلى الآن.

٩ – أرسلتَ إليَّ تلاميذَ لكي أعلِّمَهم أمورًا لم أتعلَّمها بعدُ أنا نفسي. فعلّمني، إذًا، ماذا يجبُ أن أعلِّم. كثيرونَ يُطالبونني بأن أعلِّمَهُم، وأعترف بأنّي أجهلُ هذا، كما أجهلُ أمورًا أخرى كثيرة؛ ولعلَّهُم لا يجرؤون على مواجهتي، فيردِّدونَ في ما بينهم: «أأنت معلِّمٌ في إسرائيل، وتجهل هذه الأشياء؟» (يوحنّا ٣؛ ١٠). هذا ما ردَّ به الرّبُّ على واحدٍ من الذين كانوا يُحبّون أن يقالَ عنهم معلِّمين. كان هذا قد جاءَ ليلًا إلى المعلِّم الحقيقيّ، رُبّما لأنَّهُ كان يخجل أن يتعلَّم ما اعتادَ أن يُعلِّمه؛ أمَّا أنا فأفضِّلُ أن أصغي إلى المعلِّم، على أن أقيمَ نفسي معلِّمًا. لأنّي أذكرُ ما قالَه للذين اختارَهُم دونَ غيرِهم: «أمّا أنتم فلا تَدعوا أحدًا يدعوكم «رابي»، لأنّ لكم معلّمًا واحدًا» (متّى ٢٣؛ ٨)، هو الذي علَّمَ موسى بِيَثرو (خروج ١٨؛ ١٤-٢٣)، وكورنيليوس ببطرُس رئيسه (أعمال ١٠؛ ٢٥-٤٨)، وبطرس ببولُس مرؤوسِه. فأيًّا كانَ الّذي يقولُ الحقيقة، إنّما يقولُها بنعمةٍ من المسيح يسوع الذي هو الحقيقة بذاتِها. فإذا كنّا لا نستطيعُ، إلى الآن، بصلواتنا وقراءاتِنا وتأمّلاتِنا وتحليلاتِنا، أن نعثُرَ على شيءٍ في مسألة أصلِ النفس، فمن يدري إذا كانَ ليسَ في هذا امتحانٌ لنا، لا لكي نُعلِّمَ الجهَلة بكثيرٍ من المحبَّة فحسب، بل أيضًا لكي نتعلَّم من العلماء، بكثيرٍ من الاتِّضاع.

www.old-criticism.blogspot.com

١٠ً – علّمني إذًا، أرجوك، ما عليَّ أن أعلِّمَه. علّمني ما الذي يجبُ أن أعتبره صحيحًا، وإذا كانت نُخلَقُ، كلَّ يوم، نفوسٌ للذين يولدون كلَّ يوم. قلْ لي كيف أخطأتْ بآدم، الذي منهُ ينتقلُ جسدُ الخطيئة؛ وكيف تخطأُ نفوسُ الأطفال فتكونَ بحاجةٍ إلى مغفرةِ الخطيئة في سرِّ المسيحِ المقدَّس؛ وإذا كانت لم تخطأ، قلْ لي بأيِّ عدلٍ من الخالق، يكفي أن تتّحدَ بجسدٍ مائت خارجٍ من جسدِ آدم، لكي تحملَ وزرَ خطيئةٍ غريبة، إلى درجة تعرُّضِها للهلاك، ما لم تبادر الكنيسة إلى نجدتِها، لكونها لا تستطيعُ أن تطلُبَ نعمة العماد. بأيِّ عدلٍ تهلك آلافُ نفوسِ الأطفال التي يفصلُها الموتُ عن أجسادِها، من دون مغفرةِ السّرّ المسيحيّ، إذا كانت، كخلائق جديدة، اتَّحدت بأجسادٍ وُلِدت من دونِ خطيئةٍ سابقة، بل بمشيئةِ الخالق؟

كان يعلم جيِّدًا أنَّ الخطأَ لا يقعُ عليها إذ خرجت من أجسادِها من دون معموديَّة المسيح. كما لا يسعُنا أن نقول بأنَّ الله يُلزِمُ النفوسَ بأن تخطأ، أو أن يُعاقِبَها وهي بريئة، ولا يجوزُ لنا أن ننكِر أنَّ نفوسَ الذين يموتونَ من دونِ سرِّ المسيح المقدَّس، وحتّى نفوس الأطفال، مصيرُها الهلاك. قلْ لي إذًا، أرجوك، كيف نؤكِّد أنَّ النفوسَ لا تخرجُ من نفسِ آدم، بل إنَّ الله هو الذي يخلقُها في كلٍّ منّا كما خلقَها في الإنسانِ الأوَّل؟

١١ً – أعتقد أنّ بوسعي أن أردَّ بسهولة على الإعتراضات الأخرى التي تقومُ في وجهِ هذا الرأي؛ على هذا مثلًا: كيف أنجزَ الله كلَّ أعمالِهِ في اليوم السَّادس، وفي السَّابع استراح (تكوين ٢؛ ٢)، إذا كان لا يزالُ يخلقُ نفوسًا جديدة؟ فإذا تذرَّعنا بنصّ الإنجيل الوارد في رسالتِك: «أبي إلى الآنَ يعمل»، أتانا الردُّ بأنَّ عملَ الله

www.old-criticism.blogspot.com

يقومُ على تدبير الطبائع المخلوقة، لا على خلق طبائعَ جديدة؛ وهكذا، لا يكونُ تعارضٌ مع نصّ التكوين الذي نقرأ فيه بوضوح أنَّ الله أنجزَ كلَّ أعمالِه. أمّا بشأن استراحتِه في اليوم السّابع، فينبغي أن نفهَم أنَّه توقَّفَ عن صنع خلائقَ جديدة، ولكنَّهُ لم يتوقَّف عن تدبيرِها؛ فلأنّهُ سبق أن خلَقَ تلكَ التي لم تكن بعدُ، استراحَ بتوقُّفِه عن خلقِها بعدَ أن أنجزَ كلَّ ما خطَّطَ له؛ وما سيعملُه بعدَ ذلك، لن يكون جديدًا، بل مأخوذٌ ممّا سبقَ أن صنعَه. بهذا نوافق بينَ النصّ القائل باستراحة اليوم السّابع، والنّصّ القائل بعمل الله المتواصِل. ولا يسعُ «الإنجيل» أن يُناقِضَ «التكوين».

١٢ - هذا ما يقولُهُ الذينَ لا يريدونَ لله أن يخلقَ أنفسًا جديدة كما خلقَ نفسَ الإنسان الأوَّل، ولكنَّهم يقولونَ بأنَّهُ يُخرجُها من نفسِ آدم، أو أنَّهُ يُرسِلُها كما لو انّه يأخذُها من ينبوعٍ أوّل أو من كنز؛ فنردُّ عليهم، بسهولة، بأنَّ الله، حتّى في الأيّام السّتّة، أخرجَ أشياءَ كثيرة ممّا سبق أن صنعه، كما أخرجَ من المياه، الطيورَ والأسماكَ، ومن اليبس الأشجارَ والعشبَ والبهائم: ولكنّهُ جليٌّ أنَّهُ صنع، إذ ذاك، أشياءَ لم تكن موجودةً بعد. لأنَّهُ لم يكن، بعدُ، لا طيرٌ ولا سمكةٌ ولا شجرةٌ ولا بهيمة؛ ويحقُّ لنا أن نفهَم بأنَّ الله استراح من تلكَ الأشياء التي سبقَ أن خلقَها، ولم تكن موجودةً فخلقَها، أي أنَّهُ توقَّفَ عن صنع مخلوقاتٍ جديدة. أمَّا الآن، فإنَّ التأكيدَ على أنَّ الله لا يُرسِلُ النفوسَ التي سبقَ أن كانت موجودةً لا أدري في أيِّ خزّان، وأنَّها لا تسيلُ قطُّ كأجزاء من اللهِ نفسِه، وأنَّها ليست خارجة من نفسٍ أولى، وأنّه لم يسبق لها أن اتحدت بأجسادٍ تُكفِّرُ عن خطايا سابقة، بل إنَّ نفسًا جديدةً تُخلَقُ لكلِّ مولودٍ جديد، فلا يعني هذا أنَّ الله صنع شيئًا لم يسبق أن صنعَه من قبلُ. وينبغي أن

www.old-criticism.blogspot.com

نفهم بلا تردُّد أنّ الله سبق أن صنعَ في اليوم السَّادس، على صورتِهِ، نفس الإنسان العاقلة. وهو الآنَ يصنعُ هذا، لا بخلقِه ما لم يكن، بل بتكثير ما كان. صحيحٌ، إذًا، أنَّ اللهَ استراحَ متوقِّفًا عن خلقِ ما لم يكُنْ بعدُ؛ وصحيحٌ أيضًا، أنَّه إلى الآنَ يعمل، لا بتدبيرِهِ ما خلقَ فحسب، بل بتكثيرِهِ ما سبقَ أن خلقَه. بهذا، أو بأيّ طريقة أخرى، نخرجُ من الصعوبة التي يُواجهوننا بها، بخصوص استراحة اليوم السّابع، لكي يمنعونا من الإيمانِ بنفوسٍ جديدة، لا خارجة من نفسِ الإنسانِ الأوَّل، بل مخلوقةٌ مثلَها.

١٣ – يقولون: ولماذا يخلقُ اللهُ نفوسًا للذينَ يعلم أنّهم لا يلبثونَ أن يموتوا؟ بوسعِنا أن نُجيب: لكي يواجهَ أهلَهم بخطاياهُم ويُعاقبَهم عليها. وبوسعنا كذلك أن نتركَ الأمرَ لحكمةِ الله الذي أجرى الأمورَ الزمنيَّة العابرةَ كلَّها مجرىً حسنًا ومنتظمًا، ومن ضمنِها ولادة الكائنات الحيَّة وموتُها. ولكن ليسَ بوسعِنا أن نُدركَ كنهَ هذه المعجزات، لأنّنا إذا أدركناها شعرنا بلذّةٍ لا توصف. وليسَ عبثيًّا كلامُ النبي حين يقولُ بوحيٍ إلهيّ: «الربّ ملكٌ إلى الأبد، ومن جيلٍ إلى جيل βασιλεύσει κύριος εἰς τὸν αἰῶνα καὶ εἰς τὸν αἰῶνα τοῦ αἰῶνος»[٢٥] (مزمور ١٠؛ ١٦ – السبعينيَّة). لأجلِ أن يُنبِّهَ اللهُ المائتين القادرينَ على الفهم إلى تلكَ الأمور العظيمة وهبَهُم الموسيقى، أي تذوُّقَ الأنغام الجميلة وفهمَها. فإذا كانَ المؤلِّفُ البارع يتقن ضبطَ أوزانِ الأصوات لكي يأتيَ النغمُ جميلًا، فمن بابٍ أوْلى أن يكونَ الله الذي خلقَ كلَّ شيء، بحكمتِهِ التي تسمو فوقَ كلِّ فن، قد حدّدَ، لولادةِ الكائنات وموتِها، أمكنةً

(٢٥) «الرّبُّ ملكٌ أبدَ الدهور» (مزمور ١٠؛ ١٦ – **الكتاب المقدَّس** – دار المشرق – ١٩٨٩).

www.old-criticism.blogspot.com

وأزمنةً تُشبِهُ مقاطعَ نشيدِ الأشياء العابرةِ الرّائع وكلماتِه. فأعطاها أزمنةً تتفاوتُ وفقًا للنغم الذي نظَمَهُ بعلمِهَ الأزليِّ المسبق. ووفقًا لهذا النظام، أفهمُ ورق الشجرة وعدد شعورِ رأسِنا؛ وأفهمُ، أكثر، ولادةَ الإنسان وموتَه، وأنَّ اللهَ يهبُه أيامًا قليلةً أو كثيرة بحسبِ ما يفرضُه تناغُم الكون!

١٤ً – كما أنَّ خصوم هذا الرّأي يقولون: «كلُّ ما بدأ في الزّمن لا يسعُه أن يكون خالدًا، لأنَّ كلَّ ما يولَد يموت، وكلَّ ما ينمي يذبُل». ويريدون، بهذه الطريقة، أن يجعلونا نُصدِّق أنَّ ما يُبرِّرُ خلودَ النفسِ البشريّة هو أنَّها خُلقت قبلَ كلِّ الدُّهور. لا يُقلقُني هذا الإعتراض. ولكي لا أتكلّم عن أشياءَ أُخَر، أقولُ بأنَّ المسيح بدأ إنسانًا في الزّمن، ومع ذلك فإنَّ جسدَ المسيح الإنسان «لن يموتَ بعد ذلك، ولن يكون للموت عليه سلطان» (رومة ٦؛ ٩).

١٥ً – ثمّة صعوبةٌ أخرى لا تهزُّني وأنا أفكِّرُ بماذا يُمكن أن يُردَّ عليها، هي تلكَ التي تُذكِّرُ بها في كتابِكَ ضدَّ روفينُس: «قد يُقالُ إنّهُ لا يليقُ بالله أن يهبَ نفوسًا لأجيالٍ فاجرة؛ وانطلاقًا من هذا ربّما يجهدون للتأكيد بأنَّه، من أجلِ التكفيرِ عن خطايا ارتُكِبت في حياةٍ أولى، يُمكن أن تُلقى النفوسُ في الأجساد كما في زنزانة». (هيرونيمُس؛ الردّ على روفينُس – الكتاب الثالث). وأجبتَ أنت نفسُك، بأنَّ عيبَ الزّرع ليسَ في حنطةٍ أخِذت من سارق، بل في من سرقَ الحنطة، ولم يكن بوسعِ الأرضِ أن تحرِمها حرارةَ جوفِها لأنَّ يدَ الزارعِ ليست طاهرة. المقارنة رائعة. حتّى قبل أن أقرأها، لم أكن أقيم أيَّ وزنٍ لعلاقات الزّنى التي يتسلّحون بها كمسألة بالغة الصّعوبة، لأنّي كنت أرى أنَّ الله يصنعُ خيرًا عظيمًا حتّى من شرورِنا وآثامِنا. كلّ عقلٍ تقيٍّ وعاقل يحترِم خلقَ أيِّ حيوانٍ كان، يُشيدُ بالله

www.old-criticism.blogspot.com

ويمتدحُه؛ فمن بابٍ أولى أن نرى مجدَهُ ساطعًا في خلق الإنسان. وإذا كنّا نسأل لماذا تُخلقُ كلُّ تلكَ النفوس، فإنَّ الجواب الأفضل والأكثر بداهة، هو أنَّ كلّ خليقة الله خليقة صالحة. وأيُّ شيءٍ يليقُ بإله، أكثرَ من أن يصنعَ ما هو صالح، وما لا يقوى سواه على صنعِه.

١٦ً - هذه الأمور، وأمورٌ أخرى أيضًا بوسعي أن أقولَها، وقد أَلِفْتُ قولَها، وأواجِه بها الذين يجهدون لتقويض الرأي القائل بأنَّ النفوسَ تُخلقُ لكلِّ إنسان كما خُلِقت النفسُ الأولى للإنسان الأوّل. ولكن، عندما أصلُ إلى عقابِ الأطفال، صدِّقني، أبقى في حيرةٍ كبيرة، ولا أجدُ ما أردُّ به. لا أتكلَّمُ فقط عن العذابات التي تلي الهلاكَ المحتوم بعد هذه الحياة، إن هم ماتوا من دون سرِّ النعمة المسيحيَّة، بل حتّى عن تلكَ التي يُقاسونَها في هذا العالَم تحتَ أعيُنِنا. فلو أردتُ أن أعدِّدَها، فالوقتُ هو الذي سيعوزني، لا الأمثلة. أطفالٌ تُبرِّحُهُم الأسقام، وتمزِّقُهم الآلام، ويُرهقُهم الجوعُ والعطش، مُقعدون، محرومون من حواسِّهم، تُعذِّبهم الأرواح الشّرّيرة. يقتضي أن نوضِحَ كيفَ لهؤلاءِ أن يُعانوا، بعدلٍ، كلَّ هذا. لا يجوز أن نقول إنَّ هذه الأمور تحدُثُ من غير علم الله، ولا أنّه لا يقوى على مقاومة مُسبّبي تلكَ الشّرور، أو هو الذي يسمحُ بها، أو يأتيها ظُلمًا. أمسموحٌ لنا أن نقولَ إنَّ الله وضعَ في خدمة المخلوقاتِ العاقلة حيواناتٍ بطبيعتِها غيرَ عاقلة، وقد تكون شرّيرة، كما نرى بوضوحٍ في الإنجيل حولَ قطيع الخنازير الذي انصاعَ لجوق الشّياطين ولرغباتِه؟ (متّى ٨؛ ٣٢). الإنسان حيوانٌ، ولكنَّهُ عاقلٌ ولو انّهُ مائت. إنَّ من يُعاقَبُ، في هذا الجسد، بتلكَ العذاباتِ الفظيعة، هي النفسُ التي وُهبت عقلًا. الله صالح، الله عادل، اللهُ كلّيُّ القدرة؛ جاهلٌ من يشكُّ في هذا. فلنقلْ، إذًا، إنَّ الأطفالَ

www.old-criticism.blogspot.com

ويمتدحُه؛ فمن بابٍ أولى أن نرى مجدَهُ ساطعًا في خلق الإنسان. وإذا كنّا نسأل لماذا تُخلقُ كلُّ تلكَ النفوس، فإنَّ الجواب الأفضل والأكثر بداهة، هو أنَّ كلّ خليقة الله خليقة صالحة. وأيُّ شيءٍ يليقُ بإله، أكثرَ من أن يصنعَ ما هو صالح، وما لا يقوى سواه على صنعِه.

١٦ً - هذه الأمور، وأمورٌ أخرى أيضًا بوسعي أن أقولَها، وقد ألِفْتُ قولَها، وأواجِه بها الذين يجهدون لتقويض الرأي القائل بأنَّ النفوس تُخلقُ لكلِّ إنسان كما خُلِقت النفسُ الأولى للإنسان الأوّل. ولكن، عندما أصلُ إلى عقابِ الأطفال، صدِّقني، أبقى في حيرةٍ كبيرة، ولا أجدُ ما أردُّ به. لا أتكلَّمُ فقط عن العذابات التي تلي الهلاكَ المحتوم بعد هذه الحياة، إن هم ماتوا من دون سرِّ النعمة المسيحيَّة، بل حتّى عن تلكَ التي يُقاسونَها في هذا العالَم تحتَ أعيُنِنا. فلو أردتُ أن أعدِّدَها، فالوقتُ هو الذي سيعوزني، لا الأمثلة. أطفالٌ تُبرِّحُهُم الأسقام، وتمزِّقُهم الآلام، ويُرهقُهم الجوعُ والعطش، مُقعدون، محرومون من حواسِّهِم، تُعذِّبهم الأرواح الشّرّيرة. يقتضي أن نوضِحَ كيفَ لهؤلاءِ أن يُعانوا، بعدلٍ، كلَّ هذا. لا يجوز أن نقول إنَّ هذه الأمور تحدُثُ من غير علم الله، ولا أنّه لا يقوى على مقاومة مُسبّبي تلكَ الشّرور، أو هو الذي يسمحُ بها، أو يأتيها ظُلمًا. أمسموحٌ لنا أن نقولَ إنَّ الله وضعَ في خدمة المخلوقاتِ العاقلة حيواناتٍ بطبيعتِها غيرَ عاقلة، وقد تكون شرّيرة، كما نرى بوضوح في الإنجيل حولَ قطيع الخنازير الذي انصاعَ لجوق الشّياطين ولرغباتِه؟ (متّى ٨؛ ٣٢). الإنسان حيوانٌ، ولكنَّهُ عاقلٌ ولو انّهُ مائت. إنَّ من يُعاقَبُ، في هذا الجسد، بتلكَ العذاباتِ الفظيعة، هي النفسُ التي وُهبت عقلًا. الله صالح، الله عادل، اللهُ كلّيُّ القدرة؛ جاهلٌ من يشكُّ في هذا. فلنقلْ، إذًا، إنَّ الأطفالَ

www.old-criticism.blogspot.com

وإليكَ هذا المقطع من الكتاب الثالث. إنّهُ لا يُرضيني في شأنِ المسألة التي تشغلُنا، وسأقولُ لك لاحقًا لأيِّ سبب:

«ولنأتِ إلى الآلام الجسديَّة التي يُعانيها أولئكَ الأطفال، وهم في عمرٍ لا يقوَوْن على ارتكاب أيَّ إثم. إذا لم تكن نفوسُهم التي بها يحيَون موجودةً قبلَهم، كانت شكوانا جائزة والشفقة هي التي توحي بها، فنقول: أيَّ شرٍّ أتَوا ليلقَوا مثل هذا العذاب؟ ولكن هل تبقى البراءة فضلًا إذا استحالَ صتع الشرّ؟».

«وإذا كان اللهُ يصنعُ أمرًا صالحًا بتأديبِه الأهل، بمعاقبتِهم بآلام أطفالِهم الأحبّاء وبموتِهم، فمن يمنعُه من اللجوءِ إلى هذه الوسيلة؟ على أنّ تلكَ الآلام، بعد زوالِها، فكأنَّها لم تكُن، بالنسبةِ للأطفال؛ أمَّا الأهلُ الذين سمحَ الله بها لخيرِهم، فإمّا أن يجنوا فائدةً من تلكَ المآسي الزمنيَّة، ويُصلِحوا أنفُسَهُم، ويعيشوا حياةً أكثرَ تعقُّلًا، وإمّا كانوا، في يومِ الدّينونة، بلا عذر، إذا كانت آلامُ الحياة لم تحملْهُم على أن يوجِّهوا قلوبَهُم نحوَ الحياة الأبديَّة. أمّا أولئكَ الأطفال الذين تُحطِّمُ آلامُهم قسوةَ الأهل وتُحرِّكُ إيمانَهُم وتمتحنُ عطفَهُم، فمن ذا يعرِفُ ماذا يحفظُ لهم الله من تعويضٍ في سرِّ أحكامِه؛ لأنّهُم إذا كانوا لم يصنعوا خيرًا، فكذلك، لا يُعاقَبونَ تكفيرًا عن خطايا لم يقترفوها؟ وهل عبثًا تكرّم الكنيسةُ، كشهداء، الأطفالَ الذين قتلَهم هيرودُس يوم كان هذا يطلبُ سيّدنا يسوعَ المسيح ليقتُله؟». (الإرادة الحرّة - الكتاب الثالث ٢٣؛ ٦٨).

١٩ - هذا ما قلتُهُ راغبًا في دعم الرأي الذي نحنُ بصددِه. وكما ذكرتُ آنفًا، فأينَما وُجدَت الحقيقة في هذه الآراء الأربعة حولَ مبدأ النفس، سأجهدُ لكي أبرهن أنَّ جوهرَ الخالق لا يطالُهُ عيب،

www.old-criticism.blogspot.com

وهو بعيدٌ جدًّا عن خطايانا. قلّما همَّني ما في تلكَ الآراءِ من خطأ أو صواب، في الهدفِ الذي كنت أسعى إليه. وأيًّا كانَ الرأي الذي سيخرُجُ منتصِرًا بعدَ نقاشٍ مُعمَّق، فسأبقى في مأمن، من حيثُ أنّي كنتُ أُبرهنُ بأنَّ رأيي سيبقى منيعًا أمامها كلَّها. أمّا اليوم، إن استطعتُ، فأريدُ أن أختارَ رأيًا يتلاءمُ والعقلَ السّديد. أمّا وأنا أُدقّقُ مليًّا في النصّ الّذي أوردتُهُ أعلاه، خدمةً للرأي الذي يشغلُنا، فلا أراه متينًا.

٢٠ - كلُّ قوةِ النصّ تكمن في هذه الكلمات: «أمّا أولئكَ الأطفال الذين تُحطِّمُ آلامُهم قسوةَ الأهل وتُحرِّكُ إيمانَهُم وتمتحنُ عطفَهُم، فمن ذا يعرِفُ ماذا يحفظُ لهم الله من تعويضٍ في سرِّ أحكامِه؟» ولكنّي أرى أنَّ هذا ربّما يُقالُ، عن حقّ، في الذين، ولو على غيرِ علم منهم، عانَوْا مثل هذه الآلام، لأجلِ اسم المسيح، أو لأجلِ الإيمانِ الصحيح، وسبقَ أن اقتبلوا سرَّ المسيح المقدَّس، لأنّهم إذ لم يكونوا أعضاءً للوسيط الوحيد، لا يستطيعون أن يُفلِتوا من الهلاك، فيمنحُهم بذلك تعويضًا عن آلامٍ قاسَوْها في هذه الدّنيا. ولكنَّ الصعوبة تبقى قائمة إذا لم نُعطِ جوابًا بشأن أولئكَ الأطفال الذين، بعد أن يُعانوا آلامًا مُبرِّحة، يموتون من دون سرِّ الشركة المسيحيَّة المقدَّس؛ فأيّ تعويضٍ يُمكنُ أن نتصوَّرَه لهم ما دامَ الهلاكُ هو الذي ينتظرُهُم؟ وتكلَّمتُ في الكتاب نفسِه عن معموديَّة الأطفال، لا كما يجب، بل بالقدر الذي بدا لي مناسبًا؛ وقلتُ بأنَّ المعموديَّةَ مفيدة، حتّى للأطفال الذينَ لا يعرفونَ طبيعتَها، وليسَ لهم إيمانٌ خاصٌّ بهم؛ ولم أحسب أنَّ من واجبي أن أتطرَّقَ إلى هلاكِ الأطفال الذين يموتونَ من غير معموديَّة، لأنَّ هذا لم يكن واردًا في حينِه في المسألة الّتي تشغَلُنا الآن.

www.old-criticism.blogspot.com

٢١ً – ولكن، فلنتجاوزْ هذا، إذا شئنا، ولا نُقِمْ وزنًا لما يُعانيه أولئكَ الأطفال في حياةٍ قصيرة، ومتى انقضى لا يعود؛ فهل بوسعنا ألّا نهتمَّ بجدّيّة بالكلمات التي يُعلِنُ لنا فيها الرسول أنّه: «بما أنَّ الموتَ بإنسان، فبإنسانٍ أيضًا قيامة الأموات، فكما في آدم يموتُ الجميع، كذلك يحيا الجميعُ في المسيح» (١ قور ١٥؛ ٢١-٢٢). إنَّ كلمات الرسول الإلهيّة الصريحة، تبيِّنُ لنا بوضوح كافٍ أنّه ليسَ من أحدٍ يذهب إلى الموت إلّا في آدم، ولا إلى الحياةِ الأبديَّة إلّا في المسيح. «الجميع»، يقولُ بولُس، «الجميع»؛ لأنَّهُ كما أنَّ جميع الناسِ الذين هم من آدم، يولدون في الجسدِ ولادةً أولى، كذلكَ فإنَّ جميع الناس الذين في المسيح، يولدون ولادةً جديدة، أي الولادة الروحيَّة. من أجلِ هذا يقولُ الرّسول «الجميع»، أوّلًا وثانيًا. ومرَّةً بعدُ، كما أنَّ جميع الذين يموتون، لا يموتونَ إلّا في آدم، كذلكَ فإنَّ جميعَ الذين يحيون، لا يحيَونَ إلا في المسيح. فكلُّ من يدَّعي أنَّ بوسعِنا، يوم القيامة، أن نقوم من دون أن نحيا في المسيح، ينبغي فصلُهُ عن إيمانِنا وتجنُّبه تجنُّبَ الطاعون؛ وكلُّ من يؤكِّد بأنَّ الأطفالَ الذين يموتون من دون عماد، يحيَونَ في المسيح، يتعارضُ، حكمًا، مع تعليم الرّسول، ويدينُ الكنيسة كلَّها؛ وهذا ما يحملُ الكنيسة على الإسراعِ في منحِ الأطفال سرَّ العماد، لأنّها تؤمنُ، من غيرِ أيِّ شكٍّ، بأنّه لا يسعُهم أن يحيَوْا إلا في المسيح. والذي لا يحيا في المسيح يبقى تحتَ الدينونة بحسبِ قولِ الرَّسول: «بزلَّةِ إنسانٍ واحدٍ عمَّ الموتُ جميعَ النّاس» (رومة ٥؛ ١٨). الكنيسةُ كلُّها تؤمنُ بأنّ الأطفالَ يولدونَ في خطيئةِ ذلكَ الواحد. وأنت نفسُكَ أكّدتَ، بأمانةٍ، على هذه الحقيقة، إن في ردِّكَ على يوفينيانُس، أو في شرحِكَ نبوءة يونان، كما سبق أن ذكرتُ أعلاه.

www.old-criticism.blogspot.com

ولا بدَّ من أنَّكَ أكَّدتَ على هذا في عددٍ من مؤلَّفاتِك الأخرى التي لم يتسنَّ لي أن أقرأها، أو تلكَ التي لا أتذكَّرُها. إنّي أبحثُ، إذًا، عن مبرِّرٍ لهلاكِ هؤلاءِ الأطفال، لأنَّهُ، إذا كانت نفوسُهُم خُلِقت مع ولادة أجسادِهِم، فإني لا أرى خطيئةً ممكنة في مثلِ تلكَ السّنّ، ولا أظنُّ أنَّ اللهَ يُهلِكُ نفسًا بلا خطيئة.

٢٢ - ربَّ قائلٍ بأنَّ الجسدَ وحدَهُ، في الأطفال، هو سببُ الخطيئة، وإنَّ لكلِّ واحد نفسًا جديدة تُخلَقُ له، حتّى إذا عاشَ بحسب وصايا الله، وبمعونة نعمة المسيح، تمكَّنَ من أن يحصَلَ، لجسدِهِ المقهورِ المُخضَع، على نعمةِ عدم الفساد؛ ولكن، بما أنَّ النفسَ، في الطفل، لا يسعُها أن تفعلَ ذلك، من دون أن تنالَ سرّ المسيح المقدَّس، فإنَّها، بهذه النعمة، ستفوزُ بما لم تستطع بعدُ أن تفوزَ بهِ بسيرتِها الحسنة. وإذا غادرتِ الدّنيا من غيرِ معموديَّة، ستكون لها حياةٌ خالدة لا تفصِلُها عنها خطيئة؛ أمّا جسدُها فلن يحيا في المسيح، لأنَّهُ لم ينل سرَّه المقدَّس قبلَ أن يموت.

٢٣ - هذا ما لم أسمع بمثلِه. أمَّا ما سمعتُهُ وما أؤمن به ولأجلِهِ تكلَّمت، هو أنَّهُ: «ستأتي ساعةٌ يسمعُ فيها جميعُ من في القبور صوتَهُ، فيخرُجُ الذين عملوا الصّالحات إلى قيامةِ الحياة» (يوحنّا ٥؛ ٢٨-٢٩). وهي نفسُها القيامة التي يتحدَّثُ عنها الرّسول: «بإنسانٍ واحدٍ قيامةُ الأموات» وهي القيامة نفسُها الّتي بها «يحيا الجميعُ في المسيح» (١ قور ١٥؛ ٢١-٢٢). ولكنَّ «الذين عملوا السّيّئات، فإلى قيامة الدينونة» (يوحنّا ٥؛ ٢٩). فأيّ رأيٍ ينبغي أن نتَّبع في شأن الأطفال الذينَ ماتوا بلا معموديَّة قبلَ أن يصنعوا خيرًا أو شرًّا؟ لا أحدَ يقولُ شيئًا في هذا. ولكن، إذا كان جسدُهم لا يحيا، لأنَّهم لم يصنعوا لا خيرًا ولا شرًّا، فإنَّ جسدَ

www.old-criticism.blogspot.com

الذين ماتوا بعدَ المعموديّة، وفي عمرٍ لم يتسنَّ لهم بعدُ فيه أن يصنعوا لا خيرًا ولا شرًّا، لا ينبغي أن يحيا هو أيضًا. فإذا قام أولئكَ مع الأخيار، أي مع المؤمنينَ الذين صنعوا الخير، فمع من يقوم هؤلاء، إن لم يكن مع الأشرار الذين صنعوا الشرّ؟ يجب ألّا نعتقد بأنّه سيكون هناكَ نفوسٌ لا تلبسُ أجسادَها، سواءٌ أكان لقيامةِ الحياة أو لقيامة الدّينونة. إنَّ هذا الرّأي، حتّى قبلَ أن يُرفض، لن يكون مُرضِيًا، على جِدَّتِه. وبعدُ، فهل يُمكن أن نتخيَّل أنَّ الذين يُبادرون مسرعين إلى عماد أولادِهِم، يهتمّون بخلاص الأجسادِ لا بخلاصِ النفوس؟ إنَّ قبريانُس المغبوط لم يأتِ بوصيَّةٍ جديدة، بل عمل على تثبيت إيمان الكنيسة عندما أعادَ إلى الحقّ أولئكَ الذين كانوا يقولون بأنّه لا ينبغي أن يُعمَّدَ الطفلُ قبل اليوم الثّامن لولادته، فقال إنَّ النفسَ هي التي ينبغي العملُ لخلاصِها لا الجسد، ورأى، هو وبعضُ رفاقِهِ في الأسقفيَّة، أنَّ الطفلَ يمكنُ أن يقتبلَ سرَّ المعموديّة فورَ ولادتِه، بحسبِ الشّعائر المفروضة.

٢٤ - ليُثمِّن كلُّ واحدٍ، كما يشاء، رأيًا طلعَ به قبريانُس، ولعلَّ هذا الرجل العظيم لم يرَ فيهِ ما كان ينبغي أن يراه؛ ولكن، لا يحيدَنَّ أحدٌ عن إيمانِ الرّسول الذي يُعبِّرُ عنهُ بصراحة ووضوح، عندما يُعلِّم أنَّهُ بزلَّةِ إنسانٍ واحد عمَّ الموتُ جميعَ الناس، ونعمةُ الله وحدَها هي التي تُخلِّصُنا بيسوع المسيح ربِّنا، الذي به يحيا جميعُ المُخلَّصين. ولا يناًيَنَّ أحدٌ برأيِهِ عن تقاليدِ الكنيسة الثابتة؛ وإلّا لكنّا نُعمِّدُ الموتى أيضًا، لو كنّا لا نضع نصبَ أعيُننا إلا خلاص أجساد الأطفال.

٢٥ - أمَّا والحالُ هذه، فينبغي أن نبحثَ، لكي نكتشف ما يُسبّب هلاك نفوسِ الأطفال الذين يموتونَ من دون سرِّ المسيح

www.old-criticism.blogspot.com

المقدَّس، لأنَّ الكتب المقدَّسة والكنيسة تُعلّمُنا بأنَّ نفوسَ الأطفال الذين يموتون بلا معمودية، هالكة. فإذا كان الرأي في خلقِ النفوسِ الجديدة لا يتعارضُ مع إيمانِ الكنيسة الأساسيّ، فليكن هو رأيي أيضًا؛ أو لا، فلا تدعْهُ يكونُ رأيَك.

٢٦ - لا أريدُ أن يدعَمَ لي أحدٌ رأي الكتاب القائل: «الجابلُ روحَ الإنسان فيه» (زكريّا ١٢؛ ١)، وكذلك: «هو جابلُ قلوبِهِم جميعًا» (مزمور ٣٣؛ ١٥). إنّنا بحاجةٍ لشيءٍ متينٍ وصلب، يُرغِمنا على أن نُصدِّق أنَّ الله بوسعِه أن يُهلِكَ نفوسًا لم تخطأ. الخلق مساوٍ للصنع، ولعلّه أعظم؛ كُتِب: «قلبًا نقيًّا أُخلقْ فيَّ يا ألله» (مزمور ٥١؛ ١٢)، وهذا المقطع لا يُمكن أن يعني أنَّ النفسَ تتمنّى أن توجد قبلَ أن تكونَ شيئًا ما. فكما أنّها، وهي موجودة، خلِقت وتجددت بالحقّ، كذلك، وهي موجودة، صُنعت لتكون متوافقةً مع العقيدة. إنّ هذا الرأي الذي ربّما نرغبُ في اتِّباعه لا يبدو مستندًا إلى هذا النّصّ من الجامعة: «فيعودُ التراب إلى الأرض حيثُ كان، ويعود الرّوح إلى الله الذي وهبَه» (جامعة ١٢؛ ٧). إنَّ هذه الكلمات تُعزِّزُ، بالأحرى، رأي القائلينَ بأنَّ جميعَ النفوس مصدرُها نفسٌ واحدة. فهم يقولون أيضًا إنَّ التراب يعودُ إلى الأرض حيثُ كان، والجسد الذي نحنُ بصدَدِه، لا يعودُ إلى الإنسان حيثُ كان، بل إلى الأرض التي جُبِلَ منها الإنسانُ الأوَّل. وهكذا النفسُ التي جاءت من نفسِ فردٍ، لا تعودُ إليه، بل إلى الرَّب الذي وهبَهُ إيّاها. إنَّ هذا النصّ، على ما يُظهرهُ من دعمٍ للقائلينَ بهذا الرّأي، لا يبدو مناقِضًا تمامًا للرأي الذي أريد الدّفاعَ عنه. وأعتقد أنَّ من واجبي أن أنبِّه حكمتَك ألّا تعمدَ إلى براهين مماثلة، سعيًا إلى تبديد شكوكي. ومع أنَّ التمنّيات ليست هي التي تجعلُ الحقيقةَ حقيقةً، إلّا أنّي أتمنّى أن

www.old-criticism.blogspot.com

يكون هذا الرأي متوافقًا مع الحقيقة، كما أتمنّى أن تُثبتَ بوضوحٍ وبصورةٍ مقنعة إذا كان هذا الرأي صائبًا.

٢٧ - والصعوبة هي هي، للذين يؤمنون بأنَّ الله يُرسِلُ إلى الأجساد نفوسًا سبق أن وُجدت في غيرِ مكان، وحُفظَت منذُ بدء عملِ الله. إنّنا نسألُهم، كذلك، إذا كانت الأنفس الطاهرة تأتي طائعةً إلى حيثُ تُرسل، ولماذا تُعاقَب في الأطفال الذين يموتونَ بلا معموديَّة. وهكذا ترانا، لا محالة، أمام الصعوبة نفسِها، في الرأيَين على حدٍّ سواء. والذين يقولون بأنَّ النفوسَ تدخلُ في الأجساد تبعًا لما تكون تلكَ الأجساد صنعتهُ في حياةٍ أولى، يتوهَّمون بأنَّهُم يتخلَّصون من هذه المسألة الشّائكة بسهولةٍ أكبر. يقولون إنَّ الموت بآدم موتٌ في الجسد المأخوذِ من آدم؛ ويُضيفون أنَّ نعمة المسيح تخلِّصُ، من حالِ الخطيئةِ هذه، الصغارَ والكبارَ على السَّواء. صحيحٌ وجيِّدٌ، بل جيدٌ جدًّا، أن نقولَ إنَّ نعمة المسيح تخلِّصُ الخاطئين، كبارًا كانوا أم صغارًا، ولكنّي لا أعتقدُ، ولا أوافق، ولا أسلِّم بأنَّ نفوسًا تخطأُ في حياةٍ أخرى غيرِ هذه، ثمَّ تُطرَحُ في سجونٍ من لحم. أوّلًا، لأنَّ القائلين بهذا الرأي يجعلون النفوسَ تدور لا أدري في أيّ متاهات، وبعد أجيالٍ لا أعلمُ عدَدَها، يُعيدونَها لكي تنوءَ تحت ثقلِ جسدٍ فاسد، وتتعرَّض لعذاباتٍ جديدة: لا أتخيَّلُ رأيًا أشدَّ هولًا من هذا. وأرفضُه، ثانيًا، لأنَّهُ إذا كان صحيحًا، فأيُّ مائتٍ، مهما بلغَ من قداسة، لن يُقلِقَنا مصيرُه؟ قد نخشى عليه أن يخطأ وهو في حضنِ إبراهيم، فيُلقى في لهيبِ الغنيِّ الشّرّير (راجع لوقا ١٦؛ ٢٢-٢٣). ولماذا لا يكون بإمكانِه أن يخطأ، بعد هذه الحياة، إذا كان قد خطِئ قبلَها؟ وأخيرًا، فالخطيئة بآدم «الذي به كانت زلة جميع النّاس»، بحسب كلام الرّسول، هي غيرُ الخطيئة،

www.old-criticism.blogspot.com

لا أدري أينَ، خارجًا عن آدم، وبسببِها نُلقى في سجنِ آدم، أي في الجسد المولود من آدم. أمَّا بشأن الرّأي القائل بأنَّ جميع النفوس تولدُ من نفسٍ واحدة، فلا أريدُ أن أناقشَ فيه، ما لم أكن مكرَهًا على ذلك. وأسألُ الله أن يلقى منكَ الرّأي الذي يهمّنا في الوقتِ الحاضر، إذا كانَ يتوافقُ مع الحقيقة، الدّفاعَ الذي يستحقُّه، فتوفِّر عليَّ ذلكَ الإكراه!

٢٨ إنّي أصلّي إلى الله، وأتوسَّلُ إليه، وأتمنى بحرارة أن يستعملَك لكي تنزعَ منّي جهلي حولَ هذه النقطة، إلّا أنَّني، إن لم أنلْ مبتغاي، لا سمح الله، فسأسأل الله الصّبر: إنَّ ثقتنا بهِ لا تسمح لنا بأن نتذمَّر، إن لم يفتَح لنا الباب فورَ قرعِه. أذكرُ ما قيلَ للرّسُلِ أنفُسِهم: «لديَّ أشياءُ كثيرةٌ أخرى أقولُها لكم، ولكنَّكم لا تُطيقونَ الآن حملَها». (يوحنّا ١٦: ١٢). أحسبُ القولَ موجَّهًا إليَّ، فلا أشكو إذا ما اعتُبرتُ غيرَ جديرٍ بمعرفةِ هذه الأمور، لأنّي إذا شكوتُ سأكون، بعدُ، أقلَّ جدارةً. ثمَّةَ أشياءُ أخرى كثيرة أجهلُها، حتّى أنّي لا أستطيعُ أن أذكرَها ولا أن أعدِّدَها. وحتّى في المسألة التي نحنُ بصددِها، فقد أرضى بألّا أعرِفها، لولا خشيتي أن تتسلّل إلى عقولِ بعضِ الجهلاء أمورٌ تُناقِضُ الإيمان. ولكن، قبل أن أعرفَ أيّ الآراء الأربعة هو الأصح، أؤكِّدُ، بلا ادّعاء، أنّ الرأي الصائب لا يسعه أن يتناقضَ مع الإيمان الرّاسخ الذي لا يتزعزع، الذي به تؤمن الكنيسة بأنَّ الأطفال لا يُمكن أن يخلُصوا من الهلاك، إلّا بنعمة اسم المسيح الموجودة في أسرارِه المقدَّسة.

www.old-criticism.blogspot.com

١٤ - من أرغسطينُس إلى هيرونيمُس

في هذه الرّسالة يسير أوغسطينُس في نظريَّة القديس يعقوب بأنّ «من حفظ النّاموسَ كلَّه وإثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». (يعقوب ٢: ١٠)؛ ويُفسِّرُها بقولِه إنَّ كلَّ خرقٍ للشريعة خرقٌ للمحبَّة. ويستفيدُ من المناسبة لينتقدَ نظريّتَين سائدتَين في ذلكَ الحين: الأولى في أنَّ جميعَ الخطايا متساوية، والثانية في أنَّ من كانت له فضيلةٌ واحدة كانت لهُ كلُّ الفضائل، ومن فازَ بواحدة، فازَ بها كلِّها. يُطالعُنا في هذه الرسالة معلّم الأخلاق المسيحي الواثق من عمقِ رأيِه وصحّتِه. يعود تاريخها إلى العام ٤١٥؛ وهي تحمل الرقم ١٦٧ في مجموعة أوغسطينُس و١٣٢ في مجموعة هيرونيمُس.

أ - كتبت لك، أيّها الأخ الجليل هيرونيمُس في موضوع مبدأ النفس البشريَّة؛ وسألتُك: في حال كان صحيحًا أنَّ الله يخلقُ نفسًا جديدةً لكلِّ مولودٍ جديد، فأينَ تكون قد ارتكبت الخطيئة التي تمحوها أسرار المسيح المقدّسة حتّى في الطفل الوليد، الأمر الذي لا يُراودُنا فيه أيّ شك. كانت رسالتي من الطّول، بحيثُ لم أشأ أن أُثقِلَها بأسئلةٍ أخرى. ولكن، كلَّما كانَ الشيء أشدَّ إلحاحًا، كلّما وجبَ أن يحظى باهتمامٍ أكبر. وها أنذا أسألُكَ وأستحلِفُك، باسم الله، بأن تشرحَ لي ما سيكونُ فيه، برأيي، فائدةٌ لكثيرين؛ أو إذا كنا شرحناهُ نحنُ، أو شرحه سوانا، أن تتلطَّفَ وتُصوِّبه. المسألة هي

www.old-criticism.blogspot.com

معرفة كيف يجب أن نفهم كلامَ رسالة القدّيس يعقوب حين يقول: «من حفظ الناموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». (يعقوب ٢؛ ١٠). إنَّها مسألةٌ ترتدي أهمّيّةً كبرى، بحيث آسفُ شديدَ الأسف ألّا أكون كتبتُ لكَ بشأنِها إلى الآن.

٢ - ليسَ المقصودُ هنا ما كان في حياةٍ أولى لا نتذكّرُها، كما هي الحالُ في أحدى النظريّات حولَ مبدأ النفس؛ إنّما المقصود الحياة الحاضرة، وما علينا أن نعملَهُ لكي نبلغَ الحياة الأبديّة. ثمّةَ جوابٌ جيّدٌ يتردّد، ويأتي هنا تمامًا في مكانه الصّحيح. وقعَ رجلٌ في بئر؛ لم يكن عمقُ الماءِ كافيًا لإغراقِه، فحُفِظَ من الموت، وبقي قادرًا على التكلّم؛ توقّف عابرُ سبيل ونظرَ إليهِ وقال: كيفَ سقطْت هنا يا رجُل؟ أجابَهُ البائس: أرجوكَ اعمل على انتشالي من هنا، ولا تسألْني كيفَ سقطْتُ! الإيمانُ الكاثوليكيّ يُعلّمنا، ونحنُ نعترف، بأنّ النفسَ، ولو نفسَ طفلٍ صغير، ينبغي انتشالُها من الخطيئة كما من بئر. حسبُها أن نعرفَ كيفَ يُمكنُنا أن نُنقِذَها، حتّى ولو بقينا نجهلُ كيفَ سقطَتْ في هذا الشرّ. إذا اعتقدتُ بأنَّ من واجبي أن أطلبَ الحقيقة حولَ هذه المسألة، فذلك خوفًا من أن تقودَني، على غيرِ فطنةٍ منّي، إحدى النظريّات في مبدأ النفس، إلى إنكار الخطيئة الأصليّة وضرورةِ إنقاذِ نفسِ الطفل منها. فلنتمسّك، إذًا، بصلابة، وقبلَ كلِّ شيء، بتلكَ الحقيقة، بأنّهُ ينبغي إنقاذُ نفسِ الطّفل من حال الخطيئة، وأنَّ إنقاذَها غيرُ ممكنٍ، إلّا بنعمةِ الله باسم ربِّنا يسوع المسيح. وبعد ذلك، إذا كانَ بوسعِنا أن نعرفَ سببَ الخطيئة وأصلَها، سنكون في وضعٍ أفضل، لمحاربة خطابات المماحكين الباطلة، لا خطابات المحلّلين؛ وإذا كنّا لا نقوى على ولوجِ كنهِ هذا السّر، فينبغي ألّا يحجُبَ عنا جهلُنا بأصلِ تلك

www.old-criticism.blogspot.com

الخطيئة، دواء نعمةِ الله الشّافي. إنَّ ما يُميِّزُنا عمّن يعتقدون بأنَّهم يعرفون ما لا يعرفونَه، هو أنّنا لسنا جاهلين بجهلِنا. ثمّةَ فارقٌ بين أمرٍ يُضيرُنا عدمُ معرفتِه، وأمرٍ ليسَ بوسعِنا أن نعرِفه، أو لسنا بحاجةٍ لمعرفتِه، أو لا ينفعُ في شيء الحياة التي نسعى إليها. أمّا الذي أطلبُهُ الآنَ حولَ رسالة يعقوب الرّسول، فيذهب مباشرةً في اتّجاه الحياة الحاضرة التي نجهدُ فيها لإرضاء الله، لكي نستحقَّ الحياة الأبديّة.

٣- قل لي إذًا، أستحلفُك، كيف يجب أن نفهم هذا المقطع: «من حفظ الناموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». فهل يكون قاتلًا وزانيًا ورجِسًا، من سَرَقَ أو من قالَ لغنيٍّ: إجلِس، ولفقيرٍ: ابقَ واقفًا؟ وإذا لم يكنِ الأمرُ كذلك، فكيفَ يصيرُ آثمًا في الناموسِ كلِّه، من أثِمَ في أمرٍ واحد؟ وما قاله القدّيس يعقوب عن الغنيّ والفقير، ألا ينبغي أن يُفهَمَ من ضمنِ الأمور التي، إذا أثم المرءُ في واحدٍ منها، صار آثمًا في الكلّ؟ ولكن، فلنتذكّر الطريقة التي يسوقُ بها الرّسولُ رأيَهُ، ويُسلسِلُه: «يا إخوتي، لا يكُن في إيمانِكم بيسوع المسيح، ربِّ المجد، محاباةُ وجوه، فإنَّهُ إذا دخلَ مجمعَكُم رجلٌ بخاتمٍ من ذهب، في حلّةٍ بهيَّة، ودخلَ مسكينٌ في أسمالٍ قذرة، فنظرتُم إلى الذي عليه الحلّة البهيَّة وقلتُم له اجلِس ههنا في الصّدر، وقلتم للمسكين قف أنت هناكَ أو اجلِس ههنا تحتَ موطئ قدَمَيَّ، أفلا تكونونَ قد ميّزتُم في أنفسِكم فقضيتُم من أفكارٍ شرّيرة؟ إسمعوا يا إخوتي الأحبّاء: أما اختارَ الله مساكينَ هذا العالَم، وهم أغنياء في الإيمان وورثةٌ للملكوت الذي وعدَ به الذين يُحبّونَه؟ أمّا أنتم فأهنتم المسكين!» (يعقوب ٢؛ ١-٦). أي أنَّ المسكينَ يُهانُ إذا قيلَ لهُ: قف هناك، فيما يُقالُ لصاحبِ الخاتم

www.old-criticism.blogspot.com

الذّهبيّ: إجلِس ههنا في الصّدر. ويُضيفُ الرّسول، متوسِّعًا في رأيِه: «أليس الأغنياء هم الذين يقهرونكم ويجرّونكم إلى المحاكم؟ ألا يُجدِّفونَ على الإسم الجليل الذي دُعيتُم به؟ إن كنتُم تُتِمّون الناموسَ المَلَكيَّ على حسب الكتاب القائل: **أحبِبْ قريبَكَ كنفسِك**، فحسنًا تفعلون؛ أمّا إن حابَيتُم الوجوه، فإنّما ترتكبونَ خطيئةً ويدينُكم النّاموس كمُتعدّين». (يعقوب ٢؛ ٦-٩). أنظر كيفَ يُسمّي الرسولُ متعدّين على النّاموس أولئكَ الذين يقولون للغني: اجلِسْ ههنا، وللفقيرِ: قف هناك. ولكي لا يُظنَّ بأنّ التعدّي على الناموسِ في أمرٍ واحدٍ خطيئةٌ صغيرة، يُضيف: «من حفظ الناموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». لأنَّ الذي قال: لا تزنِ، يقولُ أيضًا: لا تقتُل. فإن زنيتَ ولم تقتُل، فأنتَ تتعدّى النّاموس. سبقَ أن قالَ الرّسول: «يدينُكم النّاموس كمُتعدّين». فإن لم نُبيِّن أنّهُ يجبُ تفسيرُ القولِ على غيرِ ذلك، فبوسعنا أن نخلُصَ إلى أنَّ من قال للغني: اجلِس ههنا، وللفقير: قف هناك، كانَ، بسبب محاباتِهِ الوجوه، شتّامًا، زانيًا، قاتلًا وعابدَ أوثان، ولكي لا نُطيلَ في تعداد الوصايا، آثمًا في كلّ شيء، لأنَّهُ، إذ أثمَ في أمرٍ واحد، أثم في الناموس كلِّه.

٤ - ولكن، أيقالُ إنَّ من كان على فضيلةٍ كانت له كلُّ الفضائل، ومن افتقرَ إلى واحدةٍ افتقرَ إليها كلِّها؟ إذا كان هذا صحيحًا، فإنَّه يؤكِّدُ كلام القدّيس يعقوب. أمّا أنا فأريدُ تفسيرًا لهُ، لا تأكيدًا؛ إنَّ له من القوَّة، في ذاتِه، أكثرَ من كلِّ ما جاءَ به الفلاسفةُ الأقدمون. وحتّى ولو كانَ هذا الرأي ينطبقُ على الفضيلةِ والرّذيلة، فلن يكون ذلكَ مبرِّرًا للمساواةِ بين جميعِ الخطايا.

بقدرِ ما تسمحُ به الذّاكرة - لأنَّ هذه الأشياء امَّحت من ذهني-

www.old-criticism.blogspot.com

أقول إنّه حسُنَ لدى جميع الفلاسفة أن يُثبتوا تكامُل الفضائل، لأنَّهُم كانوا ينظرونَ إلى تلكَ لفضائلِ كلِّها، على أنّها ضروريَّةٌ لحياةٍ صالحةٍ مستقيمة. وحدهم الرّواقيون تجرّأوا فأكّدوا على تكامل الخطايا، مواجهين رأي الجنسِ البشريّ بأسرِه. استندتَ إلى الكتب المقدَّسة، وبيَّنتَ ضلالَهم، بوضوحٍ كلّيّ، بشخص يوفينيانُس، الذي كان رواقيًّا في هذه النقطة، وأبيقوريًّا في طريقتِه للبحث والدّفاع عن الشّهوة[٢٦]. لقد برهنَ بوضوح، في ذلكَ العرض الرّائع المشهود، أنَّ نظريَّةَ التكاملِ في الخطايا، تتعارضُ مع الكتب القانونيّة ومع الحقيقةِ نفسِها التي تنطقُ بفمها. وعندما يكون ذلكَ الرّأي صحيحًا في الفضائل، فلن نكون مُلزمين بأن نعترِف بتكامل الخطايا، وهذا ما سأجتهِدُ، بمعونة الله، لأن أكشفَهُ قدرَ طاقتي. فإن توصّلتُ، وافقتَني، وإن قصّرتُ، أتيتَ إلى نجدَتي.

٥ – وما يقودُنا إلى القول بأنَّ من كانت له فضيلة كانت لهُ كلُّها ومن افتقر إلى واحدة افتقرَ إلى كلِّها، هو أنَّ الحكمة لا يسعُها أن تكون متخاذلةً، ولا جائرة، ولا متطرِّفة؛ لأنّهُ إذا شابها شيءٌ من ذلك، فلن تكونَ، بعدُ، حكمةً. أمّا إذا كانت ملزَمة، لكي تكونَ حكمةً، بأن تكون قويَّةً وعادلة ومعتدِلة، فستصحبُها بقيّةُ الفضائل. وهكذا فإنَّ القوّةَ لا يسعُها أن تكون رعناء، ولا متهوِّرة ولا جائرة؛ كذلك، يتحتَّمُ أن يكون الإعتدالُ حكيمًا وقويًّا وعادلًا؛ كما أنَّ العدالةَ لا تكونُ عدالةً ما لم تكن حكيمةً وقويَّةً ومعتدِلة، بحيثُ أنّه إذا امتلكنا أيًّا منها امتلكنا أيضًا سائرَ الفضائل؛ وعلى العكس، إذا

(٢٦) هيرونيمُس (**الرّدّ على يوفينيانُس – الكتاب الثاني**).

www.old-criticism.blogspot.com

افتقرنا إلى سائر الفضائل، فإنَّ التي نراها فينا، ليست بالفضيلة الحقيقيّة، ولو كان لها مظهرُ الفضيلة.

٦ - ذاكَ أنَّ ثمّة، على ما تعرف، نقائص تتنافى تمامًا مع الفضائل، كالحكمة والرّعونة. وثمّة نقائص لا تتنافى مع الفضائل، إلّا لكونِها نقائص، على الرُّغم من محاكاتِها الزائفة لها: وهذا ليس شأنَ الرعونة، بل الدّهاء. وأقصدُ هنا بالدهاء، المعنى السّيّء، لا المعنى الذي يوصي به الكتاب المقدَّس حين يقول: «كونوا حكماءَ كالحيّات» (متّى ١٠؛ ١٦)، وأيضًا: «لإنالةِ الأغرارِ دهاءً» (أمثال ١؛ ٤). إنَّ واحدًا من أدباءِ الرّومان البُلغاء أخذ الدّهاء بمعناه الجيّد حينَ تكلّم عن كاتيلينا فقال: «لم يكن ينقصُه الدّهاء لكي ينفُذَ إلى مخطّطات الأعداء، ولا الحيلة للإحتياط لهم». غيرَ أنَّ هذا المعنى النادر لدى الأدباء الأقدمين، مألوفٌ جدًّا لدى أدبائِنا. وكذلك في الإعتدال؛ فالتبذير على تناقضٍ واضح مع التوفير، والبخلُ الدّنيءُ، وهو عيب، فيهِ ما يُشبهُ التوفير، لا في الطبيعة، ولكن في المظهرِ الخادع. كذلك فإنَّ الفرقَ واضحٌ بين العدل والظلم؛ ولكنَّ الرغبةَ في الإنتقام تظهرُ عادةً على هيئةِ عدالة، فيما هي عيبٌ. والتخاذُل يتنافى تمامًا مع القوّة، والقسوة تظهرُ بمظهرِ القوّة، على ما بينَهُما من بعد في الطبيعة. والثباتُ وجهٌ من أوجُه الشجاعة، والإنهزامُ نقيضُه؛ والمكابرة تتصنَّعُ بمظهر الثبات وهي ليست منه في شيء. فالثبات فضيلة، والمكابرةُ عيب.

٧ - ولكي لا أكرِّر الأشياءَ نفسَها، أختارُ مثلًا يُمكن أن يُساعِدَنا على فهم ما تبقّى. كان بوسع كاتيلينا، كما كتب عنهُ الذين عرفوه، أن يتحمَّلَ البردَ والجوعَ والعطش؛ فكان يتحمَّلُ شظفَ العيش ورداءَة الطقس والأسهار، إلى درجةٍ تفوقُ التصوُّر، وبسبب

www.old-criticism.blogspot.com

ذلك كان ينظرُ إلى نفسِهِ، ويُنظَرُ إليه، على أنَّه رجلٌ ذو بأسٍ عظيم[٢٧]. ولكنَّهُ لم يكن حكيمًا في بأسِه، لأنَّ كان يختارُ الشَّرَّ بدلَ الخير؛ كان متهوِّرًا، لأنَّه كان متمرّغًا في كلِّ أشكالِ الفسقِ والفجور؛ ولم يكن عادلًا، لأنَّه كان يتآمرُ ضدَّ الوطن. لذلك لم يكن بأسُهُ فضيلةً، بل عنفٌ يأخذُ صفةَ البأسِ تضليلًا للحمقى. فلو كان بأسًا لكان فضيلةً لا عيبًا، ولو كان فضيلةً، لتبعته الفضائلُ الأخرى حتمًا، لأنَّها تأبى عنها انفصالًا.

٨ – وإذا التزمنا الآنَ أن نُبيِّنَ أنّه حيثُ توجدُ نقيصةٌ واحدة، توجدُ جميع النقائص، وحيثُ لا توجدُ نقيصة واحدة، لا إمكانيَّة لوجودِ النقائص، فسيكون العملُ شاقًّا، لأنَّ كلَّ فضيلةٍ يُقابلُها نقيصتان، واحدة تناقضُها صراحةً، وأخرى تتظاهرُ بمحاكاتِها. وهكذا نرى، بوضوح، ما كان عليهِ من فضيلةٍ زائفة تظهَرُ في بأسِه، ولم يكن بأسًا لأنَّهُ لم يكن مقترنًا بالفضائلِ الأخرى؛ على أنَّهُ من الصعوبة بمكان أن نقتنع بأن التخاذل يمكن أن نراه في من اعتادَ أن يتحمَّلَ كلَّ شيء إلى حدٍّ يصعبُ تصديقُه[٢٨]. ولكنّنا إذا تطلَّعنا إلى العمق، فسيبدو لنا ذلكَ العنفُ نفسُه بمثابةِ جُبن، لأنَّ كاتيلينا لم يهتمَّ بأن يعملَ، بوسائل خيِّرة، من أجلِ أن يمتلِكَ القوّة الحقيقيَّة. غيرَ أنَّهُم مُتجرّئون أولئكَ الذين ليسوا بجبناء، وجبناءُ هم أولئكَ الّذين تنقصهم الجرأة؛ والعيبُ كامنٌ في الحالتين. لأنَّ من امتلكَ القوَّةَ الحقيقيّة لا يتجرّأ بتهوُّر، ولا يُروَّعُ بسهولة. وعليه، فإنّنا ملزمون بأن نعترف بأنَّ النقائص أكثر عددًا من الفضائل.

---

(٢٧) سالوستُس، حرب كاتالينا؛ ٥.

(٢٨) كذلك لا يسعنا أن نتّهِم كاتالينا بالجبن بعدَ أن شهدنا موتَه.

www.old-criticism.blogspot.com

٩ - يحدثُ أحيانًا أن تذهبَ نقيصةٌ بأخرى؛ وهكذا يذهبُ حبُّ المجد بحبِّ المال. وأحيانًا لا تذهبُ نقيصةٌ إلّا وتحلَّ محلَّها نقائص؛ وهكذا فإنَّ إنسانًا متهوِّرًا غدا رزينًا، يمكنُ أن يخضَعَ لإيحاءات البخلِ والطمع. إذًا، يمكنُ أن تستبدَل نقائص بنقائص أخرى، لا بفضائل؛ وهذا سبب جديد للتأكيد على أنَّها أكثر عددًا. أمّا الفضيلة، فما إن تظهر، حتّى تليها الفضائلُ الأخرى، وجميعُ النقائص تمضي وتزول، لأنَّها لم تكن كلُّها موجودة، بل كانت تتوالى، تارةً بأعدادٍ متساوية وتارة بأعدادٍ متفاوتة.

١٠ - يقتضي أن نبحثَ، بمزيدٍ من الدّقة، عمّا إذا كانت الأمور تجري على هذا النحو. لأنَّ الفم الذي قالَ: «من كانت له فضيلة، كانت لهُ جميعُ الفضائل، ومن افتقرَ إلى إحداها افتقرَ إليها كلِّها»، لم يتلقَّ وحيًا إلهيًا؛ صحيحٌ أنَّ الذين قالوه هم بشرٌ على جانب كبيرٍ من العلم والمنطق، ولكنَّهُم بشرٌ على أيِّ حال. أمّا أنا فلستُ أدري كيفَ يسعُني أن أقول، لا عن زوجٍ من اسمِهِ اشتُقَّ اسم الفضيلة[٢٩]، بل عن امرأةٍ أمينة لزوجِها تسلكُ في وصايا الله ومواعيدِه وتسعى لأن تكون أمينةً للهِ أوّلًا، بأنّها خاليةٌ من العفَّة أو أنَّ عفَّتَها ليست فضيلةً، أو أنَّها فضيلةٌ صغيرة؛ والشيءُ نفسُهُ للرجُل تجاه امرأتِه؛ على أنَّ ثمّةَ كثيرًا من الأزواج، رجالًا ونساءً، مثل هؤلاء، لا أحسبُهُم من غيرِ خطيئة، وأنَّ تلكَ الخطيئة، مهما كان حجمُها لا تأتي من نقيصةٍ ما. وهكذا فإنَّ العفَّة الزّوجيَّة، وهي، بالتأكيد، فضيلة في الأزواج الذين يعيشون حياةً مسيحيَّة، لا يُقالُ فيها بأنَّها لا شيء، أو أنَّها نقيصة، لأنَّها لا تترافقُ مع جميعِ

(٢٩) الزّوج في اللّاتينيَّة: Virum والفضيلة: Virtus وهذه مشتقّة من تلك. Virum, a quo denominate dicitur virtus.

www.old-criticism.blogspot.com

الفضائل. فلو كانت جميعُها موجودة، لما كان هناكَ نقيصة. لا نقيصة، إذًا لا خطيئة: ومن ذا من غير خطيئة؟ من ذا من غيرِ نقيصة، أي من غيرِ بؤرةِ خطيئة، أو أصلِ خطيئة، عندما نسمعُ من يستريحُ في حضنِ الرّبّ يصرُخ: «إن قلنا إنّنا لسنا بلا خطيئة، ضللنا أنفسَنا ولم يكن الحقُّ فينا»؟ (١ يوحنّا ١؛ ٨). وما الأمرُ، لديك، بحاجةٍ إلى شرحٍ مستفيض؛ ولكنّي أقولُ لآخرين رُبّما قرأوه. لقد بيّنتَهُ أنتَ بنفسِكَ، إستنادًا إلى الكتبِ المنذَّسة، في مؤلَّفِكَ الشهير ردًّا على يوفينيانُس؛ حيثُ تذكرُ من رسالة القدّيس يعقوب نفسِها التي نسعى الآنَ إلى فهمِها، النصّ التالي: «إنّا جميعَنا نزِلُّ في أمورٍ كثيرة» (يعقوب ٣؛ ٢). إنَّ رسولَ المسيح هذا لا يقول: إنّكم تزِلّون، بل إنّا نزِلّ. وسبق أن قال: «من حفظ النّاموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». لم يعدْ يقُول، هنا، «في أمرٍ واحد» بل «في أمورٍ كثيرة»؛ ولا يقول أن «بعضنا يزِلّ»، بل «جميعنا نزلّ».

١١ً – معاذ الله أن يكون لمؤمنٍ أن يظنَّ بأنَّ الآلاف المؤلَّفة من خدّام المسيح الذين يعترفون، صادقين، بأنَّهُم خطأة، لئلّا يضلّوا هم أنفُسُهُم فلا تعودُ فيهِم الحقيقة، لا يملكون أيّة فضيلة! فالحكمة فضيلةٌ عظيمة. والحكمةُ نفسُها قالت للإنسان: «ها إنَّ تقوى الله هي الحكمة» (أيّوب ٢٨؛ ٢٨). معاذ الله أن نقولَ بأنَّ مثلَ هؤلاء المؤمنين العظام ورجالَ الله الأبرار لا يمتلكونَ التقوى الّتي يُسمِّيها اليونانيّون إيوسيبِيَا εὐσέβεια أو ثيوسيبِيَا θεοσεβέια (عبادة الله). فماذا تكون التقوى، إن لم تكن عبادة الله؟ وكيفَ يُعبَد إن لم يكن بالمحبَّة؟ لهذا فالمحبَّة التي تنبع من قلبٍ طاهر، ومن ضميرٍ نقيّ، ومن إيمانٍ لا تكلُّفَ فيه، إنّما هي فضيلةٌ كبرى وحقيقيَّة، من حيثُ أنَّها غايةُ الشَّريعة (١ طيم ١؛ ٥). بحقٍّ قيلَ فيها: «إنَّ المحبَّة أقوى

www.old-criticism.blogspot.com

من الموت» (نشيد الأناشيد ٨؛ ٦)، إمَّا لأنَّ أحدًا لا يقوى على قهرِها كالموت، وإمَّا لأنَّ مقياس المحبَّة، في هذه الحياة، أن تُحبَّ حتّى الموت بحسب كلام الرّبّ: «ليسَ لأحدٍ حبٌّ أعظمُ من أن يبذلَ نفسَهُ عن أحبّائِه» (يوحنّا ١٥؛ ١٣)؛ أو، بالأحرى، لأنَّهُ كما أنَّ الموتَ ينتزعُ النفسَ من حواسّ الجسد، كذلك تنتزِعُها المحبَّةُ من شهواتِ اللحم. العلم النافعُ يخدمُ المحبَّة، ومن دونِها العلمُ ينفُخ. (١ قور ٨؛ ١)؛ ولكن حيثُ المحبَّةُ تبني، لن يجدَ العلمُ فراغًا ينفخُه. علّمَنا أيّوب ما هو العلم النافع؛ فبعدَ أن قالَ إنَّ تقوى الله هي الحكمة، أضاف: «واجتنابُ الشّرّ هو الفطنة» (أيّوب ٢٨؛ ٢٨). لماذا لا نقولُ، إذًا، إنَّ من كانت له فضيلةُ المحبَّة امتلكَ الفضائلَ كلَّها، من حيثُ أنَّ المحبَّة هي تمام الناموس؟ (رومة ١٣؛ ١٠). وكلَّما تفجّرت في إنسان، كثرت فيه الفضائل؛ ومن قلّت فيه المحبَّة قلَّت فضائلُه، لأنَّ المحبَّة بذاتِها هي الفضيلة؛ وحيثُ تقلُّ الفضيلة تفيضُ النقائص. وحيثُ تكونُ المحبَّةُ تامَّةً وكاملة، تضمحِلُّ كلُّ نقيصة.

١٢ً – لذلك يبدو لي أنّ الرواقيّين على ضلال عندما يؤكّدون بأنّنا نكون مفتقرين، كلّيًّا، إلى الحكمة، ونحنُ نتقدَّم فيها، ولكنّنا لا نمتلِكُها إلّا عندما نبلغُ ملءَ الكمال؛ إنَّهم لا يُنكِرونَ ذلكَ التقدُّم، ولكنَّهم لا يرضَوْنَ، بأيِّ طريقة، أنَّ في وسعِنا أن نُدعى حُكماء، إن نحنُ خرجنا لا أدري من أيّ لججٍ مظلِمة، ولم ننطلِقْ لتوِّنا نحو آفاقِ الحكمةِ حيثُ النورُ والحرّيّة. فما همَّ الغريق إن كان عمقُ الماءِ فوقَ رأسِه قاماتٍ أو ذراعًا أو إصبعًا؟ وهكذا يقول الرواقيّون بأنَّ الّذين يتوقونَ إلى الحكمة يتقدَّمون كمن يصعدُ من لجَّة الماءِ إلى الهواء؛ غير أنَّهم لن يمتلكوا الفضيلة، ولن يصيروا

www.old-criticism.blogspot.com

حكماء، قبلَ أن يتحرَّروا كلّيًّا من الجهل، كمن يتحرَّرُ من لجَّةٍ يغرقُ فيها؛ ولكنَّهُم متى تحرَّروا، سيمتلكون الحكمة كلَّها، ولن يبقى فيهِم أيُّ أثرٍ من جهالة تتسبَّب بخطيئة.

١٣ً - إنَّ تلكَ المقارنَة حيثُ الجهالةُ تشبِهُ لجّة الماءِ العميقة، والحكمةُ الهواءَ الذي نتنشَّقُه، الّتي تُظهِرُ النفسَ تنفلتُ ممّا يخنقُها لتصعَدَ فورًا إلى الأعالي، لا تبدو لي متوافقة، ولو إلى حدٍّ، مع كتبِنا. وأفضَلُ عليها مقارنةَ النغيصة والجهالةَ بالظُّلمة، والحكمةَ بالنور، بقدرِ ما تستطيعُ تلكَ الصُّورُ الحسّيَّة أن تنطبِقَ على الأشياءِ العقليَّةِ الصِّرف. لسنا نبلغُ الحكمةَ كمن يخرجُ من قاعِ الماء ليتنفَّسَ، لتوِّهِ، ملءَ رئتَيْه، بل كمن يخرجُ من الظلمةِ إلى النّور، فيستضيءُ تدريجيًّا، وإلى أن نعيشَ في ملءِ النّور، نكون مثلَ إنسانٍ يخرجُ من مغارةٍ سحيقة، ويُضيئُه النّور، على نحوٍ لاشعوريّ، كلَّما اقتربَ من الباب: يحيطُ به، في آنٍ معًا، قبسٌ من ضوءِ النَّهار، إلى حيثُ يمضي، وبعضٌ من عتمةِ المكانِ الذي يغادرُه. لأجلِ ذلك، لا يُبرَّرُ حيٌّ أمام الله (مزمور ١٤٣؛ ٢)، والبارُّ بإيمانِهِ يحيا (حبقوق ٢؛ ٤)، والصدّيقونَ يلبسونَ البِرّ (أيوب ٢٩؛ ١٤)، هذا أقلُّ وذاكَ أكثر؛ وليس أحدٌ، في هذه الدنيا، يعيشُ بلا خطيئة، هؤلاءِ بقدرٍ أقلّ، وأولئِكَ بقدرٍ أكبر: وأفضلُهم أقلُّهم خطيئةً.

١٤ً - ولكن لماذا يغيبُ عن بالي إلى من أتكلَّم، فأقيمُ نفسي مُعلِّمًا، فيما أعرضُ، في هذه الرّسالة، ما أنا راغبٌ في أن أتعلَّمَه منك؟ ولكن، لأنّني عزمتُ على أن أطلِعكَ على رأيي حولَ تساوي الخطايا، في معرِضِ معالجةِ هذه المسألة، فسأستعيدَه وأختم. وحتى في حال كانَ صحيحًا أنَّ من امتلكَ فضيلةً امتلكَ الفضائلَ كلَّها، ومن افتقرَ إلى واحدة افتقر إليها كلِّها، فلن ينتجَ عن ذلكَ أنَّ

www.old-criticism.blogspot.com

هناكَ تساويًا في الخطايا. وإذا كانَ ليسَ من شيءٍ مستقيم، حيثُ لا توجدُ أيُّ فضيلة، فليس ذلكَ مبرّرًا لكي لا يكون في الإثم والإنحرافِ درجات. ولكنَّ في النفسِ تحرّكاتٍ مثلَ أعضاءِ الجسد - وأعتقد أنَّ هذا أكثر تطابُقًا مع الكتب المقدَّسة - لا نراها في المكان، ولكنّنا نشعُرُ بها في الأحاسيس. والحال، فإنَّ بين أعضاء الجسد، عضوٌ مُضاءٌ، وعضوٌ أقلُّ إضاءةً، وآخرُ راتعٌ في عتمةٍ حالكة يحجبُهُ جسمٌ ظَلِم. كذلك الإنسانُ الذي يمتلِكَ المحبَّة، يُبدي منها أقدارًا متفاوتة في هذا العمل أو ذاك، ويُخفيها في عملٍ آخر، وهكذا يكون بوسعِنا أن نقول أنَّهُ يمتلِكُ فضيلةً وتنقصه أخرى، يمتلكُ هنا فضيلةً أسمى وهناكَ فضيلةً أدنى. لأنّنا نستطيعُ أن نقول إنَّ في هذا من المحبَّة فوقَ ما في ذاك؛ وفي هذا قليلٌ من المحبّة، وذاكَ خالٍ منها، بقدر ما تملكُ المحبَّةُ أن تهب، بصفتِها التقوى بذاتِها. كما أنّ في وسعِنا أن نقولَ عن الإنسانِ نفسِه إنَّ له من العفّة فوق ما لهُ من الصّبر، وله منها، اليوم، فوق ما كانَ له أمسِ، إذا ما أحرزَ تقدُّمًا، وكانَ فيه قدرٌ من الرحمةِ غيرُ قليل، ولو أنَّ تعفُّفَه لم يكتمل.

١٥ - ولكي أعبّر بطريقةٍ أوضح، وباختصار، عمّا أفهمُهُ بالفضيلة، في ما يَمسُّ العيشَ المستقيم، أقولُ إنَّ الفضيلة هي المحبَّةُ التي تجعلُنا نُحبُّ ما ينبغي أن نُحبَّه. كبيرةٌ في البعض، وأصغرُ في البعض، ومنعدمة في آخرين. لا أحدَ يمتلكُها بكلّيّتِها، لدرجة لا يسعُها أن تتنامى، ما دام الإنسانُ على الأرض؛ أمّا إذا كان بوسعها أن تتنامى، وتبقى أدنى ممّا ينبغي أن تكونَ عليه، فثمَّةَ نقصٌ مردُّه إلى الرّذيلة. وبسبب تلكَ الرّذيلة، ليسَ في الدّنيا بارٌّ يصنعُ خيرًا إلّا ويخطأ (١ ملوك ٨؛ ٤٦)، وليسَ حيٌّ مبرَّرًا أمام

www.old-criticism.blogspot.com

الله. وبسبب تلكَ الرّذيلة، فإنّنا نُضِلُّ أنفُسَنا ولا يكون الحقّ فينا إذا قلنا إنّنا بلا خطيئة. ولأجلِ ذلكَ أيضًا، ومهما أحرزنا من تقدُّم، ينبغي أن نردِّدَ على الدّوام: «إغفر لنا ذنوبَنا» ولو انَّ الخطايا جميعَها، بالقولِ كانت أم الفعلِ أم بالفكرِ، غُفِرت في المعموديَّة. فمن يرى جيّدًا، يكتشِفُ كفى، ومتى، وأينَ نستطيعُ أن نأملَ في ذلك الكمال الذي لا شيءَ يُزادُ إليه. ولكن، لو لم يكن الناموسُ موجودًا، فمن أينَ للإنسان أن يتعرَّفَ إلى نفسِه بثقةٍ وطيدة، ويعرِفَ ما الذي يجبُ تجنُّبه، ونحو أيّ هدفٍ يُصوِّبُ جهودَه، وعلامَ يَشكُر، وماذا يسأل؟ لذلكَ فإنَّ الوصايا تكون غزيرة الفائدة إذا جعلنا لنعمةِ الله نصيبًا أوفَرَ من نصيبِ الإرادة الحرَّة.

١٦ً - في هذه الحال، كيفَ يأثمُ في الناموسِ كلِّه من أثمَ في أمرٍ واحد؟ أليسَ لأنَّ ملءَ الناموس هو المحبَّة التي بها نُحبُّ الله والقريب، وهذا هو الناموسُ كلُّهُ والأنبياء، (متّى ٢٢؛ ٤٠) وعن حقٍّ يُصبحُ آثمًا في الكلّ من خالفَ الوصيَّةَ التي بها تتعلَّقُ كلُّ الوصايا؟ لا أحدَ يخطأ من دون أن يُسيءَ إلى المحبَّة. «إنّ الوصايا التي تقول: لاتزنِ، لا تقتل، لا تسرِق، لا تشتهِ، وسواها من الوصايا، مجتمعة في هذه الكلمة: احبِب قريبك حبّك لنفسِك. المحبّة لا تصنع بالقريب شرًّا، فالمحبَّةُ، إذًا، كمال الشريعة» (رومة ١٣؛ ٩-١٠). لا أحدَ يُحبُّ قريبَهُ ولا يُحبُّ الله، ومن أحبَّ قريبَهُ كنفسِه، شدَّهُ، قدرَ طاقتِهِ، إلى محبّةِ الله أيضًا. ومن لا يُحبُّ الله لا يحبُّ نفسَهُ ولا يُحبُّ قريبَه. ولهذا، فإنَّ من حفظ النّاموس كلَّهُ وأثم في أمرٍ واحد، فكأنَّه أثِمَ في النّاموسِ كلِّه، لأنَّهُ أثِمَ ضدَّ المحبَّة، التي هي كمال الشريعة. يصيرُ آثمًا في الكلّ، لأنَّهُ أثم ضدَّ فضيلةٍ تحوي الفضائلَ كلَّها.

www.old-criticism.blogspot.com

١٧ – لماذا لا نقول، إذًا، إنَّ الخطايا كلَّها متساوية؟ ألعلَّ من كانت خطيئتُه أعظم، تكونُ إساءتُه إلى المحبَّة أكبر، ومن كانت خطيئتُه أصغر، تكون إساءتُه أقلّ؟ إنَّ من أثمَ في واحدة، أثمَ فيها كلِّها، ولكنَّهُ يكونُ أعظمَ إثمًا بحسبِ كبَرِ حجمِ خطاياه وعددِها؛ ويكونُ أقلَّ إثمًا كلَّما صغرت خطاياهُ وقلَّ عددُها. التهمةُ تُقاسُ، على الدّوام، بالخطايا؛ ومع ذلك، فمن أثِمَ في الناموسِ في أمرٍ واحد، أثمَ في النّاموسِ كلِّه، لكونِه أثِم ضدَّ الفضيلة التي تحوي سائرَ الفضائل. فإذا كان هذا صحيحًا، اتَّضح، للحال، هذا المقطع من القدّيس يعقوب الرّسول: «فإنّا جميعًا نزِلُّ كثيرًا» (يعقوب ٣؛ ٢)؛ لأنّنا كلَّنا نزِلُّ، ولكنَّ زلَّةَ هذا أعظم، وزلَّة ذاك أصغر. خاطئٌ أكبر من قلَّت محبَّتُه لله وللقريب، وخاطئٌ أصغر من عظمت محبَّتُه لله وللقريب. فكلَّما خلت منّا المحبَّة زاد فينا الجَوْر. ونصيرُ كاملين في المحبَّة عندما نشفى من كلِّ سقم.

١٨ – لا أظنُّها، برأيي، خطيئةً صغيرة أن نجمعَ بين إيمانِنا المسيحيّ وبينَ احترام الأشخاص، لدى اختيارنا من هم أهلٌ لأن يُرفعوا إلى الكرامات الكهنوتيَّة. فمن ذا يرضى بأن يُختارَ غنيٌّ لكرامةٍ في الكنيسة، بدلًا من فقيرٍ عالمٍ بارّ؟ ومن لا يخطأ في هذا، في اجتماعاتِنا اليوميَّة؟ إنَّ الواحدَ منّا، يخطأ في ذاتِه، إذا رأى أنَّ هذا خيرٌ من ذاك لأنَّه أغنى. وهذا ما يبدو أنَّ القديس يعقوب عناه في قولِه: «أفلا تكونونَ قد ميّزتُم في أنفُسِكم، فقضيتُم عن أفكارٍ شرّيرة؟» (يعقوب ٢؛ ٤).

١٩ – إنَّ شريعةَ الحرّيَّة هي، إذًا، شريعةُ المحبَّة التي يقولُ فيها الرّسول: «إن كنتُم تُتمّون الناموس الملَكيّ، على حسب الكتابة القائلة: أحبِب قريبك كنفسِك، فنِعِمّا تفعلون، وأمّا إذا حابَيتُم

www.old-criticism.blogspot.com

بفرح (٢ قور ٩؛ ٧). وفي النهاية، يتكلَّمُ القدّيس يعقوب عن أعمالِ الرَّحمة لكي يُقوّي الذينَ أرعبَهُم. يقول كيف نكفِّرُ باستمرارٍ عن الخطايا اليومية التي لا يخلو منها أحد في هذه الدّنيا. ويُخشى على الإنسان الذي أثِمَ في أمرٍ واحدٍ من الناموس فأثِم في النّاموسِ كلِّه، ألّا يصِل إلى منبرِ الدّيان العظيم، وقد خالفَ الكثيرَ من الوصايا - «لأنّا جميعنا نزِلُّ كثيرًا» - مثقلًا بالخطايا التي تراكمت عليه، فلا يجدُ رحمةً لم يسبق له أن صنعَها هو. إنَّهُ يُريدُ له أن يستحقَّ، بمغفرتِهِ وعطائِه، أن تُغفَرَ له خطاياه، وتتحقَّقَ فيه مواعيدُ الله!

٢١ - لعلّي قلتُ كلامًا كثيرًا فبعثتُ فيكَ الملل، حتّى ولو وافقتني عليه؛ وبعدُ، فأنت لا تنتظر منّي أن أعلِّمَكَ ما تعوَّدتَ أن تُعلِّمَه. فإذا كان في مضمونِه - لأنّي قلّما أهتمُ للغة - شيءٌ يتعارضُ مع علمِك، فأرجوكَ أن تُنبِّهني إليه في رسالتِكَ المقبلة، وألّا تخشى أن تلومَني. بئسَ من لا يُقدِّرُ أعمالَكَ المقدَّسة ودراساتِكَ الجليلة، ولا يشكرُ عليها الرّبَّ إلهَنا الذي جعلَ منكَ ما أنت عليه! ولمّا كان من واجبي أن أتعلَّم، من أيِّ كان، ما أجهلُه، وألّا أستعجلَ في تعليم ما أعلَم، فكم أحرى بي أن أرغبَ في اللجوءِ إلى محبَّتِك، وإلى معرفتِك، أنت الذي باسم الرّبّ ومعونتِه، صنعتَ ما لم يصنعهُ أحدٌ من قبل في سبيلِ نشر الكتب المقدَّسة باللّاتينيّة! أركِّزُ بنوعٍ خاص على أن تشرحَ لي هذا النّصّ: «من حفظ النّاموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». (يعقوب ٢؛ ١٠). فإذا كانت محبَّتك تُدوّي بطريقةٍ أفضل من التي أسمعُها، فإنّي أستحلِفُكَ باسم الرَّب أن تتلطَّفَ وتُطلِعني عليها.

www.old-criticism.blogspot.com

بفرح (٢ قور ٩؛ ٧). وفي النهاية، يتكلَّمُ القدّيس يعقوب عن أعمالِ الرَّحمة لكي يُقوّي الذينَ أرعبَهُم. يقول كيف نكفِّرُ باستمرارٍ عن الخطايا اليومية التي لا يخلو منها أحد في هذه الدّنيا. ويُخشى على الإنسان الذي أثِمَ في أمرٍ واحدٍ من الناموس فأثِم في النّاموسِ كلِّه، ألَّا يصِل إلى منبرِ الدّيان العظيم، وقد خالفَ الكثيرَ من الوصايا - «لأنّا جميعنا نزِلُّ كثيرًا» - مثقلًا بالخطايا التي تراكمت عليه، فلا يجدُ رحمةً لم يسبق له أن صنعَها هو. إنَّهُ يُريدُ له أن يستحقَّ، بمغفرتِهِ وعطائِه، أن تُغفَرَ له خطاياه، وتتحقَّقَ فيه مواعيدُ الله!

٢١ - لعلّي قلتُ كلامًا كثيرًا فبعثتُ فيكَ الملل، حتّى ولو وافقتني عليه؛ وبعدُ، فأنت لا تنتظر منّي أن أعلِّمَكَ ما تعوَّدتَ أن تُعلِّمَه. فإذا كان في مضمونِه - لأنّي قلّما أهتمُ للغة - شيءٌ يتعارضُ مع علمِك، فأرجوكَ أن تُنبِّهَني إليه في رسالتِكَ المقبلة، وألّا تخشى أن تلومَني. بئسَ من لا يُقدِّرُ أعمالَكَ المقدَّسة ودراساتِكَ الجليلة، ولا يشكرُ عليها الرّبَّ إلهَنا الذي جعلَ منكَ ما أنت عليه! ولمّا كان من واجبي أن أتعلَّم، من أيِّ كان، ما أجهلُه، وألّا أستعجلَ في تعليم ما أعلَم، فكم أحرى بي أن أرغبَ في اللجوءِ إلى محبَّتِك، وإلى معرفتِك، أنت الذي باسم الرّبّ ومعونتِه، صنعتَ ما لم يصنعهُ أحدٌ من قبل في سبيلِ نشر الكتب المقدَّسة باللّاتينيّة! أركِّزُ بنوعٍ خاص على أن تشرحَ لي هذا النّصّ: «من حفظ النّاموسَ كلَّه وأثِمَ في أمرٍ واحد، صار آثمًا في الكلّ». (يعقوب ٢؛ ١٠). فإذا كانت محبَّتك تُدوّي بطريقةٍ أفضل من التي أسمعُها، فإنّي أستحلِفُكَ باسم الرَّب أن تتلطَّفَ وتُطلِعني عليها.

www.old-criticism.blogspot.com

١٥ - من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

يُخبر هيرونيمُس أوغسطينُس باستلامه الرّسالتين ١٣١ و١٣٢ (١٣ و١٤ أعلاه) ويعتذر عن عدم الإجابة على المسائل المُثارة فيهما لسببَين: الأوّل لأنَّ الزَّمن أليم، والثاني لأنّهُ من غيرِ الملائم أن يأتي جوابُهُ مخالفًا لرأي أوغسطينُس. ويُصلّي من أجلِ أن تضمحلَّ البيلاجيّة سريعًا، ويأسف لأنَّه لم يتمكّن من أن يُرسِلَ إليه نسخةً باللّاتينيّة عن النصّ النقديّ للعهد القديم، ويختم بالسلام، منهُ ومن كلِّ من معه. يعود تاريخ الرّسالة إلى العام ٤١٦؛ وتحمل الرقم ١٧٢ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، و١٣٤ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس الى البابا العزيز الجليل أوغسطينُس السّيّد الكلّيّ القداسة، سلامٌ في الرَّب.

أ - بناءً عل توصيتِك، ولِما يتمتَّعُ به من جدارة، استقبلتُ الرجلَ الجدير بالإحترام، اخي ووَلَدَ سيادتك، الكاهن الجليل أوروسيوس. ولكنَّنا نمرُّ في زمنٍ صعب، خيرٌ لي فيه أن أخرسَ من أن أتكلَّم. فقطعتُ دراساتي، وصرتُ، على حدِّ قولِ أيّوس، أنطقُ بلغةِ الكلاب. ولهذا لم أستطِع أن أجيبَكَ، في الوقتِ الحاضر، على رسالتَيكَ اللتينِ تشعّانِ بالعلم وروائع البلاغة. لستُ أجدُ فيهما ما يُعاب. ولكن كما يقولُ الرّسولُ المغبوط: «فليكن كلٌّ منهم على

www.old-criticism.blogspot.com

يقينٍ من رأيِه» (رومة ١٤ ؛ ٥)، هذا على نحو وذاكَ على نحوٍ آخر. بالتأكيد، إنَّ كلَّ ما يُمكن أن يُقال، أنّك كتبت وشرحتَ كلَّ ما بوسعِ عقلٍ مستنيرٍ أن يغرفَهُ من ينابيعِ الكتب السَّماويَّة. أتوسَّلُ إلى جلالِك، أن ترضى بأن أمتدِحَ، قليلًا، عبقريَّتَكَ. لأنّنا نتناقشُ في ما بيننا لكي نتعلَّم. ولكنَّ الحسَّاد، وخصوصًا الهراطقة، إذا رأوا بيننا اختلافًا في الرّأي، لن يُقصِّروا في رشقنا بألسنتِهم الحاقدة، فيعملون على إقناعِ النّاس بأنَّ بينك وبيني نفورًا. أمّا أنا فوطّدتُ العزم على البقاءِ على محبَّتِك واحترامك وإكرامِك والإعجاب بك، والدّفاعِ عن آرائِكَ كما لو كانت آرائي. في الحوار(ضدّ البيلاجيّين - الكتاب الثالث) الذي نشرتُهُ في الأمسِ القريب، تذكّرتُ غبطتَك، وكان ذلكَ من واجبي. فلنَبْذل المزيد من الجهد من أجل أن نستأصِلَ، من وسطِ كنائسنا، تلكَ الهرطقة الخبيثة التي يتظاهرُ أصحابُها بمظهرِ التوبة لكي يبثّوا أفكارَهم، فلا يُطرَدون، لأنَّهم إذا ظهروا على حقيقتِهم طرِدوا وماتوا في الحِرم.

٢ - إنَّ ابنتيكَ البارّتين الجليلتَين باولا ويوستوكيا يسلكانِ بطريقةٍ تليقُ بأصلِهما وبإرشاداتِك. وتُسلِّمان على غبطتك بشكلٍ خاص، وكذلك جميع الإخوة الذين يعملون معنا، جاهدينَ، في خدمة الله المخلِّص. في العام الماضي، أوفدنا إلى رافينّ Ravenne، ومن هناكَ إلى أفريقيا، الكاهن البارّ فيرمُس لكي يهتمَّ بأمورِهما. نعتقد بأنَّهُ الآنَ في أفريقيا. أسألُكَ أن تُبلغ سلامي إلى معاونيكَ القدّيسين. كتبتُ رسالةً إلى الكاهن البارّ فيرمُس؛ إذا وصلت إليك، أسألُكَ أن تتكرَّمَ وتوصِلَها إليه. حفظَكَ الرّبُّ يسوع المسيح في وافرِ الصّحّة، وجعلَني في فكرِكَ أيّها البابا المغبوط الكلّيُّ القداسة.

www.old-criticism.blogspot.com

حاشية:

إنّنا نفتقُرُ، هنا، كثيرًا، إلى كتبة باللّاتينيَّة. لهذا ليس بإمكانِنا أن نلبّي رغبتَك في الحصول على النسخة السّبعينيَّة التي تحملُ ملاحظاتٍ أشيرَ إليها بنجوم وخطوط (الرِّسالة ٦ سابقًا). كما أنّهم سلبونا القسم الأكبر من عملِنا الأوَّل.

www.old-criticism.blogspot.com

١٦- من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس

رسالة قصيرة يُثني فيها هيرونيمُس على أوغسطينُس لموقفه الحازم ضدَّ الهرطقة البيلاجيَّة فيصِفُه بمُجدِّد الإيمان القديم. يُشتَمُّ منها أنَّه لم يبقَ في نفسِ ناسكِ بيت لحم أيَّ أثرٍ لما سبّبتهُ انشقاقاتُ الماضي. يُرجَّح أن يعود تاريخ الرّسالة إلى العام ٤١٨. وهي الرّسالة ١٩٥ في مجموعة رسائل أوغسطينُس، و١٤١ في مجموعة هيرونيمُس.

من هيرونيمُس إلى السّيِّد المغبوط البابا أوغسطينُس.

لطالَما حفظتُ لك في قلبي الإحترامَ اللّائق بغبطتِك، وأحببتُ المخلِّص الإله الذي اتّخذ له فيكَ مسكنًا. وإذا كان لي اليوم أن أضيفَ شيئًا، فإنّي أفيضُ ممّا في قلبي، وأقول بأنّهُ لم تعدْ تمرُّ ساعةٌ من دون أن ألفظَ اسمك. ثبتَّ صامدًا، باضطرام الإيمان، في وجه الرّياح العاصفة، وفضّلتَ، قدرَ طاقتِك، أن تنجوَ بنفسِكَ من سدوم، على أن تبقى مع الهالكين. إنَّ حكمتَك تعرفُ عمّا أتكلَّم. تشجَّعْ، إنّ اسمكَ طائرٌ في الكون. الكاثوليكيّون يُجلّونَكَ ويُعجَبونَ بكَ كمجدِّدٍ للإيمان القديم؛ وآيةُ مجدِك العظمى أنَّك هدفٌ لسهام الهراطقة؛ إنّهُم يُلاحقونني بحقدٍ مماثل، وإذ يعجزون عن قتلِنا بالسّيف، يقتلوننا بأدعيتِهم الحاقدة. حفِظَكَ جودُ ربّنا يسوعُ المسيح في وافر الصّحّة، وجعلني في فكرِكَ أيّها السّيّدُ الجليل والبابا المغبوط.

www.old-criticism.blogspot.com

١٧ - من هيرونيمُس إلى أليبيوس وأوغسطينُس

في هذه الرّسالة يُهنّئ هيرونيمُس أوغسطينُس وأليبيوس على نجاحهما في سحق هرطقة سيلستيوس النّصير الأوّل لبيلاجيوس، ويؤكّد على أنّه إذا وجد النُسّاخ والوقت الكافي، فإنّه يأمل في أن يضع كتابًا يدحضُ فيهِ ضلالات الشّمّاس البيلاجي المزعوم أنّيانُس. يعود تاريخ الرّسالة إلى العام ٤١٩. وهي تحمل الرقم ٢٠٢ في مجموعة رسائل أوغسطينُس.

من هيرونيمُس إلى سيّديه الأسقفين أليبيوس وأوغسطينُس، الجديرَين بكلِّ محبَّةٍ واحترام، سلامٌ في المسيح.

أ - إنَّ الكاهن البارّ إنوشنتُس، حامل هذه الرسالة، لم يُودِعْكَ، السنة الفائتة، أيّة رسالة منّي لأنّه لم يكن يعرف أنَّ عليه أن يعودَ إلى أفريقيا. ولكنّي، في كلِّ حال، أشكرُ الله على رسائلَ وصلتني منك، على الرّغم من صمتي تجاهك. فليسَ أعذب إلى قلبي من مناسبةٍ أكتبُ فيها إلى جلالِك. يشهدُ الله بأنّي لو استطعتُ لاتّخذتُ جناحَي حمامة وطرتُ إليكَ لأنعمَ بعناقِك. إنَّهُ شوقٌ يُراودُني على الدّوام، عندما أفكّر بفضائلِك؛ أمّا اليوم فإنّي أشعرُ بهِ بقوّة أكبر، لكونكَ، مع جوقِ معاونيك في عملك، قضيتَ على هرطقةَ سيلِستيوس[٣٠] التي سمَّمَتْ، في العمقِ، قلوبَ كثيرين.

(٣٠) هو تلميذ بيلاجيوس.

www.old-criticism.blogspot.com

وعلى الرّغم من هزيمتِهِم وإدانتِهم، لا يزال السّمُّ يُعشِّشُ في حنايا نفوسِهِم، ويحقدون علينا - وهذا أقصى ما يستطيعونه - لأنّهم ينظرون إلينا كمن أفقدناهُم حرّيَّة نشرِ ضلالاتِهِم.

٢ - تسألني إن كنتُ أجبتُ على كتبِ آنّيانُس[٣١] Annianus، شمّاس توليدا[٣٢] Toledae المزعوم، الذي يُغذّيه الهراطقة ويُسمّنونه ويُعيّشونَه في الوفرة، كمكافأة له على شتائمِه القذرة التي يضعُها في خدمتِهم. ولكن اعلَمْ، أن كتبَهُ لم تصلني، إلّا منذ مدَّةٍ قصيرة، في أوراقٍ منثورة، عن طريق أخينا البارّ يوسيبيوس الكاهن. أرهقت جسدي الأسقام، وأضناني الحزنُ على موتِ ابنتِكَ البارّة الجليلة يوستوكيا، حتىّ أنَّ تلكَ المؤلَّفات لم تحظَ منّي بغيرِ الإزدراء. فصاحبُ تلكَ الوريقات يسير على خطى معلّميه، ويسلكُ في تعاليمِهم الخبيثة، ولا ينفكُّ يتخبّطُ في الوحول؛ وفي ما عدا بعض المقاطع التي سرقَها وأحسنَ تنسيقَها، فإنَّهُ لم يأتِ بجديد. غيرَ أنّه تسنّى لي أن أفعلَ الكثير؛ ففي ردٍّ على رسالةٍ لي اجتهدَ في وضعِه، كشفَ أنّيانُس حقيقتَه بصورةٍ أوضح، وتمكّن كلُّ واحدٍ من أن يسمع شتائِمه. يعترفُ في مؤلَّفِه بكلِّ ما سبقَ أن أنكرَ قولَهُ في مجمع ديوسبولِس[٣٣] الحقير. وليسَ بالعمل الجليل أن تردَّ على تُرَّهات. إذا أعطاني الله العمرَ وعثرتُ على أناسٍ أُملي ويكتبون، سأردُّ عليه باختصار؛ لن تكون غايةُ ردّي دحض هرطقةٍ

(٣١) ثمَّةَ ما يدلّ على أنَّ آنّيانُس هذا هو الّذي يتكلَّمُ عليه أروسيوس في دفاعِه، حينَ يُشبِّه بيلاجيوس بجوليات الّذي يسيرُ وراءَهُ سائسُه حاملًا له سلاحَه. وثمَّةَ من يعتقِد أنَّه بيلاجيوس نفسه من كتبَ ضدَّ هيرونيمُس تحتَ هذا الاسم المستعار.

(٣٢) توليدا: مدينة في إسبانية، عاصمة قشتالة.

(٣٣) يتكلَّم هيرونيمُس على مجمع ديوسبولِس، على هذا النحو، لأنَّهُ برّأ بيلاجيوس الذي خدع الأساقفة بأجوبتِه الملتبسة.

www.old-criticism.blogspot.com

ميتة، بل لكي أكشفَ جهلَ أنّيانُس وشتائمَه. ولعلَّ قداستك أبرعُ منّي في هذا، فتوفِّرُ عليَّ عناء الدّفاع عن كتاباتي، ضدَّ هذا المارق.

يُسلِّمُ عليكما بكلِّ احترام ابنتاكما البارّتان ألبينا[٣٤] Albina وميلانية Melania وولدنا بينيانُس Pinianus. أضعُ هذه الرّسالة بين يدي إنّوشنتُس الكاهن، لكي يحملَها إليكما من بيت لحم المقدَّسة. صغيرتُكما باولا[٣٥] تسلِّمُ عليكما باحترام، وتسألُكما، بحزنٍ، أن تتلطّفا وتذكراها في صلواتِكُما. حفظَكما جودُ ربّنا يسوع المسيح في وافر الصحّة والسّلامة، وجعلني، على الدّوام في فكرِكُما، سيِّديَّ الكلّيَّيْ القداسة، وأبويَّ العزيزَين الجليلَين.

(٣٤) ألبينا هذه هي غير ألبينا والدة مرتشيلّلا التي يذكرُها في رسالتِه إلى برنتشيبيا، وميلانية هي زوجة بينيانُس.

(٣٥) باولا هذه هي ابنة ليتا وتوكسوتيوس، وحفيدة القدّيسة باولا، وابنة أخي يوستوكيا. كانت وفاة يوستوكيا، العمّة الفاضلة الغالية، سببًا لحزنِها الذي يتكلّم عليه القدّيس هيرونيمُس هنا.

www.old-criticism.blogspot.com

المراجع

1 – Abbaye St. Benoît de Port-Valais, *Œuvres de St. Jérôme*, 1838.

2 – *Horace – Satires* (traduction de Jules Janin, 1878).

3 – Jaud, Abbé L., *Vie des Saints pour tous les jours de l'année*, 1950.

4 – Jérôme de Stridon, *L'Encyclopédie Catholique Libre*.

5 – *Œuvres complètes de Saint Augustin*, traduites pour la première fois, sous la direction de M. Poujoulat et de M. l'abbé Raulx, Bar-le-Duc, 1864-1872. (Histoire de Saint Augustin – Lettres de Saint Augustin).

6 – *Œuvres de Virgile : Bucoliques* (traduction de M. Rat 1932).

7 – *Œuvres de Virgile : Géorgiques* (traduction de M. Rat 1932).

8 – *Œuvres d'Horace*: (traduction: Leconte de Lisle, 1873).

9 – *Œuvres d'Horace*: «Art poétique», traduction: F. Richard, 1944.

10 – Pernoud, Régine et Madeleine, *Saint Jérôme*.

11 – *Persius – Les Satires* (traduction de J. Barbier, 1843).

12 – *Persius – Les Satires* (traduction de M. Jules Lacroix, 1846).

13 – The Fathers of the Church, *Letters of St. Augustine of Hippo*, New Advent.

14 – *Vie de St Augustin Evêque d'Hippone et Docteur de*

www.old-criticism.blogspot.com

l'Eglise, par l'Abbé Prêtre du diocèse de La Rochelle (1836).

15 – الكتاب المقدَّس، منشورات دار المشرق، ١٩٨٦ و١٩٨٩

www.old-criticism.blogspot.com

فهرس المحتويات

مقدّمة ٥

١ – القدّيس أوغسطينُس في سطور ٧

٢ – القدّيس هيرونيمُس في سطور ٩

الرّسائل المتبادلة بين هيرونيمُس وأوغسطينُس ١٣

١ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ١٥

٢ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ٢٢

٣ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ٢٤

٤ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ٣١

٥ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ٣٣

٦ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ٣٦

٧ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ٤١

٨ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ٤٦

٩ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ٥٦

١٠ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ٧٩

١١ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ٨١

١٢ – من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ١٠٩

١٣ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ١١١

١٤ – من أوغسطينُس إلى هيرونيمُس ١٣٤

www.old-criticism.blogspot.com

١٥- من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ١٥٠
١٦- من هيرونيمُس إلى أوغسطينُس ١٥٣
١٧- من هيرونيمُس إلى أليبيوس وأوغسطينُس ١٥٤
المراجع ١٥٩

www.old-criticism.blogspot.com

الإخراج: تانيا زيدان
الطباعة : أيس ديزاين أند برنتنغ سنتر

١/٧/١٥-١,٥-١٩٩٧

١٦٤

www.old-criticism.blogspot.com

منشورات:
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفيّة، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠ لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ – بيروت، لبنان

صدر في سلسلة «التراث الروحيّ»

١ . **أناشيد من الشرق**، اختارها ونقلها إلى العربيّة جورج يونس.

٢ . **إعترافات القدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٣ . **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٤ . **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٥ . **مجموعة الرسائل الروحيّة ليوحنّا الدلياتي، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

٦ . **كتاب الصلوات، لغريغوريوس الناريكيّ**، نقله عن الفرنسيّة الأب جورج عقل اليسوعيّ.

٧ . **أفراهاط الحكيم الفارسيّ: المقالات**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.

٨ . **أقوال الشيوخ، حِكَم آباء البرّيّة**، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ.

٩ . **ثيودورُس أسقف المصّيصة: العظات التعليميّة**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.

١٠ . **الرياضة الروحيّة أو الحاشية في تدبير رياضة المتروّضين للمطران جرمانوس فرحات**، حقّقها وقدّم لها الأَب سليم دكّاش اليسوعيّ.

١١ . **مجموعة الميامر الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

١٢ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الأوّل (الكتب ١–١٠)**، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٣ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الثاني (الكتب ١١–١٧)**، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٤ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الثالث (الكتب ١٨–٢٢)**، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٥ . **ميتوديوس الأولمبيّ: الوليمة**، نقله عن الفرنسيّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ.

١٦ . **القدّيس أَوْغُسطينُس: محاورة الذات**، نقله عن اللاتينيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٧ . **أرِسْتيدُس الفيلسوف الأثينائيّ: الدفاع (بحسب رواية بَرْلَعام ويوآصاف)**، نقله إلى العربيّة وقدّم له وعلّق عليه ووضَعَ فهارسه الأب جوزيف كميل جبارة.

١٨ . **القدّيس أَوْغسطينُس: تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي – في الحياة السعيدة – في الكذب**، نقله إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٩ . **رسائل إقليمس الرّومانيّ – إغناطيوس الأنطاكيّ – بوليكاربُس السّميرنيّ**، نقلها إلى العربيّة سعدالله سميح جحا.

٢٠ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الأوّل (١–٦٧)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعدالله سميح جحا.

٢١ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الثاني (٦٨–١٥٠)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعدالله سميح جحا.

٢٢ . **هيرونيمُس، مشاهير الرجال**، نقله إلى العربيّة وقدّم له وعلّق عليه ووضع فهارسه الأب جوزيف كميل جبا[illegible]

٢٣ . **الرّسائل المتبادلة** [illegible] **وأَوْغسطينُس**، نقلها [illegible] جحا.

www.old-criticism.blogspot.com